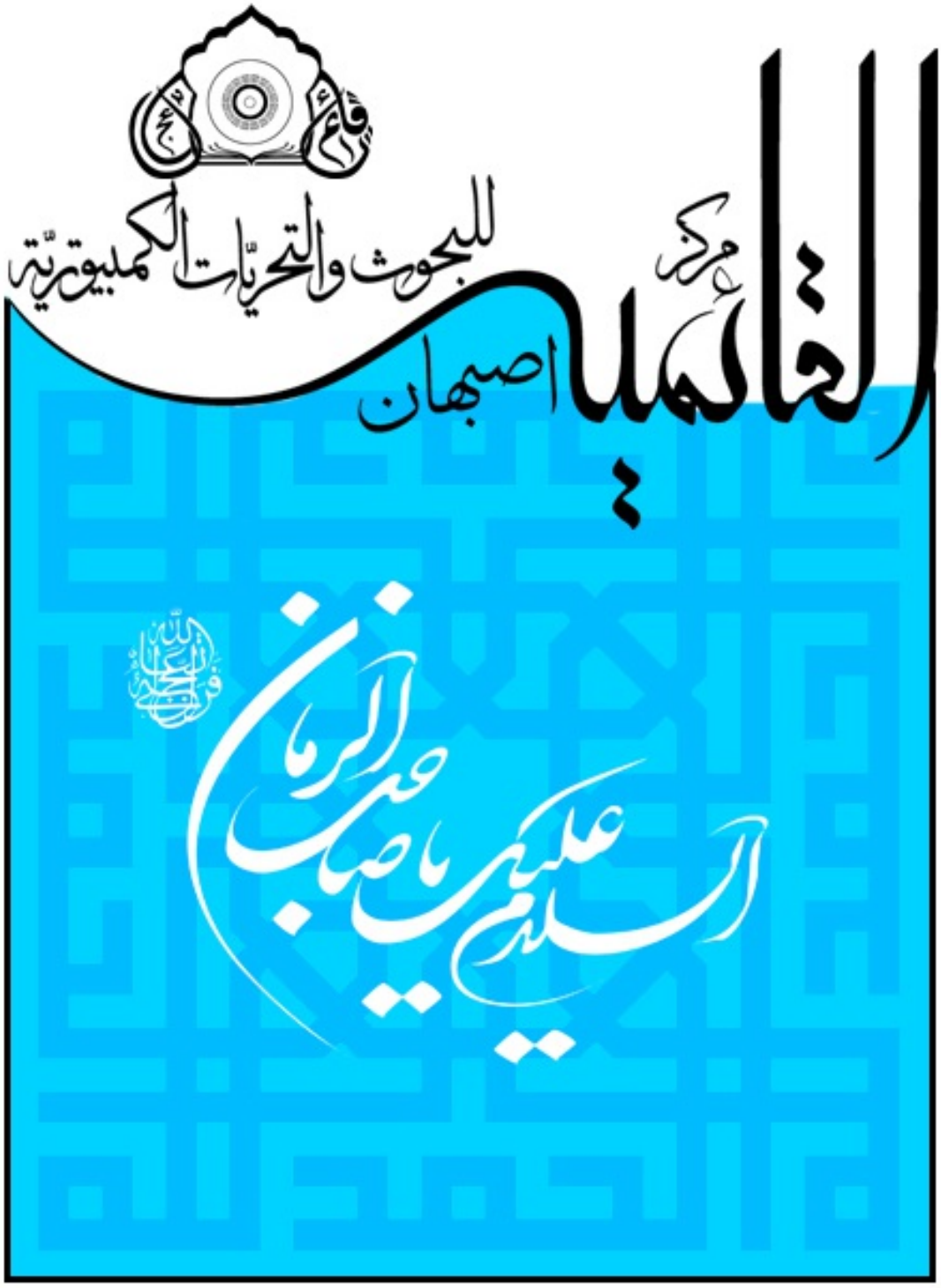

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

رحلة فريزر

إلى بغداد سنة ١٨٣٤ م

تأليف

جيمس بيلي فريزر

ترجمة

جعفر الخياط

الدار العربية للموسوعات

بسم الله الرحمن الرحيم

رحلة فريزر الى بغداد

كاتب:

جيمز فريزر

نشرت فى الطباعة:

الدار العربية للموسوعات

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
رحلة فريزر الى بغداد ----- ۸
اشارة ----- ۸
مقدمة المترجم ----- ۸
(۱) [الرسالة الاولى] ----- ۱۱
اشارة ----- ۱۱
أرومية ۱۷ تشرين الأول ۱۸۳۴ م ----- ۱۱
(۲) [الرسالة الثانية] ----- ۱۹
اشارة ----- ۱۹
السليمانية- أول تشرين الثانى ۱۸۳۴ م ----- ۱۹
أول تشرين الثانى ----- ۲۵
۳ تشرين الثانى ----- ۲۵
كفرى ۴ تشرين الثانى ----- ۲۸
(۳) [الرسالة الثالثة] ----- ۳۴
اشارة ----- ۳۴
بغداد- ۱۳ تشرين الثانى ۱۸۳۴ م ----- ۳۴
(۴) [الرسالة الرابعة] ----- ۳۹
اشارة ----- ۳۹
عزيزتى ----- ۳۹
(۵) [الرسالة الخامسة] ----- ۴۷
اشارة ----- ۴۸
عزيزتى ----- ۴۸
(۶) [الرسالة السادسة] ----- ۵۶

(۷) [الرسالة السابعة] ۶۲
اشارة ۶۲
۲۰ تشرین الثانی ۶۵
(۸) [الرسالة الثامنة] ۷۰
(۹) [الرسالة التاسعة] ۸۱
اشارة ۸۱
۱ الأربعاء: ۲۸ تشرین الثانی ۱۸۳۴ م ۸۱
۲ أول کانون الثانی ۸۳
۳ کانون الأول ۸۳
۴ کانون الأول ۸۳
۵ کانون الأول ۸۷
الساعة التاسعة صباحا ۸۷
الساعة الثانیة بعد الظهر ۸۷
(۱۰) [الرسالة العاشرة] ۸۹
اشارة ۸۹
۶ کانون الأول ۸۹
۱۱ کانون الأول ۹۳
۱۷ کانون الأول ۹۴
۱۹ کانون الأول ۹۵
(۱۱) [الرسالة الحادیة عشر] ۹۵
قبائل العرب فی ما بین النهرین- أخلاق الأعراب و أذواقهم- ضغائن الدم و الأخذ بالثأر- قصتان من قصص الثأر عند العرب ۹۵
۲۲ کانون الأول ۱۸۳۴ م ۹۵
فهرس الأعلام ۹۹
فهرس الأمکنة و البقاع ۱۰۵

فهرس القبائل و الشعوب و الأديان ---------- ۱۱۳

فهرس المحتويات ---------- ۱۱۶

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية ---------- ۱۱۷

رحلة فريزر الى بغداد

اشارة

نام كتاب: رحلة فريزر إلى بغداد / تعريب جعفر خياط

نويسنده: فريزر، جيمز بيلى

تاريخ وفات مؤلف: ۱۸۵۶ م

موضوع: سفرنامه

زبان: عربى

تعداد جلد: ۱

ناشر: الدار العربية للموسوعات

مكان چاپ: بيروت

سال چاپ: ۱۴۲۷ ه. ق

نوبت چاپ: اول

مقدمة المترجم

«.. و لم يهتم بالبلاد الواقعة فى القسم الشرقى من البحر الأبيض المتوسط سوى حكومات أوربة الجنوبية البحرية، لأن هذه البلاد كانت مصدرا مباشرا أو طريقا لمصادر الحرير و التوابل و الأبازير التى كانوا يحصلون عليها بمبادلة البضائع من سورية و مصر. و من جراء هذه الحاجات كانت السفرات البحرية لدياز و دوغاما قد عجلت الاهتمام بالبلاد الهندية و ما جاورها. فمخرت أساطيل البرتغال عباب البحار الهندية قبل انتهاء القرن الخامس عشر، و شيدت فى الخليج العربى قلعة هرمز العظيمة فى (۹۱۳ ه) ۱۵۹۷ م. و كان تجار البندقية و جنوة يسلكون باستمرار الطريق البرى الذى هو بمقام جسر أرضى يربط البحر الأبيض المتوسط بالسواحل الإيرانية. و كانوا فى طريقهم هذه ينزلون فى خانات بغداد أو «بابل» و يشاهدون النجف أو يتلبثون أيام مرورهم فى الزبير.

و هكذا بقى ذكر العراق خاملا فى العالم من قبل أن يعود به، فيجعله قبلة الأنظار من جديد، ظهور الصفويين الذين كانت شهرتهم آخذة بالنمو، و من قبل فتوحات سلطان الترك الشرقية، و توسع تجارة الأمم الغربية و مغامراتها».

هذا ما كتبه المستر لونگريك فى (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ليأتى به على وصف علاقة العراق بالعالم الخارجى فى تلك الأيام التى وقع فيها فريسة فى أيدى الفاتحين من المغول و التركمان. و قد تطورت تلك العلاقة بعد ذلك فازداد اتصال البرتغاليين بالبصرة و خليجها بعد أن ثبتوا أقدامهم فى هرمز. و كانت النهضة الحديثة فى أوربة يومذاك قد دب فيها دبيب الحياة، و راحت أساطيل الأمم الكبيرة تتجه فى إبحارها نحو الهند و البلاد

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۶

بغداد كما ترى من منطقة المجيدية- ۱۸۲۷ م

المجاورة لها. فظهر الهولانديون و الإنكليز فى موانىء الخليج العربى، و أسس الإنكليز شركة الهند الشرقية، و حمى و طيس المنافسة بين هذه الدول الثلاث حتى وصل إلى الاشتباك و التصادم. فاحتل الإنكليز حصن قشم البرتغالى المنيع فى كانون الثانى ۱۶۲۲ م، و ساعدوا الإيرانيين بأسطولهم فى الاستيلاء على هرمز بعد عدة أشهر.

و مع أن هذا الحدث كان يعتبر ضربة قاصمة للنفوذ البرتغالى فى تلك الجهات فقد ظلت المنافسة قائمة على قدم و ساق حتى استطاع

البريطانيون القضاء على قوة البرتغاليين البحرية فى ۱۶۸۹ م. و عند ذاك ظلت المنافسة منحصرة بين الإنكليز و الهولانديين، فأظهر الهولانديون مهارة فى التجارة بأساليب غير محمودة، و لكنها غير عنيفة. إذ أخذوا يهاجمون الأسواق بكل سلاح الرشوة و الدعاية الزائفة أو المضاربة المغرية. و مع هذا فقد صمد الإنكليز لكل ذلك فكان التوفيق حليفهم فى النهاية. و خلالهم الجو فأصبحت لهم سيطرة مطلقة على المنطقة الممتدة من الهند إلى الخليج، ثم إلى داخل

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۷

العراق. و قد تعاظم نفوذهم فى أيام الباشوات المتأخرين من المماليك فى العراق و من أتى بعدهم بحيث راحوا يتدخلون فى كثير من شؤون العراق الداخلية، و يسخرون نفوذهم السياسى فى إبقاء هذا الباشا أو ذاك متربعا على دست الحكم فيه.

و يقول لونگريك فى هذا الشأن، «أما فى داخل العراق فإن انتقال البلاد من حالة القرون الوسطى إلى حالة دولية حديثة قد زاد فى اتصاله و تعاونه مع الممثلين الأجانب. فقد كانت المشاريع البريطانية من جهة تقوم بخدمات جليلة للعراق من دون أن تطلب شيئا فى مقابل ذلك سوى تأمين توسع التجارة البريطانية. و كان حكام العراق المتعصبون من جهة أخرى مستائين من وجود هؤلاء الأجانب و امتيازاتهم، و صداقاتهم للقبائل، لكنهم لم يقووا على منع كل ذلك. فإن كبيرهم «المقيم» كان بوسعه أن يحطم كل شخص بكلمة واحدة تصدر منه إلى استانبول .. و بينما كان القنصل- التاجر فى القرن الثامن عشر غير قادر على شىء سوى دوام «الامتيازات» و تركه حرا دون تعرّض له أصبح مقيم القرن التاسع عشر و هو المتكلم نيابة عن شركات البواخر، و هيئات إنشاء التلغراف، و الأثريين، و مؤسسات الهبات الخيرية. و لم تفتأ بعض استنجادات القبائل بالحماية البريطانية تزعج الباشا أشد الإزعاج ..».

على أن نشأة التغلغل البريطانى هنا فى بداية القرن التاسع عشر كان يتأثر إلى حد كبير بالمنافسة التى كانت موجودة بين بريطانية و فرنسة النابوليونية فى الشرق الأوسط جميعه. و قد ظلت بريطانية على وضعها هذا حتى استطاعت القضاء على نابوليون أيضا، و تخلصت من شر الخطط التى وضعها لتهديد مركزها فى الهند و ما جاورها. و فى حوالى ۱۸۳۰ م تبدأ المنافسة البريطانية الروسية فى هذه الجهات من العالم، و تمتد إلى نهاية القرن تقريبا، لتحل محلها بعد ذلك المنافسة الإنكليزية الألمانية.

و فى خلال هذه المراحل و الأدوار كلها كثر اتصال العراق بالعالم الخارجى و تعدّدت أوجهه، و صار الكثيرون من الأوربيين يقصدون هذه البلاد أو يمرّون بها. و يتجوّلون فى أرجائها. أو يقيمون فيها مدة تقل أو تزيد تبعا

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۸

لنوع العمل الذى يأتون من أجله أو المهمة التى ينتدبون لها. و قد عمد الكثيرون من هؤلاء إلى كتابة مذكرات أو يوميات عن رحلاتهم و سفاراتهم هذه، فكان بعضها مهما و بعض الآخر تافها لا قيمة له. فتوفرت من ذلك كله ثروة تاريخية غير يسيرة، لها قيمتها فى توضيح الحوادث التى كانت تقع فى شتى الأدوار التى مرت بها هذه البلاد و لا سيما فى «عصورها المظلمة»، على ما فيها من تحيّز و تحامل فى بعض الأحيان.

و لو أردنا أن نحصر الغايات و الأغراض التى كان أولئك السياح المسافرون يقصدون هذه البلاد من أجلها فى تلك الأيام نجد أنها لا تخرج عن النقاط التالية: «التبشير، التنقيبات الأثرية، السياحة و المغامرة، الأغراض التجارية، التمثيل السياحى، و الانتداب لأغراض فنية أو عسكرية أو طبية، هذا فضلا عن المرور من هذه البلاد الواقعة بين القارات و خاصة فى الطريق إلى الهند و إيران. و لذلك فقد أورد لونگريك وحده فى قائمة مراجعه عن العراق للفترة ما بين ۱۵۵۳ م و ۱۹۱۴ م أسماء لثمانى و تسعين رحلة و تقرير و مقالة مسهبة، و كلها تصف العراق و أوجه الحياة فيه بطريقة أو بأخرى. أما أصحاب هذه الرحلات فهم بين برتغالى و فرنسى، و هولاندى و ألمانى، و إيطالى و إنكليزى، و أرمنى و هندى، بالإضافة إلى أربعة من الأتراك. غير أن قسما كبيرا من أولئك هم من الإنكليز بلا شك.

و من جملة السياح الإنكليز هؤلاء، أو الرحالين، صاحب هذه الرحلة المستر جيمس بيلى فريزر، الذى كتبها بجز أين و سماها «رحلات

فی کردستان و بین النهرین» . و هو رجل مهنته الکتابة، و قد قام برحلته فی عام ۱۸۳۴ م، فسافر من استانبول إلی إیران بمهمة دیبلوماسیة و قطع المسافة علی ظهور الخیل ثم تجول فیها حتی حط الرحال فی تبریز. و أخذ یکتب منها إلی زوجته علی ما یظهر رسائل متتالیة فیها شیء غیر یسیر من التفصیل عن کل ما یری فی

رحلة فریزر إلی بغداد/ تعریب جعفر خیاط، ص: ۹

طریقه أو یفکر فیه. و تبدأ الرحلة المطبوعة هذه بالرسالة الأولی من تبریز، التی أرّخها فی ۴ تشرین الأول ۱۸۳۴ م. فیتطرّق فی رسائله الخمس الأولی إلی وصف الحالة فی تبریز و کردستان الإیرانیة کلها و خاصة منطقة أردلان. و بالنظر لأن هذه المناطق تقع فی إیران فقد ضربت صفحا عنها و لم أقم بترجمتها لأنها لا- تمت بصلة قویة إلی تاریخ هذه البلاد. لکننی وجدت من المناسب، بل من الضروری، أن أقوم بترجمة قسم کبیر من رسالته الثالثة (المؤرّخة فی ۱۷ تشرین الأول ۱۸۳۴ م) لأنه یتطرّق فیها عرضا إلی شؤون راوندوز من تاریخ الأصقاع الشمالیة من العراق نفسه. و قد أهملت کذلک قسما غیر یسیر من الرسالة الخامسة عشرة (الأخیرة) المطبوعة فی الجزء الأول لأنها تتطرّق فی بحثها إلی عشائر عربیة تدخل فی داخل الحدود الترکیة أولا، و لأن البحث المتروک یعدّ شیئا تافها لا قیمة تاریخیة له.

أما الرسائل الأخری التی یحویها الجزء الأول من الرحلة، أی الرسالة السادسة إلی الخامسة عشرة، فهی التی تؤلف مجموع هذا الکتاب الذی أطلقت علیه تجاوزا اسم (رحلة فریزر إلی بغداد فی ۱۸۳۴ م). و لهذه الرسائل، عدا ما فیها من طرافة، أهمیة تاریخیة غیر یسیرة. لأنها تجلو لنا کثیرا من مراحل التاریخ العراقی فی أواخر أیام داود باشا أو أوائل العهد الجدید الذی دخل فیه العراق، بعد أن تعاونت الأقدار و جیوش السلطان فی القضاء علی باشوات الممالیک و عهدهم و وضعت حدا لاستقلالهم فی الحکم عن الباب العالی فی استانبول.

فهی تصف میر راوندوز کور محمد باشا وصفا طریفا و تتطرّق إلی فتوحاته و طریقة حکمه، و تصف ما آلت إلیه الحالة فی السلیمانیة من فقر و خراب بسبب الخلافات العائلیة و الطاعون، کما تصف مؤامرات داود باشا، و الطاعون الکبیر الذی أتی علی ثلثی سکان بغداد فی أیامه، و الغرق، و الخراب الذی حل بالبلاد فی أثر ذلک. ثم تتطرّق إلی استیلاء علی رضا باشا علی بغداد و قضائه علی بقایا الممالیک، و طریقته فی الحکم مع سیاسته العشائریة. و فی الرسائل معلومات مفیدة عن عشائر الجربا و عنزة و عقیل و زبید و استفحال أمرها مع تهدیدها لبغداد نفسها، و وصف طریف لبغداد بعد خرابها،

رحلة فریزر إلی بغداد/ تعریب جعفر خیاط، ص: ۱۰

و لمجتمع بغداد و محلاتها و طبقات السکان فیها، مع العادات و الأزیاء و الملابس. هذا و قد علّقت علی کل ذلک ما أمکن التعلیق توضیحا للحقائق و ربطا لها بالحوادث التاریخیة العامة علی قدر الإمکان.

أما الجزء الثانی من الرحلة ففیه تسع عشرة رسالة أیضا، و هی تتناول سفرات أجریت إلی سلوقیة و طاق کسری، ثم إلی آثار بابل و الحلة و ما جاورهما، و إلی مخیم زبید و بعض العشائر الأخری، و إلی منتفک و سوق الشیوخ و ما حوله. و یلاحظ من هذه الرسائل أن صاحب الرحلة یعود إلی بغداد ثم یغادرها متوجها إلی إیران ثانیة عن طریق دیالی التی یکتب عنها شیئا أیضا.

و لم یسمح لی المجال مع الأسف أن أقوم بترجمتها.

و لا بد من الإشارة هنا إلی أن صاحب الرحلة یجنح فی رسائله هذه إلی التحامل علی العرب و الأکراد معا بعض التحامل، و یصمهم بوصمات و نعوت قد لا- تکون مناسبة، و خاصة العشائر منهم. و ذلک فی معرض التکلّم عن أخطار الطریق و تعرّض السیاح و المسافرین إلی السلب و النهب و فرض الإتاوة علیهم. و إنی أعتقد أن هذا شیء لا یمکن أن یکون غیر منتظر بالنسبة لأوضاع البلاد و أحوال سکانها فی تلک الأیام من جهة، و لعقلیة الأوربیین و استغرابهم مما یصادفونه فی البلاد الغریبة عنهم من جهة أخری. علی أننی مع کل ذلک أؤاخذه فیما یصدره فیها من أحکام عامة فی بعض الأحیان من دون أن تستند إلا إلی حوادث فردیة أو وقائع شاذة لا

يمكن أن تتخذ مقياسا تقاس به الأمور بصورة عامة. و لا شك أن القارىء الكريم سيلتفت إلى ذلك.

و قبل أن أختم هذه الكلمة أود أن أشير إلى أن صاحب الرحلة المستر فريزر ملم باللغة الفارسية على ما يبدو من كتاباته، و له كتب عن إيران منها «القزلباش» و «رحلة شتوية إلى إيران» عدا كتابه الآخر عن آثار العراق الموسوم «ما بين النهرين و آشور» . كما أود أن أسجل إعجابى بأسلوبه

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۱

الكتابى وسعة اطلاعه و ثقافته بوجه عام.

و كان جيمس بيلى فريزر هذا قد ولد فى أنفرنيس باسكوتلاندا فى ۱۷۸۳ م و توفى فى ريليك فى كانون الثانى سنة ۱۸۵۶ م. مما عرف عنه فى أيامه أنه كان سائحا و مؤلفا، و قد ذهب إلى الهند فى أول أدوار حياته، و فى ۱۸۱۵ م ارتاد جبال الهيمالايا و درس الكثير من أحوالها. و حينما عاد إلى لندن بعد ذلك عيّن لمرافقة الأميرين الإيرانيين اللذين كانا منفيين فى إنكلترا، رضا قلى مرزا و نجف قلى مرزا، و عاد معهما حتى أوصلهما إلى استانبول.

و فى ۱۸۲۳ م تزوج ابنة اللورد و وهاوسلى، و هى زوجته التى ظل يبعث إليها برسائله التى يؤلف قسم منها قوام هذه الرحلة. و كانت بعض الملاحظات الفلكية و الجغرافية التى دوّنها فى رحلاته و أسفاره ذات فائدة جلى فى رسم خرائط البلاد الآسيوية.

جعفر الخياط

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۳

(۱) [الرسالة الاولى]

اشارة

.. الوصول إلى أرومية- العشائر الكردية و عبثها- البلباس- مير راوندوز- رحلة الدكتور روص إلى المير- مقارنة بين القرى التركية و الكردية- دمدم مقر المير الكبير (الأب)- أخلاق الناس- لباسهم و أزياؤهم- عاداتهم- عمى المير الكبير- إخوان المير- الخرافات- عدم إقراء الضيف- الوحشية و الشجاعة- قوانين المير و عدالته- العقوبات الصارمة- الجيش فى الميدان- الاستيلاء على عقرة- إخضاع العمادية- ذهاب الدكتور روص إلى معسكر المير- مواجهته للمير و التحدث معه- معسكر المير- عودة الدكتور روص- شخصية المير و أخلاقه- محاولاتى للاتصال به- عدم توفقى فى ذلك- توجهى إلى بغداد عن طريق السليمانية.

أرومية ۱۷ تشرين الأول ۱۸۳۴ م

إن سفرة ثلاثة أيام يا عزيزتى- من القرية التى حرّرت فيها رسالتى السابقة إليك قد أوصلتنى إلى هذه المكان الجميل، العريق فى القدم، الذى يعتبر مسقط رأس زرادشت المشهور. إذ يقع طريقنا من طسوج إلى هنا فى منطقة سلماس و سهلها، و هى من أجمل المناطق فى أذربيجان.

... و تسيطر على هذه البلاد فى الحقيقة عشائر متوحشة خارجة عن الطوق، لا يضع حدّا لتصرفاتها سوى ضعفها النسبى. فالبلباس، و هم عشيرة كانت قوية الشكيمة كثيرة العدد فى يوم من الأيام، يسكنون الجبال و السهول المحيطة ببالبك و لا هيجان التى لا تبعد كثيرا عن أرومية نفسها. و هم بين حين و آخر يسلّون أنفسهم بالانقضاض على جهات سولدوز و سرادشت

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۴

المجاورة، و حتى على سوج بولاق فى بعض الأحيان. و هناك كذلك الروان و الهركية و النوجية، و عشائر كثيرة أخرى مبالة هى

ايضا إلى أن تسلّى نفسها على هذه الشاكلة. و من حسن الحظ أن تنشأ إلى الغرب من هذه المنطقة قوة مرهوبة الجانب تستطيع، على ما فيها من خشونة، أن تمارس تأثيرا مطوعا على هؤلاء النهابين الشرسين و تجبرهم على الخضوع التام الضرورى، برغم ما فيه من تعسف، فتجعل بذلك قسما من البلاد آمنة سالمة يمكن التجوّل فيها فى حالات معيّنة.

فلم يكن محمد باشا، الذى يعرف بمير راوندوز ، قبل سنوات قليلة سوى رئيس مثل سائر الرؤساء الأكراد و قائد يقود محاربى عشيرته التى لم تعرف بغير اسم راوندوز. و قد بدأ سيرته بتنحية والده عن رئاسة القبيلة بحجة عدم اقتداره فى تدبير شؤونها خلال الأيام العصيبة. على أن البعض يقول إن الوالد المتقدم فى السن كان ميّالا بطبيعته إلى الهدوء و التعبّد فطلق العالم و مغرياته، و وضع ابنه فى منصبه. و بالطريقة نفسها تخلّص من بعض إخوته، فثبّت أقدامه بحزم و قوة و أصبحت له السلطة المطلقة فى موطنه راوندوز.

و أخذ بعد ذلك يعمل على تعزيز سطوته و جمع الأتباع استعدادا لمعاركه المقبلة. لكن نهضته الحقيقية تبدأ بالحرب التى نشبت بين إيران و روسية حين اضطر الأمير المالك إلى سحب قواته و تحشيدها تجاه عدو أشد خطرا على

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۵

البلاد بعد أن كان يهم بسحق المير و تأديبه. فاستغلّ المير هذه الفرصة، و لم يسترجع جميع المناطق التى كان الأمير الإيرانى قد حرمه منها فحسب بل مدّ يده أيضا إلى الغرب و الشمال و توفق فى ذلك بحيث أصبح الآن مسيطرا على قسم كبير من شمالى ما بين النهرين، إلى جانب الأصقاع الممتدة من أربيل إلى كركوك فى الجانب الشرقى من دجلة.

و المقول بصورة أكيدة أن ما يقرب من خمسين ألف رجل يقفون الآن تحت تصرّفه، و تدفع للنصف الأحسن من هؤلاء أجورهم بانتظام و هم يعملون بصورة مستديمة لأنه لا يزال يستخدمهم فى إخضاع المناطق العاصية عليه، و هكذا تتسع ممتلكاته بسرعة. لكن الجزء المهم من القصة كلها هو التغيّر الأخلاقى الكبير الذى حصل فى البلاد التى أخضعها لحكمه. فإن البلاد بعد أن كانت تحتلها أمة من اللصوص الذين ما إن يجدوا مسافرا يمر إلّا و يحاولون إيقافه و سلبه، أو الذين يقدمون على ذبح المرء إذا وجدوا بيضة فى يده كما يقولون هم أنفسهم، قد أصبحت خالية من أية سرقة أو سارق. فقد قضى على صنعة اللصوصية من أصلها بعملية بتارة: إذ صار الذى تكتشف بحوزته أشياء تعود للغير يعاقب فى نفس المكان الذى يكتشف أمره فيه، أو يقتل من دون رحمة. و تتوقف العقوبة فى هذا الشأن على ظروف الجريمة، فيعاقب المذنب لأول مرة بسمل واحدة من عينيه أو قطع إحدى يديه أو بجدع الأنف أحيانا.

ثم يعاقب للمرة الثانية بتشويه أشد من هذا القبيل، أما فى المرة الثالثة فإنه يعاقب بالموت على الدوام.

و لا شك أن صرامة هذا القانون تستدعيها الظروف السائدة فى البلاد التى يراد ضبطها، و الحالة فيها. فهو قانون رئيس من رؤساء اللصوص ينفذه من دون خوف أو وجل، و من دون أن يعفى منه أحد، لأجل أن يسيطر به على رجال عصابته. و حينما يعلم الجميع بأن أحكام هذا القانون لا استئناف لها و لا تمييز، و ليس هناك رحمة فى عدالته، فإنهم لا بد أن يرتجفوا و يطيعوا. و لا شك أن أى شىء يقل عن ذلك فى صرامته و قسوته لا يمكن أن يكون مؤثرا فى هذه الظروف. فكان لذلك وقع شديد بين الناس بحيث صار كل من فى البلاد

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۶

الخاضعة لحكم المير و سيطرته لا يمس حتى كيس الذهب إذا وجده فى الطريق، و إنما يخبر مختار القرية القريبة من الموقع، و هذا بدوره يكون من واجبه أن يبعث من يحضره له فيحفظه عنده حتى يتم تسليمه إلى صاحبه الشرعى، على أن يخبر المير نفسه بذلك فى الوقت نفسه.

و يروى عن المير أنه تناهى إليه ذات يوم أن أحد إخوته المقرّبين إليه مرّ راكبا ببستان يعود لرجل فقير و اقتطف رمانة منه، دون أن يترخّص من صاحبه.

فبعث عليه و واجهه بالتهمة التى لم ينكرها، ثم سأله عن اليد التى اقتطف بها الرمانة و الأصبع الذى قطعها به، فأمر بقطعه. و تروى عنه

قصة أخرى فتذكرنا بقصة مماثلة تؤثر عن نادر شاه الذى لا يقل عنه المير صرامة و قسوة. فقد وجدت جثة رجل على قارعة الطريق بالقرب من إحدى القرى، و قد شوّهتها الذئاب و بنات آوى و مزّقتها شرّ ممزّق. فوصل خبرها إلى المير نفسه، و أمر بإجراء التحريات المعتادة جميعها لكن القتلة لم يتوصل أحد إلى معرفتهم.

و حينما سئل القرويون عن جلية الأمر ألقوا اللوم على ذئاب الغابة المجاورة التى سبق أن التهمت القسم الأكبر من الجثة. فأمر المير بإحضار الذئاب، و عند ذاك خرجت القرية كلها للقبض على الذئاب لأن سكانها كانوا على علم بالعاقبة الوخيمة التى تنتظرهم فيما لو عجزوا عن ذلك. و حينما جيء ببعض الذئاب إلى الرجل العظيم أمر بتعذيبها و قتلها قتلا- فظيعا أخذت ترتجف لهو له أوصال القرويين الذين شاهدوها، حتى أجهدوا أنفسهم فى اكتشاف القتلة و تسليمهم إلى العدالة لإنقاذ أنفسهم من المصير المرعب الذى كان يدل عليه ما حدث للذئاب المسكينة. و هذه القصة و إن تكن بعيدة الوقوع، فإنها تدل على الضوء الذى يجب أن ينظر فيه إلى أعمال هذا الرجل.

و لأجل أن يتسنّى لى وصف أمير كتب له على ما يظهر أن يؤثر تأثيرا مهمّا فى جزء كبير من هذه البلاد الطريفة جدا أرانى مضطرا للانتفاع ببعض النبذ المستمدة من يوميات الدكتور روص طبيب المقيمية البريطانية ببغداد الذى أسعفه الحظ فتسنى له أن يقوم برحلة فى هذه البلاد المخطرة بدعوة من المير نفسه. فإن المير مصطفى والد مير راوندوز كان رجلا أعمى على ما يبدو،

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۷

و يأمل أن يرد بصره إليه اتصل المير بالكولونيل تايلور (المقيم) و رجاه بأن يوفد له طبيبا إنكليزيا يجرّب فيه ما عنده من مهارة. فاغتنم الكولونيل تايلور هذه الفرصة لتنمية العلاقات مع هذا الرجل العجيب فى الحال، و كلّف الدكتور روص بهذه المهمة الطريفة. فتوجّه إلى بلاد المير فى قافلة يرأسها عمّه بايزيد بك الذى كان قد أرسل إلى بغداد للاتصال بالمقيم البريطانى حول القضية.

على أنه من الضرورى أن أخبركم أولا بأن المير، علاوة على جميع فتوحات فيما بين النهرين و القسم الأسفل من بلاد آشور، كان فى ذلك الوقت قد امتدت يده إلى بلاد العمادية، الخصبة الواسعة على كونها جبلية و عرة، التى تقع فى شمال غرب راوندوز و شمالى الموصل أيضا. و قد كانت هذه الدويلة، أو الباشوية لأنها كانت فى حكم أحد الباشوات، موضع ثناء الجميع و مدحهم لخصبها و جمالها و لكثافة السكان فيها. فقد أجمع عدة رجال محترمين فى تصريحهم لى على أنها تحتوى على اثنى عشر ألف قرية، غير صغيرة، تتألف كل منها من عدد من الأسر (أو البيوت) يتراوح بين المئتين و الثلاثمائة. و هذا قول لا بد أن يكون بعيدا كل البعد عن الواقع، لأننا إذا اعتبرنا أن القرية الواحدة تحتوى على مئة و خمسين بيتا فقط، و إذا افترضنا أن كل بيت يضم خمسة أنفس لا غير نجد أن المجموع يبلغ تسعة ملايين نسمة، و هو عدد يتجاوز عدد الموجود من السكان فى إيران كلها. و لذلك لا بد أن يؤخذ الرقم هذا ليدل على أن العمادية كثيرة السكان لا غير.

و قد كان يحكمها باشا ينتمى إلى أسرة كردية معروفة، بتنصيب من الباب العالى. لكن سوء حكمه، و الحسد الذى قوبل به من الآخرين، و النزعات المحلية، قد أدّت كلها إلى إسقاطه عنه. فأصبحت البلاد منقسمة إلى عدة رئاسات محلية صغيرة لا تلتفت بشىء إلى الباشا الحاكم الذى كان رجلا- ضعيفا أحمق، أضاع سلطته و سطوته على الناس و حبس نفسه فى قصره المنيع الموجود فى العمادية، بينما كان المير يكتسح البلاد و يقضى على هذه الرئاسات الشخصية واحدة بعد أخرى. و باستغلال الضغائن العائلية و الخيانة دفع المير الرشوات المناسبة و دخل تلك القلعة المهمة، و من هناك أخذ يوجه

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۸

جهوده بمزيد من الحيوية للقضاء على ما تبقى من القلاع فى تلك البلاد. على أن العمادية لم تكن قد سقطت بعد حينما زار البلاد الدكتور روص، و كان المير منهمكا فى محاصرة عقرة، إحدى القلاع الحصينة جدا الواقعة على الزاب، و التى تبعد مسيرة أربع عشرة ساعة من شمال أربيل.

و كـان الـدكتور روص قـد غادر بغـداد فى منتصف مايس ۱۸۳۳ م، و بين الملاحظـات الأـولى التى دوّنهـا عن الرحلـة التبـاين الكبير الموجود ما بين المناطق التركيـة و الكردية من حيث السـكان و الشؤون الزراعية. فقد كانت جميع القرى فى المناطق التركية مهجورة، لأن السـكان قـد فرّوا منها لتحاشـى ما كانت تفرضه الحكومة عليهم. و كل من بقى فيها كان يلهج بالتذمر من باشا بغداد، على باشا، و حالمـا كـان يظهر فى الأـفق رجـل من رجـال الحكومـة كان الناس يفرّون من وجهه ليخفوا أنفسـهم عنه. غير أن قافلـة الـدكتور ما إن وصـلت لآلتون كوبرى حتى تقاطر الناس عليها لاسـتقبال بايزيد بك، و هم يضعون الزهور فوق رؤوسهم كما يفعلون فى أيام العطل و المناسبات، و تزاحموا على تقبيل يده، ثم هتفوا له حينما مرّ أمامهم.

و قـد كان السـهل الممتد ما بين آلتون كوبرى و أربيل مكسوّا بالأزهار المختلطة بأوفر أنواع الخضـرة و أبهجها، كما كانت البلاد تعج بالسكان.

و يصف الـدكتور روص اسـتقبال بايزيـد بـك فى آخر مكـان بكونه على غايـة ما يكون من الجمال و الروعـة، من ناحيـة الملابس و الأزياء و الروح الودية التى كانت تبعث الحياة فى تلك المناظر الخلابة.

و فى التاسع عشـر من مايس ترك الدكتور روص أربيل متوجها إلى راوندوز التى كان يقيم بالقرب منها مصطفى بك العجوز، هدف الناحية المهنية من سـفرته. و بعد أن اجتازوا بلادا جبلية مخصـبة، مغطاة بالكثير من أشجار البلوط القصيرة، و ارتقوا عددا من الممرات المنحدرة، وصـلوا إلى دمدم محل إقامة الرجل العجوز الذى كانوا يشـرفون منه على وادى راوندوز و قلعتها، حيث كانت الأخيرة على بعد مسافة لا تزيد على ساعة ركوب واحدة. و دمدم قلعة صغيرة مشيدة فوق قمة صخرية شاهقة يبلغ ارتفاعها مئة قدم، و تشرف

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۹

على بلدة صـغيرة تتألف من مئة دار حقيرة تنتشر بين غابة كثيفة من البساتين الحاوية لكل نوع من أنواع الأشجار المثمرة. و كانت بلدة راوندوز تتألف، على ما يبدو من هذا الموقع، من حوالى ألفى دار متواضعة مع شىء يشبه القلعة يقع ما بين الجبال على الضفة الجنوبية من الزاب الكبير، الذى كان يمتد من فوقه جسـر من جذوع الأشـجار المسـتندة على دعامتين حجريتين و المغطاة بشىء من الأغصان و التراب. و قـد كـان النهر ضـيّقا سـريع الجريـان، جائشـا عميقا، لكن الأكلاك على بعـد ثمانى ساعات من أسـفل هـذا الموقع كان من الممكن لها أن تعبره. و لم يسـمح للـدكتور بزيارة راوندوز، و لا بالتجوال الكثير فى المنطقة، لكنه يذكر بين ما سـمع من الأشـياء التى تلفت النظر شـيئا واحدا على الأخص. فقد ذكر شـيئا عن عمود من الرخام يقوم فوق قاعدة مضـلعة و يبلغ طوله كله حوالى ثلاثة رماح (ثلاثون إلى خمسـة و ثلاثين قـدما)، و هو مغطى بالكتابات المنحوتة فيه، و قد أبدى عدد من الأوربيين من قبل رغبة فى مشاهدته فى مختلف الأوقات، لكنهم لم يسـمح لهم كلهم بـذلك. و مما قيل فى هـذا الشأن أن العمود يبعد عن دمدم مسـيرة يومين، و المعتقد أن الملكة سميراميس هى التى أقامته هناك.

و لم يكتب الدكتور روص عن دمدم و سـكانها بلهجة مشـجعة. فقد كتب يقول عن السكان «إنهم على ما يبدو لا يعرفون شيئا عما هو حسن فى العالم.

و هم يلبسون ألبسـة خلقـة، و بيوتهم أشـبه بأقنان الخنازير لا غير. يضاف إلى ذلك أنهم وحوش متجهمو الخلقـة، لا يعطون حتى و لا جرعة واحدة من الحليب من دون تذمر و صخب، و كل شىء آخر لا بدّ أن ينتزع منهم بالقوة.

و حينمـا أعطيتهم بعض الأدويـة أخـذوا يدمـدمون لأنى لأنى لم أزودهم بالقنانى اللازمـة لحفظها بها». على أن لباس الموسـرين منهم كان يشـبه لباس البغداديين. أما الفقراء فقد كانوا يرتدون سترة قصيرة، و سراويل صوفية فضفاضة، و صديريا من اللباد لا أردان له، مع أحذية قطنية، و جوارب صوفية.

كما كانوا يضـعون فوق رؤوسـهم العمامـة الكردية الخاصة. و يلبس النساء ثوبا أزرق، مع سـراويل فضـفاضة مشدودة من أسـفل حول رسغ الرجلين، و عباءة

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۰

مربعة تشد من زاويتين بحيث تصبح مدلاة من فوق الظهر. أما فى الرأس فيلبس قطعة مدورة من الفضة تتدلّى منها دلايات كبيرة تعلّق فى كل منها قطع من العملة حول الرأس و الرقبة، مصنوعة كلها من الفضة. و تعدّ طريقة التحية عندهم شيئا مستغربا، إذ يمسك أحد المتسالمين الآخر من المعصم الأيمن و يقبّل ذراعه. و فى كل مساء كان ستة أو ثمانية من القرويين يتناولون العشاء فى بيت المير، مع عدد من المحاربين القدماء من أصدقاء شبابه. و مما لا حظه الدكتور هنا انتشار الرمد بين الناس.

و قد تبيّن أن المير العجوز (مصطفى) أعمى لا يرجى له شفاء. و سبب ذلك، على ما يرويه هو نفسه، أنه أصيب بالرمد ذات يوم لأنه وضع الثلج فوق رأسه حينما اشتد عليه الحر أثناء تسلقه الجبل الذى وجد فوقه طبقة سميكة منه. على أن بعض الروايات تزعم أن عينيه قد سملتا بأمر من ابنه، و تم ذلك بواسطة «ميل» ساخن إلى حد الاحمرار لكن الدكتور روص يؤكد بأن هذا خطأ محض. أما سبب تنازله عن الحكم لابنه فهو على جانب أكبر من الشك و عدم التأكد. إذ يزعم البعض أن تنحيته كانت بالقوة، بينما كان يقول آخرون إنه اقتنع بأن ابنه سيكون أعظم منه فتنازل له عن الحكم طوعا لا كرها.

و للمير محمد، أو الباشا، أربعة إخوة على قيد الحياة. غير أن اثنين منهم، و هما تيمور خان و سليمان بك، قد سجنا فى قلعة تقع على بعد خمس ساعات من راوندوز. و كان الأخ الثالث أحمد بك يتولى حاكمية أربيل، بينما كان الرابع و هو رسول بك يتولى شؤون الجيش. يضاف إلى ذلك أن المير له ثلاث زوجات من دون ذرية، و ليس من المؤمل و هو فى الخامسة

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۱

و الأربعين من عمره الآن أن تكون له ذرية فى المستقبل، و لذلك يعتبر رسول بك خليفته من بعده.

و يبدو أن الدكتور قد عومل بحقارة فى دمدم التى عاد منها إلى أربيل لينتظر فيها أوامر المير الجديدة بشأنه. و قد وجد فى طريقه إلى هناك أن سكان إحدى القرى كانوا يأتون بأطفالهم إلى امرأة عجوز مرت بالقرية صدفة، فأخذت تنفخ صلواتها عليهم و تنعم عليهم بقطع من الخرق البالية و النقود التى كانت تباركها أيضا، فتعلق برؤوس الأطفال على شاكلة الرقى و التعاويذ ضد النحس و دفعا للشر. و قد وجد الدكتور أن الأكراد مثل سائر الجبليين كلهم لهم عقيدة قوية بالخرافات. «فكل تل و كل قمة كان له عفريته الخاص، و هناك بالقرب من راوندوز مغارة ملأى بالعفاريت» فقد سمع من هناك فى ۱۸۳۱ م هدير مدافع و هى تطلق فى اتجاه البلدة، فأعقب ذلك انتشار الطاعون فى الحال. و ظلت الأخبار تنتشر عن هذا الحادث لمدة شهر أو شهرين حتى انقطعت فجأة هى و الطاعون مرة واحدة. و قد أيّد هذا عدد من الناس المحترمين و عدوه شيئا حقيقيا.

و تدل الملاحظات التى توصل اليها الدكتور روص فى طريقه إلى أربيل، و بعد وصوله إلى هناك بمدة من الزمن، على أن الضيافة الكردية لم ترق له كثيرا. إذ يظهر منذ اللحظة التى أوصله فيها مهمنداره بايزيد بك إلى دمدم و تخلى عنه فيها أن تبدلا فى غير صالحه قد طرأ على المعاملة التى كان يعامل بها نظرا لعدم وجود من يجبر الفلاحين الغلاظ على السلوك الحسن معه. فهو يقول: «انهم أناس لطيفون بمقدار كاف حتى يجبرون على رفع الكلفة، و عند ذلك تبدو طبيعتهم المتجهمة- فلا يوجد عندهم سخاء حقيقى و لا إكرام للضيف- و هم يختلفون بذلك تمام الاختلاف عن القبائل العربية التى تعطى ما عندها عن طيبة خاطر، و تتسابق فيما بينها لتقديم الهدايا». و مع ذلك فإنهم لو لم يؤخذوا من مخيم لآخر بصفتهم أصدقاء الشيخ فإن نفس الأشخاص الذين

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۲

كانوا يعاملونهم معاملة حسنة ربما كانوا سيعمدون إلى سلبهم و تجريدهم من ملابسهم.

و قد اطلع الدكتور روص فى أربيل على الكثير من أحوال الأكراد، و هو يتكلم بشدة عن ميولهم الفظة و جنوحهم إلى التهيج. فهو يقول: «إن طبيعة الكردى مجبولة على الحرب. لأنه يدرب عليها من المهد، و لا يرتاح مطلقا من دون الاشتباك مع الغير أو خوض المعارك. فقد وجدت صبيانا لا تزيد أعمارهم على اثنتى عشرة أو خمس عشرة سنة و هم يعانون أو جاعا من جروح بليغة كانوا قد

أصيبوا بها فى معارك متأخرة. و قد علمت بأن معاركهم معارك دامية للغاية، و هم يبدأونها بإطلاق النار من البنادق لكنهم سرعان ما يعمدون فيها إلى الخناجر. و ليس ذلك من قبيل الضجيج أو التهويش المعروف عند العرب، و إنما هو قتال عنيف يؤدى فى الغالب إلى قتل الكثيرين و جرحهم.

و هم يزدرون بحكومة بغداد و جيشها ازدراء متناهيا، و يقولون إن المدينة لو كان فيها أى نفع لهم لما استطاع الأتراك أن يقفوا فى وجههم يوما واحدا دون احتلالها. و قد وجدوا الفرصة سانحة للاستيلاء على أربيل و آلتون كوبرى فى بعض المناسبات، و لم يستغرق استيلاؤهم على أربيل سوى ساعة واحدة. و هم لا يعتمدون فى الحصول على احتياجاتهم على أية بلاد أخرى إلا بلادهم. فإن كل ما يحتاجونه يتم إنتاجه فى بلدهم، و مع ان جبالهم تكون مواقع دفاع حصينة منيعة تجاه المحتلين الأجانب فإن وديانها و جهاتها الوعرة تنتج بقليل من الجهد كل ما يرغبون فى زراعته بوفرة، و تزودهم بذخيرة لا تنضب من الخشب و الماء و المرعى».

و تعطى البلاد المحيطة بأربيل من الباشا بالالتزام للشيوخ منطقة منطقة بالطريقة التى يسير بموجبها النظام الإقطاعى المعروف. فإن عشائر طى العربية تخضع للباشا و تبعث بقطعات غير يسيرة من رجالها لجيشه، الذى كان حينذاك فى عقرة. و قد كان الباشا على ما يبدو محبوبا عندهم، أو مرهوب

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۳

الجانب، و قد يكون ذلك ناشئا عن الصرامة التى تتصف بها حكومته. فمن النادر أن يسمع شىء عن السرقة و اللصوصية، و لا تغلق باب من الأبواب فى الليل مطلقا. و مع ذلك يندر أن تطبق عقوبة الموت بين ظهرانيهم. و إنما تقطع اليد عن السرقة و تقطع القدم عقابا للفرار من الجندية، و تسمل عين واحدة أو عينان عن الجرائم الأخرى. على أن عقوبات أشد صرامة من هذه قد تفرض فى بعض الأحيان على سبيل العبرة للآخرين. فقد لجأ ذات يوم إلى بلاد المير شيخ من شيوخ القبيلة العربية طى مع عشيرته، بعد أن أجبرتها على الرحيل من ديرتها عبر دجلة قبيلة الجربا القوية، و هناك عاش عيشة رضية هادئة فى ظل القوانين و الأنظمة التى وضعها المير. لكنه مل الهدوء و سئم الخمول الذى تفرضه حياة الدعة و العطالة، و بينما كانت إحدى القوافل تمر بمخيمه آمنة مطمئنة أغراه ما فيها من سلب و نهب إغراء لم يستطع كبحه فى نفسه فانقض عليها و غنم جميع ما كانت تحمله من سلع و بضائع. غير أن اليوم الثانى ما إن انتهى و حل المساء حتى حضر إلى مخيمه نصف دزينة من الأكراد، و دخلوا إلى خيمته من دون كلام أو مراسيم ثم احتزوا رأسه على بابها و عادوا من حيث أتوا بهدوء.

و حينما كان الدكتور فى أربيل قوبل بترحاب غير يسير من قبل أحمد بك حاكم أربيل و شقيق المير، و زاره سلطان بك أحد رؤساء المعسكر. و هناك علم أن الجيش كان يتألف من خمسة عشر إلى عشرين ألف رجل، و كانوا كلهم عاطلين فى معسكرهم لأن عقرة كانت قد تم الاستيلاء عليها قبل مدة من الزمن. و يقع هذا الحصن على قمة صخرة تكاد تكون عمودية على ما يبدو، و لا يمكن الوصول إليها إلا من طريق واحد ضيق بحيث لا يستطيع أن يركب فيه شخصان جنبا إلى جنب .

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۴

و قد كان سكانها يعتقدون بأن قلعتهم لا يمكن أن تستولى عليها قوة فى العالم، و لم يكن ينتظر حتى الباشا نفسه أن تقع فى يده بهذه السرعة. غير أنه حدث ذات يوم انه قد هوجم هو نفسه من كمين كانت ثلة استطلاعية تابعة للعدو قد نصبته فى مكان خطر، و كاد يؤخذ أسيرا بهذه الطريقة. فاغتاظ أتباعه لذلك بحيث إنه سار فى صباح اليوم التالى على رأسهم لمهاجمة ذلك المكان الذى تم احتلاله بالفعل خلال ثلاث ساعات بعد أن خسر مئة و خمسين من رجاله فقط. فاندهش أكراد العمادية لهذه المفاجأة الفذة بحيث إنهم تخلوا عن المكان من دون مزيد من القتال.

و فى يوم ۳۰ أيار وصل كتاب من الباشا ينطوى على أمره بإبقاء الدكتور روص فى أربيل حتى يطلبه هو على أن يخدم و يعامل بغاية الاحترام، فكان لذلك تأثير فى تحسين أحوال معيشته و تأمين راحته. و فى ۶ حزيران وصل الخبر بأن الأحوال فى العمادية قد سويت،

فتخلى الباشا السابق، سيد باشا، عن منصبه و نصب موسى باشا فى مكانه. كما نصب سليم باشا فى عقرة، و لما كانت جميع البلاد قد خضعت لحكومة راوندوز فقد أصبح كل شىء هادئا تمام الهدوء. و مع ذلك لم يصل أى أمر من سموه بإرسال الدكتور إلى معسكره إلا فى يوم ۳ تموز، بعد كثير من الاعتراضات و الاحتجاجات و عدد من التأكيدات المضللة عن وصول الباشا السريع إلى أربيل. فالظاهر أن الحاشية تبقى حركات الباشا و سكناته فى سرية تامة، إذ ليس فى مقدور أحد أن يحزر متى تتم هذه المسيرة أو تلك، حتى و لا أن يعرف الجهة التى ستسير فيها الجيوش إلى أن يتم الركوب.

و قد عبر الدكتور روص نهر الزاب بالكلك الذى يصفه بكونه أشبه ب «عربة نبتون» و قد سحب الكلك عبر النهر بحصانين اثنين سيقا فى أول الأمر إلى الماء ثم ظلا يحثان على العبور من قبل ركاب الكلك نفسه الذين كانوا يقبضون على ذيليهما بقوة. فوصلت الجماعة إلى عقرة بعد مسيرة أربع عشرة

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۵

ساعة و قطع ستة و خمسين ميلا إلى شمالى الشمال الشرقى. و يعتبر الدكتور روص كلّا من أربيل و عقرة فى شمال بغداد تقريبا.

و قد استقبله الباشا استقبالا حسنا، لكنه بعث إليه بمن يعتذر منه شخصيا لعدم قيامه له فى مجلسه أثناء دخوله عليه، كما يجب أن يجرى بالنسبة لخادم من خدام ملك إنكلترا، نظرا لأنه كان محاطا بأناس لم يتم إخضاعهم إلا مؤخرا و لأن الوقوف بوجودهم ينطوى على التساوى بينه و بين الباشا فى نظرهم، و هذا مما قد لا يكون من مصلحته أن يفعله أو يعترف به أمام ملأ من الناس. فألفى الباشا رجلا وسيم المظهر محبا للخير، يبلغ الخامسة و الأربعين من عمره تقريبا. كما وجده أبيض البشرة تبدو فيه آثار الجدرى. و قد اعورّت إحدى عينيه و أصبحت منخفضة معتمة. و كانت لحيته تبلغ حوالى اثنتى عشرة بوصة فى الطول، ذات لون بنى خفيف، و لم يمشط نصفها الأسفل و لذلك كانت ملبدة بعضها ببعض. أما من النواحى الأخرى فقد كان مرتب اللباس و الهندام. و كانت إحدى رجليه مصابة بالعرج لرفسة أصابته من أحد الخيول، كما كان يتكلم بصوت خافت. و قد دخل فى حديث طويل مع الدكتور روص أكثر من مرة، فى مواضيع عامة غالبا. فاستفسر منه عن طريقة التعليم فى انكلترا، و ديانة أهل الهند و الصين- متصورا أن الصين كانت تابعة لنا على شاكلة الهند. و قد كان يرغب كذلك فى معرفة علاقتنا بإيران و روسية. ثم استفسر فى مناسبة أخرى عن أشياء كثيرة مثل استعمالات الأدوية و تأثيراتها، و حالة النبض فى أثناء المرض، و عن الطاعون و الهيضة و غير ذلك. و انتقل بعد ذلك إلى مواضيع الحرب، فتحدث عن الطبنجات و المسدسات، و أخرج طبنجة إنكليزية قديمة ذات سبطانتين و بندقية، فكانت هذه مع سيف و مرقب (تلسكوب) و شمسية و سرير خشبى و عدد من المحافير تكوّن القسم الأكبر من اثاث خيمته و فيما يقرب من خيمته الخاصة كانت هناك خيمة واسعة ذات عمودين يعقد فيها الاجتماعات قبل الظهر و فى الليل. و هو لا يذهب إلى النوم مطلقا قبل بزوغ الفجر، و عند ذاك ينام إلى التاسعة أو العاشرة من صباح اليوم التالى. و قبيل الصلاة الأخيرة بربع ساعة يعزف جوق صاخب شيئا من الموسيقى، و فى وقت الصلاة تطلق طلقة من المدفع.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۶

أما القوة الموجودة فى المعسكر فقد علم الدكتور روص أنها تقدر بحوالى عشرة آلاف رجل فقط، و هى لا تكاد تساوى نصف الجيش الأصلى، فقد سرح باقى الرجال إلى بيوتهم للقيام بمهمة الحصاد. و لا يمت المعسكر بصلة إلى النظام و النسق العسكريين بشىء، على أن الشىء النظامى الوحيد هناك كان التفاف حلقة من الخيم الصغيرة حول خيمة الباشا، و هى تحتوى على حرسه الخاص الذين يبلغون ثلاثة آلاف شخص فى عددهم. و هؤلاء يكونون خدامه فى نفس الوقت. و يتسلح المشاة بالبنادق و الخناجر، كما يتسلح الفرسان بالرماح و الخناجر. و كل رئيس قبيلة تخيم قبيلته من حوله فى معزل عن سائر القبائل، فيؤدى ذلك إلى تشويه منظر المعسكر نفسه لأنه يمتد و الحالة هذه إلى مدى يفهم منه بالنسبة لقواعد الحرب الأوربية أنه يحتوى على خمسين ألف مقاتل. و مع هذا، فبرغم هذا الاحتياج إلى النظام و الترتيب لم يكن يسمع فيه و لا صوت واحد، و من الممكن أن يصل كل فرد فيه إلى المكان

المعين فى ظرف خمس دقائق فقط. و قد كان الرجال يتمرنون من تلقاء أنفسهم على الرماية و إصابة الهدف بصورة مستمرة. و فى كل مساء يتناول ما بين المئة و المئتى جندى عشاءهم فى خيمة الباشا متبعين فى ذلك دورة خاصة تتناول العشائر جميعها. و قد شوهد عدد من الأسرى فى المعسكر و هم مقيدون بالحديد فى أعناقهم و أرجلهم. و يقول الدكتور روص إن الباشا معتاد على شراء غنائم و أسلاب الحرب جميعها بأسعار تساوى ضعف ما يدفعه لهم الآخرون.

و فى اليوم الثامن من تموز ترك الدكتور روص معسكر الباشا و سلك طريق الموصل. و فى الجانب الآخر من الزاب وجد مئة فارس عربى من قبيلة ألبو سلمان مستعدين لتوصيله خلال ما تبقى من ممتلكات مير راوندوز.

فأعترض على هذا العدد الكبير من الرجال لكن رئيس هذه الثلة الكبيرة من الخيالة أفهمه بأن الأوامر التى تلقاها تفرض عليه ذلك، و أنه لا يستطيع التخلى عن أى رجل منهم. و يغتنم الدكتور هذه الفرصة هنا ليشير إلى التباين الموجود فى عادات موظفى هذا الباشا و موظفى المناطق التركية. ففى اللحظة التى دخل فيها هذه الجهات بوهت بطلبات البخشيش، و بعد تجريده من كل ما كان يمكن

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۷

أن يكون قد حمله معه فإن الأوغاد المناكيد تبعوه إلى منزله طالبين المزيد. أما فى ممتلكات راوندوز فإن البخشيش لم يذكر قط. هذا و قد أجرى الدكتور مقارنات فى كل ناحية من النواحى بين حكومة على باشا فى بغداد و حكومة المير، و هو يعطى الأفضلية للأخير و يشير إلى أحاديث الخيانة التى كان يصرح بها علانية بالنسبة لعلى باشا، بينما كان الإطراء و الثناء على المير يلهج بهما الجميع بصراحة.

و إلى هذا الحد نكتفى بما ورد فى يوميات الدكتور روص. أما المعلومات التى زودنى بها معظم الأشخاص الذين قابلتهم، ممن له اطلاع كاف فى الموضوع، فتتفق مع معظم التفصيلات الواردة فى هذه اليوميات.

فإن شخصية المير و أخلاقه تظهر فى أعماله . فهو طموح إلى حد الإفراط، و مستهتر تماما بالنسبة للوسائل التى يصل بها إلى غاياته و مطامحه. و مع أنه فطن بعيد النظر فإنه حسود و مرتاب للغاية. و هو على تشبعه بفكرة العدالة الحقة التى لا تعرف المحاباة يسخر مبادئه للحصول على المزيد مما يشبع به أطماعه و ليس لمجرد العدالة نفسها. أضف إلى ذلك أنه لا يتورع عن سفك الدماء لكنه غير ميال إلى أن يقتل الناس بطيش أو تهور، و من دون سبب. و مع

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۸

ذلك فهو لا يرحم حينما يتيسر السبب مهما كانت أهميته. فقد روى لى أن قبيلة من القبائل الكردية كانت تعارضه بشدة فى أثناء محاصرته للعمادية، و ظلت متمادية فى ذلك حتى بعد أن سقطت فى يده، فساق عليها قواته و بعد أن أخضعها و عانى ما عانى من أجل ذلك قتل جميع من وصلت إليه يده من أفرادها حتى بلغت ضحاياه عدة آلاف من الرجال. و قد فعل ذلك على سبيل العبرة للآخرين.

و لا يمتد حسد المير إلا إلى الغرباء الذين يسيحون فى البلاد من دون شغل يتضح له. فإن التجار و البغالة و سكان البلاد المجاورة لا يحتاجون إلى جواز سفر فى ممتلكاته، و هم أحرار فى رواحهم و غدوهم. لكن الأشخاص القادمين من مسافة بعيدة، و خاصة من بلاد أظهرت له شيئا من العداء فى يوم من الأيام، لا بد أن يتعرضوا للتوقيف أو الحبس كجواسيس. و قد استفسرت عما سيحل بى فيما لو دخلت بلاده من دون الحصول على رخصة مسبقة منه، فكان جواب الجميع على ذلك أن الإقدام على محاولة مثل هذه تعد غاية فى الطيش و عدم التبصر. لأنه رجل سيىء التفكير (بدفكر) و قد يتصورنى جاسوسا فيسىء معاملتى، و خاصة لأننى كنت سأدخل إلى ممتلكاته من تبريز. و حينما أبديت إصرارا فى معرفة المعاملة السيئة التى يمكن أن أعامل بها قالوا لى بأننى يمكن أن أحجز فى مكان منيع حتى يمكن أن يعرف ما يريده المير منى، و بعد ذلك قد أطرد إلى خارج البلاد بطريقة لا يتسنى لى أن أرى شيئا منها.

على أننى قد لا أقابل بالعنف فى داخل ممتلكاته حرصا على سمعته الطيبة، لكننى من المحتمل جدا أن أقع فريسة للصوص حالما أعبر

الحدود فى طريقى إلى الخارج. و من السهل أن يحصل هذا فى بلاد مضطربة مثل هذه .

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۹

و قد كان ذلك كله موضع الاعتبار الجدى عندى. فإن شخصية هذا الأمير العجيب، و التقدم السريع الذى أحرزه فى السلطة و السطوة خلال السنوات الخمس أو الست الأخيرة، مع التبدل الأخلاقى الذى كان من الممكن أن يحدثه فى هذا الجزء من آسية، قد جعلت من المحتم على أن أراه و أتعرف عليه، لأتبيّن مقدار الصحة المنطوية فى الروايات التى تروى عنه.

و بهذا التفكير تسلمت من المعتمد كتابا إليه، مع بعض الهدايا، و كان غرضى من ذلك أن أقدمها إليه شخصيا بنفسى باعتبارها بداية لعلاقة صداقة يمكن أن تكون مفيدة و ملائمة فيما بعد. و كانت خطتى فى ذلك أننى بوصولى إلى أوشنو، و هو مكان على مسيرة يومين من هنا، و على بعد ستين ميلا- من راوندوز فقط، أن أبعث إليه بكتاب خاص أشرح له فيه هويتى و طبيعة الأوراق الموجودة عندى و أقترح عليه إذا ما أراد تسلمها من يدى أنا بالذات أن يبعث لى دليلا- يوصلنى سالما إليه، و إذا كانت له فكرة أخرى فى الموضوع ان يبعث لى شخصا يتسلم الهدايا من عندى. و يمكنك أن تتصورى مقدار ما أصابنى من الخيبة حينما علمت أن المير بدلا من أن يكون فى راوندوز كما كنت أتوقع كان على مسيرة عشرة أيام منها، حيث كان منهمكا بتنفيذ الخطة التى وضعها

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۳۰

لفتوحاته. و هكذا فإن مراسلتى له فى هذا الشأن كانت ستستغرق عشرين يوما على الأقل علاوة على عشرين يوما أخرى كنا سأقضيها أنا فى الذهاب لمقابلته و العودة بعد ذلك. و هذا تأخير ليس من الممكن لى أن أتحمله بالنسبة لما يتيسر لى من الوقت. و مهما كان مقدار ما عندى من الرغبة فى القيام بمثل هذه المهمة الطريفة، كانت هناك أسباب كافية تعيقنى عن وضع حريتى و حياتى فى موضع التهلكة بالدخول إلى بلاد المير من دون الحصول على الرخصة اللازمة منه. و على هذا فقد ضحيت مرة أخرى، بكل إحجام، بالواجب الذى كنت عازما على القيام به. و بعد أن اكتفيت بالحصول على أحسن المعلومات التى تمكنت من التقاطها عن هذا الأمير العجيب توجهت إلى بغداد عن طريق السليمانية.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۳۱

(۲) [الرسالة الثانية]

اشارة

الوصول إلى السليمانية- زيارة الضباط الإيرانيين له- زيارته للباشا فى السليمانية- وصف الحالة فيها- وصفه الباشا و حديثه معه- جدله فى مجلس الباشا عن بعض الخرافات- وصف السليمانية- حادث فى مقبرة السليمانية- استئذانه بالسفر و تقديم بعض الهدايا- منعه من زيارة آثار شهرزور- مقابلته للسرتيب قائد القوات الإيرانية فى السليمانية- مغادرة السليمانية مع دليل إلى كفرى- وصف الطريق- النذر كاهات- ذكر الجاف و الهماوند- النزول فى زالة- المهمندار و القرويون- التوجه إلى ابراهيم خانجى- سليم أغا دلو- حالة الأمن فى الطريق- قرية ابراهيم خانجى- رستم أغا- وصف الأكراد- الوصول إلى كفرى

السليمانية- أول تشرين الثانى ۱۸۳۴ م

عزيزتى قبل يومين حررت رسالة إليك، لكننى وجدت أننى لا بد أن آخذها معى إلى بغداد لأنه لا يوجد بريد إلى لندن هنا. جاء إلى زيارتى يوم أمس بعد الفطور بعض الضباط الإيرانيين الذين يقودون الجند الإيرانى المرابط هنا.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۳۲

فرووا روايات مؤسفة عن الحالة العامة هنا، لكنها لم تكن اسوأ مما تدل عليه المظاهر و تؤيده. و بعد ذلك ذهبت لزيارة الباشا الذى ألفيته فى خيمته محاطا بعدد من الأكراد الوسيمين، و لكن من دون مظهر فخم أو أبهة ذات شأن- مسكين الرجل! إنه لا قبل له بذلك. فإن باشوية السليمانية الصغيرة، غير الغنية مطلقا و لا القوية، كانت فريسة لمجموعة من النكبات التى أنزلتها إلى حضيض التعاسة. فقد داهمتها أولا النزاعات العائلية، أى الحرب الأهلية الناشبة بين أخوين ينشدان التفوق و السلطة. فأدى ذلك إلى تدخل أجنبى بطبيعة الحال، و وقعت الباشوية التى كانت تابعة إلى باشوية بغداد من قبل فى أيدى أمير كرمنشاه الإيرانى محمد على مرزا. على ان النزاعات الداخلية و الهياجات ظلت مستمرة، حتى أضعفت الفريقين بحيث إن جارهما مير راوندوز وجد من المناسب بعد موت محمد على مرزا ان يكتسح البلاد و يلحق جزءا غير يسير منها بإمارته. فسبب له ذلك حربا مع الحكومة الأذربيجانية التى فرضت سلطتها على هذه الجهات، و حتمت على السليمانية المنكودة الطالع ان تقوم بأود الجيش الإيرانى علاوة على دفعها الأتاوى للإيرانيين. ثم داهم البلاد الطاعون الذى افنى ما يزيد على نصف السكان فى البلدة و ما يحيط بها من الريف. اما النصف الثانى فقد هاجر من استطاع منهم ان يترك البلاد إلى أماكن

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۳۳

تخف فيها وطأة الأعباء و الأوزار- أى إلى راوندوز و كركوك و أربيل و سائر المناطق الكائنة فى البلاد المنخفضة، بعد أن وجد ان لا معين له على البلوى و لا من يعمل على إعفاء الناس من الضرائب الحكومية. و على هذه الشاكلة تقوم إيران بتقوية أعدائها و إضعاف نفسها. لكن الباشا المسكين كان أضعف الناس على الإفلات من العاصفة، و ها هو يجلس الآن بين حطام العظمة الغابرة مرتبكا متحيرا إلى أقصى الحدود تجاه الاستجابة لجميع الطلبات التى تقدم إليه، مع أنه غير قادر على مقاومتها. و على هذا فلا أخالك تعجبين إذا ما علمت بأننى وجدت القليل من الأبهة و الفخامة، أو حتى أبسط وسائل العيش المريح من حوله. فقد استفسر رجاله من رجالى عما إذا كان عندى شىء من السجاد أو «النمد» ليفرش على الأرض غير المبلطة فى الدار التى خصصت لإقامتى، لأن مثل هذه الأشياء كان يكاد يندر وجودها هنا. فلم أزود بأية واحدة منها بطبيعة الحال و كان أحد الأسباب لذلك عدم وجودها!!.

و لقد وجدت الباشا شخصا لطيفا، مطلعا بالنسبة للأكراد و تبدو عليه فى الحقيقة مظاهر «العثمانلى» اكثر من المظاهر الكردية. فأمطرنى بوابل من مختلف الاسئلة عن الحالة فى اوربة، و علاقات كل دولة بالدول الأخرى، و خاصة عن العلاقات الموجودة بين الباب العالى و روسية و محمد على پاشا.

و كان على اطلاع غير قليل بشؤون امريكا، فعمل على تصحيح ما كان يفكر به بعض الإيرانيين الموجودين فى مجلسه، و بعض رجاله أيضا، من الأفكار القديمة بالنسبة لها. و قد جرى البحث فى أحوال الهند، و ذكر الكثير عن الاختراعات الحديثة، و خاصة الاختراعات ذات الطابع الحربى. و جرنا موضوع تحسين عدة البندقية إلى البحث فى طرق اطلاق النار المختلفة و فى أحسن طريقة لمقاومتها و السيطرة عليها فى مقابل ذلك. ثم ادى ذلك إلى ذكر موضوع كنت قد سمعت تلميحات إليه من قبل أكثر من مرة، و هو يقدم لنا نموذجا طريفا للخرافة و تفشيها بين هؤلاء الناس- أى نموذجا لسرعة التصديق و حسن النية من جهة، و للدجل السليط من جهة اخرى.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۳۴

فالسادة كما تعلمين هم نسل النبى محمد، لكنهم ينقسمون عدة طبقات، و يتمتع بعضها بقدر من التوقير و التبجيل أكثر مما تتمتع به الطبقات الأخرى لأنها كما يعتد محبوة بمواهب خاصة مستمدة من أصلها المقدس.

و من هذه المواهب موهبة لا تدعى بها الا أسر قليلة و هى القدرة على تحمل النار و تأثيرها من دون أذى. فقد قيل لى فى سوج بولاق أن إحدى الأسر المحبوة بهذه الموهبة كانت تقيم فى قرية غير بعيدة عنا، و لكن المؤسف انه لم يكن بوسع أحد أن يأتى بشخص يقوم بهذا العمل بين يدى حينما أبديت رغبتى فى مشاهدة هذه المعجزة. إذ يزعم أن الأشخاص الموهوبين هؤلاء يستطيعون الدخول إلى تنور تشتعل به النار حتى يصبح احمر من شدة الحرارة، و أنهم يكومون النار فوق أيديهم، و مع ذلك يصيح الفرد منهم «إنه

بردان» فيخرج من دون أن يكون قد مسه شيء من الأذى. و هم يستطيعون كذلك إخراج قطعة حديد ساخنة إلى درجة الاحمرار من النار دون أن تصاب أيديهم بأذى. و الخلاصة أننا إذا صدقنا ما يقال عنهم فإنهم يعتبرون مواد غير قابلة للاحتراق.

و قد كان الضحك على هذه الخرافة السخيفة شيئا على نفس المقدار من الإساءة و عدم الفائدة، لأن جميع هذه القصص مهما كان منشؤها لما كانت قد أيدتها عقيدة الأجيال التقليدية فإن دحضها كان لا يمكن ان يتم إلا بإخضاعها للاختبار التجريبى- الذى كانت الجهات المتمسكة بالخرافات تتحاشاه على الدوام حيث يكون من المحتمل اكتشاف الزيف المنطوى فيها. و لذلك كنت حينما تفرض علىّ التأكيدات على صدق هذه القدرة الخارقة من جميع الجهات أجيب فقط بأن هذه الأمور قد تكون صحيحة، و لكن الاعتقاد بها من دون شك أو ريبة يعتبر خارج قدرتى أنا حتى أكون قد شاهدت بأم رأسى بعض الأدلة التى لا تدحض- كأن يقوم أحد الموهوبين هؤلاء بإخراج قطعة من الحديد الساخن إلى درجة الاحمرار من التنور بيده العارية و مسكها لمدة ما بأصابعه هو- و عند ذاك أقتنع بما وهب له من القدرة الخارقة، غير أن جميع من فى المجلس أجابنى بصوت واحد يقول «لكن الحقيقة لا ريب فيها لأننا كلنا على

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۳۵

علم بصدقها» فقلت مصرّا «إننى حينما أجد قطعة من الحديد الحارة لدرجة الاحمرار فى يد السيد سأصدق ذلك أنا أيضا، و أعترف بأن مثل هذه القدرة لا بد أن تكون من عند اللّه مهما كانت الغاية منها» «ستفعل، أليس كذلك؟» هذا ما أجابنى به مرزا إيرانى كان يحاول دوما استدراجى إلى الدخول فى جدل دينى. ثم أردف قائلا «و هل ستوافق بعد ذلك على كل ما سيقوله؟ فأجبته بقولى «و لنفرض أنه سيصارحنى بأن اللّه غير موجود، فهل تريدنى ان أؤيده فى مثل هذا الاعتقاد؟» غير أنه رد علىّ يقول «كلا»، لكن ذلك غير ممكن»- و عند ذلك أجبته «أبدا فإنه كان يحدث عندكم فى السابق أن يقوم أناس من بينكم فيدعون بالربوبية و يزعمون أن لهم قوى خارقة، بينما كان غيرهم ينكرون وجود هذا الشيء بالمرة. و لذلك يجب ان تلاحظوا بأنه ليس هناك من يستطيع أن يعد وعدا لا شائبة فيه بتصديق جميع ما قد يقوله شخص آخر قبل ان يسمع ما سيفضى به و يعرف ما إذا كان من المناسب ان يذعن له» فتدخل الپاشا و قال «ان ذلك حق، فمن غير المعقول ان يفعل ذلك». فسكت المرزا و لم يتفوه بشيء بعد ذلك.

ثم قلت «و الآن أرجو أن يسمح لى الپاشا بأن أسأله عما إذا كان قد شهد فى يوم من الأيام أحد هؤلاء السادة و هو يقوم بالمعجزات الخارقة» فكان جوابه سلبيّا. و بعد ذلك التفت إلى رجل مسن كان متحمسا جدّا فى أثناء المناقشة و سألته «و هل شاهدت أنت ذلك؟» فأجابنى يقول «كلا، لكننى كنت شاهدت أحدهم و هو يضع النار فى فمه». فقلت «إن ذلك ما يمكن أن يفعله أى «حقه باز» أو مشعوذ بيننا، و يدل على أن ذلك كله يمكن أن يكون ضربا من الحيلة».

فعلق الپاشا بقوله «إنه يقول الصحيح، فقد شاهدت أنا بنفسى مثل هذا الحيل يقوم بها أولئك الناس. ثم التفت إلى جميع من اشترك فى الحديث من حضار المجلس، و لكن لم يستطع و لا واحد منهم أن يقول إنه شاهد هو بنفسه أى شيء من هذا القبيل. و لذلك ابتدرت المرزا قائلا- بعدم اكتراث إنه بالنظر لأنه لم يقدم لإثبات المعجزات المزعومة سوى التقولات و الإشاعات فإنه لا يمكنه ان ينتظر منى ان أستسلم بحكمى أو رأيى الذى لا بد لى أن أحتفظ به حتى يكون هو مستعدّا لتقديم دليل أقوى مما جاء به من قبل.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۳۶

و فى اليوم التالى (أول تشرين الثانى) تمشيت لأشاهد البلدة و أحصل على فكرة عن الحالة فيها أحسن من الفكرة التى استطعت تكوينها بنظرتى السطحية الأولى. فتأكد لى أن الانطباعات التى تكونت عندى بتلك النظرة العابرة لم يكن بوسع الملاحظات الأخرى أن تحسنها فى نظرى أو تغير شيئا منها بأى مقدار كان. فقد كانت البلدة كلها ضنك و إملاق، و قذارة و دمار.

و لم يكن يلاحظ فيها و لا مسكن محترم واحد. كما لم يكن عند أى أحد من الناس، كبيرهم و وضيعهم، الرغبة الصادقة و لا الوسيلة اللازمة لترميم البيوت و تحسين شكلها أو حالتها، و لذلك أصبحت الأكواخ المقامة فوق أنقاض القديمة منها أحقر فى وصفها من

الحد الاعتيادى. كما أن أرض السليمانية، التى تبنى من طينها الدور، هى من النوع الهش الذى يكون قليل المقاومة للعوامل الجوية، فهى تفتتت حالما تترك لشأنها. فبفعل عدة أسباب و تأثيرها كادت البلدة ان تزول من الوجود تقريبا. على ان الاسواق كان منظرها أحسن مما كنت أتوقعه، بالنسبة للحالة فى بقية البلدة. لأن الدكاكين معظمها و إن كانت مشغلة من قبل الباعة المتنقلين و باعة المفرد الذين يبيعون السلع التافهة، فإنها مع ذلك تتصف بشىء من حسن المظهر، و كان من الممكن أن يلاحظ تجمع عدد غير يسير من الناس فى الفسح المكشوفة التى تباع فيها منتجات القرى و الأرياف. فقد قيل لى إن السليمانية لا يزال يقيم فيها حوالى ألف إلى ألف و خمسمئة أسرة لكننى إذا أردت أن أحكم عليها من المظاهر أقول بأن الرقم الأول الذى ينطوى على مجموع يقدر بخمسة آلاف نسمة على الأقل هو الأقرب إلى الحقيقة إذا لم يكن أقل منها.

و لما كانت البلدة نفسها واقعة فى منخفض من الأرض فإنها لا يمكن ان ترى إلا من بعض المرتفعات المحيطة بها، و أحسن منظر لها يبين للناظر من رابيتين متخذتين مدافن للموتى- فهما تصلحان للسكن أحسن بكثير مما تصلح له البلدة نفسها. و بنزولى من إحدى هاتين الرابيتين التى كنت قد صعدت إليها

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۳۷

لأحصل منها على منظر عام للريف المحيط بها طرق سمعى صوت نسائى يندب بنحيب عال، فوجدت عن بعد بين القبور امرأة تجلس بالقرب من قبر حديث البناء كانت تبكى عليه و تعول بإشارات و حركات تنم عن أعمق الألم و أمضه. فذهبنا لنتبين أمرها، لكنها كانت على درجة من الانغماس فى حزنها و أساها بحيث إنها لم تعبأ بنا، إذا كانت قد أحست بوجودنا حقّا، الأمر الذى كان من المحتمل أن لا يقع لأننا تقدمنا إلى حيث كانت تجلس. و قد كانت مشغولة بتزيين القبر بطريقة غريبة، شائعة بين الفقراء، و ذلك بوضع أحجار صغيرة بيضاء اللون بأشكال غريبة فوقه. و لكنها بين حين و آخر كانت تكف عن ذلك فتحرك يديها بما يدل على اليأس و القنوط، و تتفوه بنبرات مهووسة من الغم و الألم الممض الذى كان يدل على شىء غير متناه من المحبة و التعلق.

و قد أثر حزنها و تدفق عاطفتها حتى على الخدم الذين كانوا يسيرون من ورائى، و هم القساة القلوب فى الأحوال الاعتيادية. لأن ذلك كله لم يكن شيئا يراد به التصنع، أو الظهور بمظهر الحزن أمام الناس. فقد كانت المسكينة تجلس هناك وحيدة فى تعاستها، بعيدة عن سمع أى كان من الناس و بصرهم، عدا المارة العابرين مثلنا، و هى تصب حزنها فى أذنه هو وحده، الذى وجد من المناسب أن ينزل بها البلوى.

فقال أحد الخدم «إن هذه المسكينة لا بد أن تكون قد فقدت زوجا أو ولدا كان معيلها الوحيد، لأنك ترى يا سيدى ان مثل هذا الندب لا يمكن أن يصدر إلا ممن فقدت وحيدها. أما الذين لهم عوائل فيمكثون فى بيوتهم، و هناك يبكون و يندبون».

و فى هذا اليوم طلبت إلى الباشا أن يأذن لى بالسفر لعدم وجود ما يدعو إلى استمرار مكوثى فى عاصمته، و لكونه هو المسكين كان منشغلا جدّا بشؤونه الخاصة بحيث لا يستطيع أن يعير التفاتا كبيرا لضيوفه. على أنه كان قد اغتنم الفرصة و أشار إلى خادمى من طرف خفى قبل هذا عما إذا كانت لدى أية بندقية أو مسدس أريد مبادلتهما بخيل أصيلة، فإنه كان يسره أن يفعل ذلك.

و لما لم يكن لدى أى مانع من زيادة عدد خيولى، بإضافة حصان كردى أصيل

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۳۸

إليها، بعثت ببندقية زائدة كانت عندى و مسدس ذى سبطانتين لأجل أن يتفحصها و يرى رأيه فيها. غير أنه قد تبين بأنه كان قد تنازل عن تلميحه الأول، و ربما كان السبب فى ذلك أنه كان يأمل من قبل أن يجد البعض من هذه الأشياء طريقه إليه على شكل هدية، حيث إنه لم يوافق على مبادلتها بشىء فأعيدت إلىّ. و على هذا الأساس بعثت ببعض الحاجات الصغيرة التى كنت أعتقد أنها يمكن أن تحظى بالقبول عنده كهدية. فقبلت بتعارف و كلام لطيف.

لكن التناقص القليل الذى طرأ على الترحاب الذى قوبلت به هذا اليوم بى إلى الشك فى ان آمال سموه لم تتحقق على الوجه

المطلوب، فأعاقنى ذلك عن تكرار الزيارة له.

و قد اضطررت اليوم أيضا إلى التعرض لإخفاق آخر من الإخفاقات المكدرة المذلة التى يتعرض لها الرحالون فى البلاد القلقلة مثل هذه. فهناك على بعد عشرين إلى خمسة و عشرين ميلا من السليمانية سهل متسع ينتهى به الوادى الطويل الذى يستمد اسمه من اسم البلدة المشهورة فيه، و هو يحتوى كما يقال على بعض الآثار القديمة التى لم يرتادها إلا القليل من الأوروبيين حتى الآن. و من الأشياء الأخرى التى تعطى الأهمية لهذا السهل انه يحتوى على موقع مدينة كان يسميها الأقدمون سيازورس Siazurus ، و تعرف أطلالها حتى اليوم عند الأهلين باسم شهرزور. و لا بد أن يتبين لك فى الحال من تقارب هذين الاسمين مقدار اللذة التى يشعر بها المختصون عند البحث فيه. و لو لم يدع الواجب صديقى ماكنيل للعودة إلى انكلترة، فقد كنت آمل ان آتى به إلى مثل هذا المكان البعيد و أنقب معه عن آثار شهرزور القديمة.

و لكنى حينما أحبط ذلك المشروع و عدته هو و وعدت نفسى أن أذهب إلى هناك بنفسى و أقف على ما يمكن أن أجده أو أعثر عليه. و عند وصولى إلى هنا قدمت طلبا إلى الباشا ليأذن لى بالسفر إلى هذا الموقع و يزودنى بدليل يساعدنى على زيارة هذا الجزء من بلاده. فلم يصدر منه أى اعتراض بادىء ذى بدء سوى بعض الملاحظات التى أبداها بعدم وجود شىء هناك غير بعض القمم و التلال

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۳۹

الملأى بكسر الفخار و الآجر، و بعدم وجود أبنية أو صخور منحوتة. لكنه أعترف أن التلال كبيرة جدّا، و ان هناك عدة مجموعات منها تقع كل منها على بعد غير يسير عن الأخرى. و لم تكن هذه الملاحظات لتثنينى عن رغبتى فى مشاهدة المكان. و لذلك يمكنك أن تحكمى على مقدار ما أصابنى من الكدر حين قال الباشا، عندما بعث الخادم ليأتينى بالدليل الذى كان سيأخذنى لمشاهدة المكان، بأنه لا يمنعنى من الذهاب إلى شهرزور و مشاهدتها إذا كنت مصرّا على ذلك لكننى إذا كنت سأقوم بتلك المحاولة فإنها ستكون مخالفة لرغبته و ما يشير به علىّ. فإنه يعتقد بأن المكان المذكور هو ملتقى اللصوص و الشقاة، و إذا ما حدث لا سمح اللّه شىء لخيولى فإن شرفه هو سيمس بحادث ليس فى مقدوره أن يمنعه أو يتلافاه. ثم قال انهم أكراد- بهائم- و من هو الذى يستطيع الاجابة على ما يمكن ان يفعلوه بدافع الاغراء بما ستراه أعينهم من الثروة الكبيرة التى يمكن أن تقع فى قبضة أيديهم. و الخلاصة أننى كان يمكننى أن أذهب على مسؤوليتى أنا لا مسؤوليته.

و هذا توسع فى الاعتراض تعرف أهميته فى الشرق معرفة جيدة، و كثيرا ما ينتفع به فى الظروف التى تكون فيها الغاية المنع عن القيام بشىء من الظهور بمظهر المعارض فيه. و هو يضع المسؤولية على عاتق المغامر الذى يصر على ما يريد برغم التحذير المناسب و يبرىء ساحة أولئك الذين يحذرونه من عواقب تسرعه- و هى العواقب التى يعلم المطلعون على الشخصية الشرقية تمام العلم انها يمكن بكثير من الاحتمال أن يعقدها عليه نفس الناس الذين يقدمون له الرأى فيها.

و لدىّ أسباب تجعلنى أشك فى أن سبب إحجام الباشا عن الموافقة على زيارتى لشهرزور هو الخوف الذى كان يساوره من أن هذه الزيارة قد يكون من شأنها أن تدحض جهوده فى الظهور بمظهر الفقير فى نظر الرأى العام، و خاصة فى نظر الحكومة الأذربيجانية. لأن تلك المنطقة على ما يقال من أغنى المناطق فى پاشويته، و ربما كان هو يفكر بأن غريبا مثلى يستطيع أن يخبر الجهات المعنية بالأمر عن مقدار الغنى الموجود فيها. و على كل فإننى بعد أن

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۴۰

جربت كل وسيلة للتأثير على رأى الباشا فى هذا الشأن، و حتى بعد أن طلبت ذلك بواسطة قائد الجند الإيرانى المرابط هناك- و هو بحكم الضرورة ذو تأثير كبير، و كان يضحك على جميع الاعتراضات التى أثيرت ضد الرحلة- قد اضطررت إلى ترك المشروع و التخلى عنه، و قد كان الباشا يصر على ان المجازفة عظيمة، و أنه لا يسعه ان يسمح بالمحاولة، و لذلك أكرهت على التخلى عن

المجازفة بالذهاب إلى شهرزور ليقوم بها بطل أكثر حظّا منى. و قد سمعت بعد ذلك ان الپاشا كان محقّا إلى مدى غير يسير، لأن المكان فى مثل هذا الموسم يكون غاصّا باللصوص الذين يتقاطرون إليه من الأصقاع الجبلية فى كرمنشاه و همذان و أردلان، و لذلك كانت حادثة النهب أو اللصوصية حينما تقع يصعب اكتشاف الفاعلين و إنزال العقاب بهم.

و فى خلال الحديث لم أسمع سوى قليل من التفصيلات الأخرى عن شهرزور، و ها إنى ألخصها على الوجه الآتى: تحد السهل من الشرق و الجنوب جبال شاهقة كثيرة الوعورة، و هو يحتوى على مواقع و أطلال خمس أو ست من المدن أو البلدان القديمة. و تسمى إحداها القلعة، و هى عبارة عن تل كبير عال. و هناك بعد هذا ياسين تپة و كولعنبر، و عربت، و خرابة، و غير ذلك. و قد أخبرنى شخص أو شخصان أن أحجارا ذات حجم كبير تحمل كتابات يعتقد انها مكتوبة بالحروف الأوروپية (اليونانية) تستخرج أحيانا عند الحفر فى هذه السهول. و هم يقولون ان أحد البالیوزات من تبريز وجد حينما كان فى طريقه إلى بغداد حجرا من هذه الاحجار فى عربت. و سمعت كذلك ان حجرا آخر من هذا النوع عثر عليه أثناء الحفر فى بردكر، و هى قرية تقع فى أسفل الجبال الجنوبية الشرقية التى تحيط بالوادى. و قد حدثنى أحد الشيوخ عن «بودخانة»، أو معبد للصور، وجد فى إحدى جهات السهل و كان فيه حجر مغطى بالأحرف التى لم يستطع أحد حل رموزها فى هذه البلاد.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۴۱

و على هذا يبدو ان هذه المنطقة قد تصبح ذات يوم منجما للعاديات غير المستكشفة. و المقول ان السهل بإجماعه مغطى ببقايا الأبنية القديمة، و لكن من النادر ان يوجد فيها شىء غير الآجر و الفخار و ما اشبه.

و فى هذا اليوم أيضا جرت لى مقابلة مع محمد خان «سرتيپ» أو قائد القوات الإيرانية فى السليمانية، و هذه القوة تتألف من أربعمئة رجل و ثمانين مدفعيّا مع خمسة مدافع عادية و مدفعى هاون. و لا شك انها قيادة صغيرة لكنها كافية تمام الكفاية لواجب ابتلاع البلاد و النهب حينما لا يستطيعون الحصول على ما يكفيهم بالطرق الأخرى. و الحقيقة ان أى جزء من ايران أو البلاد المجاورة لها ليس فى مقدوره بحالته الحاضرة ان يقوم بأعباء جيش فعال و يقيته. و يحاول الأمير فى كرمنشاه الإبقاء على هذه الولاية تابعة لإيران فى وجه پاشا بغداد الذى تتبع لحكومته فى العادة، و حينما يحاول تحقيق ذلك بأقل ما يمكن من الكلفة و المصاريف لحكومته هو يقوم بتخريب ممتلكاته. على أن محمد خان بصرف النظر عن الجهة التى تؤخذ منها مصاريفه، كان بطلا أهلا للحفاظ على سطوة سيده ضد العالم أجمع! فإنك إذا ما أعطيته الوسائل و الإذن اللازم يستطيع أن يبيد المير فى راوندوز، و يحبس پاشا بغداد فى داخل حدوده

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۴۲

ما بين النهرين. حيث إن بثلاثمئة «سرباز» فقط و نصف هذا العدد من الخيالة استطاع ان يكتسح كرميان، أو البلاد الواطئة، على حد قوله، من الموصل إلى خانقين و من كرمنشاه إلى ما يقرب من أبواب بغداد. و لم يتوقف عن القيام بشىء هائل جدّا فى الحقيقة لو لم يعمد الپاشا إلى اتحافه بهدايا ثمينة و تقديم الكثير من العتاب و الاعتذارات السلمية. و الحق ان سرتيپ خان ينتمى إلى طبقة من الإيرانيين كثيرة العدد جدّا، أجاد فى وصف أمثالهم موريير، و هم أشد المتبجحين ضلالا فى الطبيعة و مع ذلك لا تعوزهم الشجاعة مثل المتبجحين فى معظم البلاد الأخرى. و بينما كنت أستمع إلى قصص الخان عن مآثره- و مقدار الثناء الذى كان قد حصل عليه من ملك الملوك و المقابلة (خلوت) التى حظى بها بالمثول بين يدى جلالته- و عن الخطابات الطويلة التى كان يلقيها الأمير المالك، و الوعد الذى وعده به سموه بسيف مطعم بالذهب- و عن تذمراته المرة من عدم التقدير الذى تقابل به مزاياه، فلا يدفع له الأجر الكافى و لا المخصصات اللازمة، و لا يتمتع بالإجازات الضرورية لزيارة أسرته (التى فارقها منذ خمس سنوات) بل يؤمر بالعكس بالتوجه إلى هنا و هناك فى حملات أخرى لأنه لا يمكن لأحد غير محمد خان ان يقوم بالعمل على أحسن وجه، و بكلمة أفضى عن تذمره من الحقيقة الجلية بأن الحكومة كانت تعلم أى خادم صالح هو السرتيپ خان و لكنها لم تكن تعرف كيف تستفيد منه- أقول بينما كنت أستمع إلى كل هذا تعلمت الكثير مما هو مهم و طريف، الكثير مما كنت أرغب فى الوقوف عليه بشأن البلاد وعدوها پاشا راوندوز ،

و حصلت على الكثير من التسلية كذلك. هذا علاوة على انني قد أرضيت على ما أعتقد الخان النزيه الذى هو فى الحقيقة رجل صادق مخلص، يتناول كأسه كأى فرد منا.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۴۳

أول تشرين الثانى

زالة قرية كردية متواضعة تتألف من ستة أو ثمانية دور. أكتب إليك يا عزيزتى من هذه الحفرة الشقية التعيسة لأننى قد توفرت لى ساعة من الزمن، و ليس لأن عندى شيء مهم أكتبه. فقد غادرت السليمانية يوم أمس فى حوالى الحادية عشرة قبل الظهر، بعد أن بقيت أنتظر و الحيوانات محملة و الخيول مسرجة من السابعة صباحا. لأن الپاشا لم يف بالوعد الذى كان قد قطعه لى بتخصيص دليل يأخذنى فى الطريق إلى بغداد. فالرجال العظام يأخذهم النسيان فيذهبون إلى النوم، و لا يتجاسر أحد على إيقاظ سموه. و لذلك جلست فى عدتى أضرب بمهمازى و استشيط غيظا حتى حلت الساعة المعتادة التى يخرج فيها سموه من مخدعه، فقال لخادمى ان أشغالى قد غابت عن ذاكرته! و على هذه الشاكلة يؤدى طيش العظيم إلى إتعاب الصغير و خسارته فى بعض الأحيان. و قد كان للمسكين شيء من العذر، لأن شؤونه الخاصة كانت تربكه.

فقد اكتشفت بعد ذلك انه كان فى اليوم الذى استأذنته بالسفر قد ترأس جلسة سرية مشوشة مع أغواته، عقدت للمناقشة فى كيفية تزويد ثلة من الجند الإيرانى ببعض الضروريات التى كانت تبلغ تكاليفها حوالى مئتى تومان- فلم يستطيعوا على ما قيل جمع هذا المبلغ من السليمانية و ربما كان هذا ينطوى على جزء من البرودة التى كنت أعتقد انها كانت بادية فى تصرف الپاشا تجاهى فى تلك الحادثة.

و حينما حضر الدليل كان دليلا جيدا مناسبا، كما كانت التعليمات التى زود بها دقيقة جدّا بالنسبة لما يختص براحتى و سلامتى. فقد كان عليه أن يوصلنى إلى كفرى و يكون مسؤولا عن سلامتى بقطع رأسه، تبعا للطريقة الشرقية فى هذا الشأن. فبهذا الشكل تكتب الرسائل التى يزود بها السياح على سبيل التقديم من الأمراء إلى حكام الأماكن الواقعة فى طريقهم، أو التعليمات

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۴۴

التى تعطى للأدلاء الذين يأخذونهم إلى حيث يريدون. و هكذا فإن عبد الله خان حينما كتب عنى إلى أخيه صمد خان فى سرادشت و سائر رؤساء القرى كان يرغب فى أن أبعث فى الطرق الواقعة داخل حدود المناطق التى يشملها حكمهم بسلامة و شرف، و أن يفهم بأن أية قطرة من الدم قد تسيل من أحد خيولى يكون جزاؤها خمسة آلاف تومان.

۳ تشرين الثانى

و بدلالة عول خضر أغا غادرنا السليمانية فى حوالى الساعة الحادية عشرة، و بعد أن اجتزنا السهل تسلقنا الجبال الغربية التى تحيط بالوادى الطويل المسمى باسمها، الذى ربما يبلغ إذا ما أضيف إليه سهل شهرزور سبعين إلى ثمانين ميلا فى الطول. و من قمة الممر كان يمكن للعين أن تشرف على بلاد تنفرد فى غناها، و تنحصر بين السلسلة التى كنا نقف فوقها، و على قمة بارزة الشموخ تقع على مسافة غير يسيرة منا و تكون فى الحقيقة الحدود الفاصلة بين البلاد المرتفعة و المنخفضة. و قد كان علىّ فى الحقيقة أن أسمى الأراضى التى تقع بيننا و بينها واديا لأنها كانت أخفض من الجبال المحيطة بها، لكنها كانت حقّا كتلة من أشد الجبال و الوهاد و عورة تزينها هنا و هناك شجيرات البلوط و الجوز المثمر فى الأماكن التى كانت تقوم فيها القرى فى يوم من الأيام، و الكروم و شجيرات الرمان و السماق التى لا تزال تنمو نموّا سريعا كثّا.

و لقد شققنا طريقنا عبر هذه البلاد الوعرة الصعبة إلى قرية كرداة التى كان من نصيبنا أن نقضى فيها ليلتنا فى ذلك اليوم. فقوبلنا بكل

أمارات الضيافة فيها بتأثير من أوامر الپاشا لكننا بلغنا بأن نكون على حذر تام من اللصوص الذين قيل عنهم على الأخص أنهم كثيرون نشطون فيها. و من صفات هذه القرية أن المئة و الخمسين إلى المئتى بيت التى تتكون منها يعود ما لا يقل عن ثلثها إلى سكانها اليهود. و قد ألفيت الأكراد و اليهود هنا يمتزجون امتزاجا حسنا فيما بينهم.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۴۵

و فى هذا اليوم وجدنا على مسافة غير بعيدة من البلدة بركة جميلة غزيرة المياه تنبع من الأرض و تتصف، كما أكد لنا الناس، بخاصية الإبراء من الأمراض. و قد كان منبعها الأصلى محاطا بسد من الحجر، كما كان فى الماء المنحصر على هذه الشاكلة عدد من الأسماك التى كانت تسبح و تتحرك غير عابئة بأحد لأن الناس لم يكونوا يتعرضون لها. على أن الجنود الروس الذين بعثوا إلى هنا من أذربيجان كانوا قد عملوا على اصطيادها و تقليل عددها برغم الإنذار بالموت الذى كان يصدر من الناس تجاه هذه الإساءة المدنسة للقدسية. فزعم أن بعض الذين أكلوا من هذا السمك قد ماتوا بنتيجة ذلك.

و قد تحدثت فى هذا اليوم مع دليلنا فى موضوع النذركاهات (أماكن النذور)، فكان تفسيره لها بسيطا. إذ قال لى «إن الشخص المريض حينما يرى فى الحلم أحدا من الأئمة أو الرجال الصالحين يظهر فى بقعة خاصة فإنه يعمر تلك البقعة، و حينما ينال مراده الذى كان ينتظره يبادر إلى تخليد المكان بمثل هذه الأكوام من الحجارة التى كثيرا ما نراها فى طريقنا اعترافا منه بالجميل و إرشادا للآخرين عن هذه البقعة المقدسة. فيؤدى هذا إلى مجيء المرضى الآخرين إليها و إضافة أحجار أخرى فوقها، و بمرور الوقت تصبح الأكوام عديدة و كبيرة. و كثيرا ما يشد الذين انتفعوا بهذه الوسيلة قطعا من ملابسهم كذلك فى الشجيرات المحيطة بتلك البقع كما ترى». و هو يقول أيضا إن قبور العظماء من الرجال، أو الذين يقتلهم اللصوص أو يقتلون خيانة، لا توضع فوقها هذه العلامات، و لا تلقى مثل هذا النوع من الاحترام و التوقير. لكن عمودا يحمل علما فى أعلاه قد يرفع أحيانا، أو قد توضع بقربه علامة غير هذه لتدل المسلمين الصالحين على المكان الذى يجب أن يترحموا فيه على الموتى.

و قد تحركنا فى السابعة من صباح اليوم الثانى. فمررنا فى طريقنا بمواقع عدد من القرى المهجورة التى كانت يوما ما تسبغ الحياة و الجمال على مرابعها و وديانها الصغيرة. لأن السكان قد هربوا عن هذه البلاد المنكودة الطالع و أخذوا معها ما كان فيها من سلم و ازدهار، فخلفوها فريسة للطغاة

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۴۶

و اللصوص. و فى طريقنا هذا اليوم شاهدنا الكثير من آثار العنف و الضغينة، لأننا فى مسافة لا تزيد على اثنى عشر ميلا أبدلنا حراسنا و أدلاءنا مرتين. إذ لا يجرأ سكان القرية الواحدة على الدخول فى حدود القرية الأخرى. و قد قص علينا دليلنا عول خضر أغا قصة طريفة فى هذا الشأن، و هى أن قبيلة الهماوند التى تشغل بعض الأراضى القريبة من هذه المنطقة، و التى أكد لى أنها لا تزيد فى عددها على الخمسمئة أو الستمئة أسرة، قد جعلت من نفسها عشيرة قوية تجاه عشيرة أخرى هى عشيرة الجاف التى تعد بين عشرة آلاف و اثنى عشر

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۴۷

ألف بيت أو خيمة بحيث لم يعد بوسع أى رجل من الجاف أن يتعدى إلى تخومها لأنه إذا ما فعل ذلك سرعان ما يقتل بدم بارد. بينما يركب الهماوند بجماعات تعد الواحدة منها عشرين أو ثلاثين خيالا فيذهبون إلى الجاف و ينهبون بيوتهم. لكننى أعتقد أن قوله هذا فيه شيء من المبالغة، لأن الجاف يستطيعون أن يقدموا إلى الپاشا ألف خيال مقتدر فى وقت الحاجة. و هم يقطنون فى الغالب منطقة شهرزور، لكنهم ينتشرون أيضا على طول خط الحدود. هذا و قد اغتنم أحد أولئك التعساء من الجاف فرصة مرور قافلتنا فحمل نبالته و وجاهته سالمة إلى خارج المناطق الخطرة.

و قد تم آخر تبديل لحراسنا فى جعفران بالقرب من سفح ممر سكرمة، إحدى بوابات كردستان الكبيرة فى هذه الاصقاع. و لما كان

قد رافقنا من هناك اثنان من الخبثاء الجريئين الشبيهين باللصوص فقد علق دليلنا عليهما بقوله إنهما يعدان بعشرين فارسا. ثم استطرد قائلا: «إن اللصوص يخشونهما و لا يجرأون على مهاجمتنا بوجودهما، لكننا يجب علينا أن نكون حذرين على كل حال، و لتكن حيوانات الحمل غير متباعدة، و نحن سنكلف أحد هذين بأن يسير فى المقدمة.» فجد رفاقى فى السير بعد أن صدر لهم مثل هذا الإنذار، و هم الذين يلجأون فى كثير من الأحيان إلى حيلة التلكؤ و التباطؤ الخبيثة، حتى وصلنا إلى شدقى الممر بالسرعة اللازمة.

فوقفنا هنا وقفة قصيرة، لكننى سررت لذلك لأنها مكنتنى من أخذ رسم

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۴۸

تخطيطى سريع لهذه البوابة الطبيعية الفريدة، التى يسميها الأهلون تسمية فى محلها فيطلقون عليها اسم «دربند». و قد استغرق صعودنا ساعة و نصف، و فى النهاية وقفنا فوق القمة متطلعين من الخلف إلى البلاد الجبلية الموحشة التى اجتزناها. أما من الجهة الأخرى فقد كانت تمتد الأصقاع المنخفضة التى بقى علينا أن نجتازها قبل أن يكون بوسعنا الوصول إلى عاصمة الخلفاء العتيدة.

أقول الأصقاع المنخفضة لا المستوية، لأن البلاد التى صارت تمتد أمام أعيننا الآن كانت بعيدة كل البعد عن الاستواء على كونها من حيث الارتفاع النسبى أوطأ بكثير من المناطق التى خلفناها وراءنا. فقد كانت تقوم أمامنا قمم واطئة من التلال الجرداء المعتمة التى كانت تمتد امتدادا متسلسلا حالت كثافة الجو دون اكتشافنا لنهايته. أما الفسح التى كانت تتخلل تلك القمم فقد كانت تتقاطع معها على نفس النمط سلسلة من الروابى و الآكام الصغيرة. فكان المنظر العام بذلك مقفرا و معتما. و مع هذا فقد كانت هذه بلاد الآشوريين الأصلية، مهد الامبراطوريات الجبارة، و منبت الملوك العظام فى الأزمنة الغابرة. و لم يكن يدور فى خلد أحد أن هذه المفازة الصخرية الجرداء كانت بلاد سميراميس العظيمة، أو ساردانابولس المترف. على انها قد تكون الموطن اللائق ل «نمرود الصياد الجبار».

فأدت بنا نزلة صخرية مخفية، و مسافة عدة أميال قطعناها فى البلاد المنخفضة التى أتيت على وصفها، إلى هذا المكان المسمى زالة، إنها مكان بسيط جدّا كما بينت من قبل، و الحقيقة أننى لم أر أسوأ من هذا المكان للمبيت.

و قد أزعجنا فى هذا المكان، و فى المنزل الذى نزلنا فيه الليلة الماضية، ما نشب من خصام بين مهمندارنا و أهالى القريتين حول الشعير و التبن الذى

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۴۹

كان يجب أن يقدم لخيولنا، و الطعام لنا. فقد أشرت أكثر من مرة قبل هذا إلى العادة الشائعة فى هذه البلاد، بأن المرموقين من الأجانب و الأشخاص الموصى بهم من الأصدقاء أو السلطات الحاكمة يعتبرون ضيوفا عامين و ليس مختصين بشخص دون آخر، و هم و الحالة هذه يزودون بالطعام و المنام على حساب الحكومة الاسمى أو الخانات و حكام الأماكن الواقعة على طريقهم.

و هذا امتياز تعد مساوئه أكثر من فوائده. فمن الطبيعى أن السائح من دونه لا تتهيأ له الفرصة للاتصال بالطبقات العليا من الناس، و قد يمر بالبلاد من دون أن يتسنى له الاطلاع على أى شىء من عاداتهم و أحوالهم. لكنه فى كثير من الأحيان يصبح قيدا يعيق تحرك السائح و ترتيباته، لأنه لا يستطيع اتخاذ ما يلزم للبقاء فى بعض الأماكن أو التوجه إلى أخرى من دون مساعدة مضيفه و موافقته عليها. و قد تكون آراء المضيف نفسه مختلفة عن آراء ضيفه، أو مؤديه إلى الحيلولة دون تحقيق أعز رغباته عليه.

و فى هذه الحالة، كنت أنا ضيفا على الپاشا فى السليمانية. و تتطلب الأصول المتبعة فى هذا الشان أن أستمر على كونى ضيفا ما دمت موجودا فى بلاده. غير أنه لما كان هذا يعد شيئا باهظا فى تكاليفه فقد حملت القرى التابعة له على تحمل النفقات، و حتى لو كانت هذه النفقات تقيد على حسابه من قبل خدامه فإن القرويين المساكين كانوا لا يستفيدون شيئا من ذلك لأن الخدام يستفيدون منها هم أنفسهم و يلقون العبء على القرويين على كل حال. أما ما حدث فى الليلة الماضية، فبعد كل ما فعله دليلنا عول خضر أغا لم يأت القرويون بالمقدار الكافى من العلف لخيولى، و لذلك أخبرت خدامى الخاصين بشرائه على حسابى أنا. و لا أدرى إذا كانوا قد فعلوا

ذلك أم لا، لكننى دفعت المبلغ المطلوب. و فى هذه الليلة انتشر فى القرية النحيب و العويل- فقد حرمت نساء الأسر الخمس أو الست التى تتألف منها القريـة من ذخيرتها الشـحيحة من الحبوب، و جاءت إحـداهن إلى حيث كنت أمكث معولـة مولولة لتسترجع دجاجتها الوحيدة التى كانت قد أخذت منها قسرا ليدخل ريشها فى تكوين مخدتى، فاستعادتها حينما كانت السكين تهم بذبحها.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۵۰

و ببضع بنسـات أمكن الحصول على دجاجـة أخرى، غير أن المهمنـدار تـدخل فى الأـمر لأن شـرفه وضع على المحك حيث إنه كان مسؤولا عن إعاشتى مجانا من جميع الوجوه، عـدا الريـح الـذى كان ينتظره لنفسه، و لـذلك استرجع الدراهم قسـرا من العجوز صاحبة الدجاجة و أعادها إلىّ. و قد بدأت، محاولات عدة لتسوية المشاكل بشراء ما كنا نحتاجه، لكن الدراهم و إن كانت تقدم بصورة سرية فإن الناس كانوا يخشون المهمنـدار بحيث يأبون تسـلمها. و أخيرا، فبعد أن تم اعتصار كل ما يمكن اسـتخراجه كانت الطريقة الوحيدة التى كان يترتب علىّ اتباعها لتحاشـى لعنات المجتمع المنهوب هو أن أبعث أحـد الخـدم سـرّا خلال الليل إلى دور المتضـررين فأدفع لهم قيمـة مـا كان يؤخـذ منهم مع إضافـة قليلـة. و كنت أعتمـد فى ذلك على نزاهـة خادمى- و هو اعتماد قـد يكون فى غير محله بلا شك. لكننى لم يكن لـدى وجه آخر للاختيار، و أعتقـد أنه لا بـد أن يكون قـد نفـذ ما كنت أعتمد عليه فيه جزئيًا على كل حال لأن معظم الناس جاءوا، حينما كنت أهم بالركوب فى صباح اليوم الثانى، يودعوننى بوداع حار و تمنيات طيبة.

كفرى ۴ تشرين الثانى

و من زالة، المكان الذى أرخت به كتابى الأخير، أوصـلتنى مسـيرة اثنين و عشـرين أو أربعة و عشرين ميلا إلى إبراهيم خانجى إحدى القرى الكرديـة التابعة لرئيس من رؤساء الكرد، حيث كنا سنقضـى ليلتنا. و قد أدت بنا الأميال الخمسة أو السـتة الأولى من طريقنا إلى بقعة صخرية فريدة لم أر مثلها قط.

لكن مقدار العشب الذى نبت برغم ذلك فى الربيع و الصيف كان شيئا مدهشا.

فلاـ يزال قسم منه نابتـا حتى الآن، بينما ترك القسم الأعظم منه بعـد أن أشـعلت فيه النار فسـحا كبيرة من سـطح الأرض و هى سوداء، مرقطة بالأحجار الرمادية.

ثم صـعدنا بعد ذلك جبلا كثير الصخور يعلو إلى ارتفاع غير يسير، و هو آخر موقع ذى أهمية يحجز بيننا و بين دجلة. و قد كان أجرد من كل شىء عدا بعض العشب، لكن شجرة عظيمة من أشجار البلوط كانت تنشر ظلها فوق

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۵۱

قمته، و هى لا بـد أن تكون آخر ما بقى من غابة كانت تغطى هذه الجهات بأجمعها فى يوم من الأيام. و هذه الشـجرة مدينة فى بقائها لتقليد من التقاليد لا يمكننى تفسـيره- إذ ربما يكون أساسه قد ضاع بمرور الزمن. لأن جل ما يمكن معرفته اليوم فى هذا الشأن هو أن المسافرين الذين يأوون إلى ظلها بعد صـعود متعب سـرعان ما يزول عنهم التعب و تدب فيهم القوة لمتابعة المسير. و قد كانت محاطة بجدار من حجر، و يطلق عليها «دور المنده».

و على بعـد عدة أميال من الممر الصـخرى الذى نزلنا هذا الجبل منه وقفنا لنتناول فطورنا فى قرية كردية حقيرة تسـمى جان ريز، حيث يسـكن سـليم أغا رئيس أكراد الدلو من فروع البابوات فى السـليمانية. و حينما أشرفنا على القرية لا حظنا وجود رماح و خيول مسرجة، ثم وجدنا عند وصولنا أن البك كان يعد العدة للخروج إلى الصـيد لأنه كان محاطا برجال الحاشية المجهزين للركوب، و الذين كانوا يمسكون عددا من كلاب الصيد (السلق) بأربطتها، و يحملون فوق قبضات أيديهم الصقور الملفوفة رؤوسها بالغماء.

و قد حصلت لنا كلمة قالها الدليل، الذى تقدمنا بعدة ياردات، على ترحيب معهم بالمجاملة من هذا الرئيس الذى كان شخصا محبوب المظهر، يتجاوز منتصف العمر، بلحية يختلط فيها الشيب و تقاسيم تدل على قوة معتدلة.

ثم استنكر الاعتذار الذى تقدمت به عن تطفلنا عليه و اعتراض سبيل خروجه إلى الصيد. و حلف برأس الپاشا و عيونه هو بأنه يرحب بنا ألف مرة لا مرة واحدة.

على أنه تأسف لأن معدات الراحة عنده غير كافية، و طعامه غير مناسب بحيث إنه يخجل من الاحتفاء بنا بهذه الوسائل. حيث قال «لكننا نحن الأكراد أناس خشن نعيش فى السهول و الجبال و ليس عندنا فى أى وقت من الأوقات ما نفاخر به، و الآن فإن القليل الذى كان عندنا قد زال- فنحن ما بين أمير أو پاشا ننشد

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۵۲

رغيف الخبز.» ثم مضى يقول هو يأخذ قطعة من الخبز الأسود الذى وضع بين أيدينا على الصينية مع شىء من اللبن «انظر ماذا نأكل، فنحن و خيولنا نقتات على الشىء نفسه. لقد كان بوسعنا من قبل أن نقدم لضيفنا رغيفا من خبز القمح، لكن ذلك العهد قد انتهى و علينا أن نقنع الآن بالرخيص».

و استطرد بعد ذلك يقول فى نفس الموضوع الذى كنت أحاول إخراجه منه بأسئلة أوجهها له، أو بعلامات الاقتناع و العطف «فقد كنا نحن الأكراد فى زمن من الأزمان جنودا أقوياء، و لم نكن نفكر بغير الركوب و التدرب على الحرب بالسيف و الرمح، و بالصيد و البزدرة، و ما أشبه من الألعاب. لأننا كان عندنا ما يكفى لمعيشتنا و كان فلاحونا يزرعون الأرض لنا، لكن كل رجل منا مضطر اليوم لأن يضع السيف و الرمح جانبا و ينصرف إلى «الجفت» (أى الثورين لسحب المحراث). و ما هو نفع الجندى يا سيدى حينما يأخذ بمباشرة المحراث؟ لكن الإيرانيين و الپاشا يتمادون فى مطالبهم كلها، فماذا تكون عاقبة ذلك- لا يبقى للفلاح سوى أن يلتجئ إلى الفرار و الذهاب إلى راوندوز و كرمنشاه أو الموصل أو أى مكان آخر بدلا من أن يبقى حيث لا يستطيع تحمل إخوانه- و لهذا تخلو البلاد من سكانها كما ترى.»

و قد كان البك كثير السؤال على الأخص عن الإنكليز و الروس مع أن جهله بالفريقين كان شديدا جدّا، فتركه و هو ممتن من زيارتى له على ما آمل.

لأننى بعد أن أشبعت رغبته بالبرهنة على قوة أسلحتى النارية، و خاصة مسدساتى الصغيرة التى كان يحتقرها إلى أن شاهد مفعولها و تأثيرها، قدمت له هدية من بعض المصنوعات الإنكليزية التى استأثرت بلبه إلى حد كبير، ثم افترقنا و نحن أحسن الأصدقاء.

فقلت لدليلنا عول خضر أغا حينما ابتعدنا «إن هذا الرجل المدنى، هذا الأغا الذى استقبلنا بمثل هذا الاستقبال الحار، و رحب بنا مثل هذا الترحيب- لو فرضنا أننا لم تكن معنا أنت و لا- أى دليل آخر من السليمانية، و التقينا به و بقافلته فى البادية، فإنه لا أظنه كان سيتورع عن مهاجمتنا و سلبنا لو كان بوسعه أن يفعل ذلك؟» فأجاب و هو يضحك بملء شدقيه «أقسم برأس سليمان پاشا،

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۵۳

و برأسك يا سيدى أنك تعرف هذا الرجل كما أعرفه أنا على ما يبدو، و قد أصبت كبد الحقيقة. إن سليم أغا هو ابن بجدتها و الرجل المعد لهذا العمل. فهو عمل الحاجة يأكل الخبز معك باعتبارك ضيفا عنده و بعد أن يودعك بكلمات مثل «خوش أمدى و خدا حفيظ» يعمد إلى لف لحيته و تبديل لفته و يتنكر هو و رجاله بحيث لا تستطيع معرفتهم ثم يركب فيقطع الطريق عليك و يسلبك إلى حد العرى ثم يتركك. إنه أشد الأوغاد شرّا فى كردستان و أكثر الأوباش فقدا للضمير، إن هذا الرجل يا سيدى سلب النساء و تركهن عرايا هائمات فى الصحراء.»

ثم سألته قائلا: «هل يعد هذا شيئا شائنا حتى فى كردستان؟» فأجابنى الدليل يقول: «إن هذا شائن عندنا بحيث إننى لا أعرف الكلمات المناسبة لوصفه. لكن سليم أغا هذا هو حيوان لا- حياء له و لا- شعور. فإن عنده تحت تصرفه حوالى أربعين أو خمسين خيالا- يستخدمهم فى قطع الطريق بحيث يتعذر على القوافل و زوار كربلاء القادمين من إيران المرور منه. و هو يجرد جميع من يقبض عليهم من كل ما يملكون.» فسألته: «و لكن ماذا يقول الپاشا فى كل هذا؟ ألا يعتبر الأغا من خدام سموه؟» «على وجه التأكيد» أجاب عول

خضر أغا «و أن الپاشا لا بد أن يحرق أباه إذا فعل مثل هذه الأشياء، و لكن ماذا أقول يا سيدى؟ إن الپاشا عنده ما يكفى من المشاكل فى بلده- إننا لا نحتفظ بالحاكم فى منصبه مدة تكفى لأن يصبح قويّا بحيث يستطيع المحافظة على الهدوء التام و السكينة، و لذلك لا يسعنا سوى أن نبذل جهدنا على كل حال.

و لكن سليم أغا هذا أشد الأنذال خبثا، ألم يرك ذراعه يا سيدى؟ إننا نقول هنا بأن ذلك كان عقوبة من الله جوزى بها على صنيعه الشائن».

و بعد ذلك قلت له «حسنا و لكن رستم أغا الذى سنذهب إلى بيته هذه الليلة إن شاء اللّه، أى نوع من الرجال يمكن أن يكون؟ هلا يفعل مثل ما يفعله سليم أغا- ألا يسلبنا هو أيضا إذا تمكن من ذلك؟» فأجاب يقول «هناك شىء من هذا القبيل فى الحقيقة يا سيدى. إنه رئيس قبيلة الزنكنة ، و لكنه و للّه

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۵۴

الحمد من خدام سليمان پاشا. و مع هذا فإنه سيوصلك سالما إلى كفرى إن شاء الله». فرددت عليه بقولى «إن شاء الله، إن شاء اللّه، و لكننى لا حظت من هذا كله أن كل رئيس من رؤساء الفروع القبلية هؤلاء يعمد إلى اللعب بنفس اللعبة فى هذه البلاد». فأجاب «آه بارك اللّه سيدى، لقد قلت الحقيقة، و لكن هذا لم يكن كذلك دائما فى أيام عبد الرحمن پاشا والد سليمان پاشا و محمود پاشا، فلم يكن يحدث فى أيامه أى شىء من هذا. فقد كان من الممكن لك أن تسير و الجواهر فوق رأسك و الذهب فى يديك من أول الپاشوية إلى آخرها، أى من سرادشت إلى كفرى و من كوى إلى بانه من دون أن يسألك أحد عن أى شىء. إن الدنيا كانت هنا سلام عليكم، و عليكم السلام. و لكن النزاع بين الأخوين هو الذى جر الخراب على البلاد و أنزل بها البلايا. فمرة محمود و مرة سليمان من دون أن يبقى أحدهما أكثر من ثلاث سنوات. و بعد ذلك تدخل العجم لتسوية النزاع فأخذوا البلاد لأنفسهم و أكلوها هم و جيشهم.

ثم جاء على أثرهم الطاعون، و المجاعة، فعملا معا على استئصال شأفة الناس و إبقاء الأعداء لنا. و أصبح الحال بحيث إن السرقة حينما تقع يتهم بها كل فريق الفريق الآخر، أى خصمه. فخدام سليمان ينسبون انتهاك الحرمة لخدام محمود. بينما يرد خدام محمود عليهم بأن يعزوها إلى رجال سليمان. أما الحقيقة فهى أن الپاشا لم تبق له لديه القوة اللازمة لمعاقبة من يجده مذنبا أو يقترف خطأ، و لا للسيطرة على من تحدثه نفسه بالشر، لأن الإيرانيين يلتهمون كل شىء يمكن ان يقع فى قبضة أيديهم و بذلك يضطر الرجال النزهاء إلى الهرب فتبقى البلاد للصوص».

و لم يكن هناك ما يقال ضد هذا الكلام الصريح الصحيح، و لذلك غذذنا السير إلى قرية إبراهيم خانچى .

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۵۵

و قد كنا الآن فى وسط آشور القديمة تقريبا، التى كنا فى الحقيقة قد دخلناها حينما اجتزنا الفتحة الأخيرة التى نزلنا فيها إلى سهل السليمانية.

و الحق أن البلاد لم يكن فيها ما يدل فى الوقت الحاضر على أنها كانت مركزا للامبراطوريات قوية الشكيمة. فإن هذه القمم الجرد و تلك الوعورة التى تخترقها الوهاد الجافة فتمتد من حولنا إلى بعيد أو قريب لا يمكن أن تكون قد كانت يوما ما مسرحا للحوادث الجسام التى ينسبها التاريخ إلى امبراطورية سميراميس و أخلافها حيث كان عدد لا يحصى من المتحاربين يتقاتل من أجل النصر و الممتلكات المترامية الأطراف.

و مهما كانت المزايا التى كان يتحلى بها أولئك المحاربون الآشوريون، فإننا وجدنا أخلافهم قساة خشن الطباع مثل المناطق التى يعيشون فيها. فقد كانت إبراهيم خانجى، القرية التى يسكنها رستم أغا، عبارة عن مجموعة تتألف من حوالى مئة كوخ مبنية من الطين و الحشيش. أما الديوان خانة، كما كانت تسمى، التابعة للرئيس التى أدخلنا إليها فقد كان بناؤها واهيا بحيث إننى توقعت أن ندفن بين

أنقاضها إذا ما هب شيء من الريح أو سقطت مزنة من المطر خلال الليل. و قد استقبلنا ابنه الذى كان حدثا لطيفا لكنه كثير الفضول قليل الخجل، له مثلهم جميعا أصابع كصنارة صيد السمك يضعها فوق كل ما تصل إليه يده. ثم جاء رستم أغا نفسه فى المساء و هو رجل خفيف الروح طلق المحيا ذو سحنة سمراء داكنة و وجه مدور و ضحكة لا مبالية، فاستقبلنا بمجاملة تهويشية صاخبة. و قد كان من أولئك الشرسين الذين يكونون فى أحسن حالاتهم حينما لا يعاكسهم أحد، كما قالت الممرضة السكوتلاندية عن طفلها المدلل فهو يبتسم دائما عندما يكون على سجيته، و يقطب حاجبيه حالما يستاء من أحد.

فكنا متحفظين لدرجة ما فى بادئ الأمر، و لما كنت أحاول دوما التوفيق بينى و بين الناس فى كل المناسبات على قدر ما يمكن، فسرعان ما تم التفاهم بيننا و دخلنا فى حديث ودى. لكن ذلك بدأ بشكل غريب. فحالما انتهينا من التعارف و المجاملات المطلوبة دعا خادمى الذى كان واقفا فى

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۵۶

داخل الغرفة فسأله: ما اسمك؟ و من أين أنت؟ و كم صار لك فى معية الصاحب؟ و هل يدفع لك أجرا أو أن أحدا بعثك معه؟ و هل أنت سعيد فى خدمته؟ و بعد أن أجيب على جميع أسئلته هذه أضاف قائلا بلهجة حازمة «أى المسدسات يملك سيدك؟ اءتنى بها» فأشرت له بأن يأتى بها، و سرعان ما أصبحت بين يدى الأغا. و عندما رأى أن الطبنجات لها عدتها الخاصة رماها جانبا بازدراء و هو يقول «إنى أعرف هذا النوع من السلاح، فإن اثنين من طائفتك جاءا إلى هنا قبل مدة من الزمن فقد ما لى زوجين منها لكننى أبيت أخذهما، فأى نفع فيهما لى؟ إنى أريد مسدسات من هذا النوع و أخرج مسدسين جيدين من مسدسات مورتيمر المزدوجة، لكنهما كان متآكلين من الاستعمال. ثم قال «فلو كان عندك من هذه لأخذتها منك، لكن مسدساتك هذه عديمة الفائدة. و الآن قل لى هل لديك أشياء أخرى؟ إن الأشياء التى أنا مغرم بها هى المسدسات و الشال و الستر مثل هذه» و أشار إلى سترته التى كانت من القماش القرمزى. «هل عندك شال كشميرى مثل هذا؟ انظر» قال هذا و هو يشير إلى شال قديم مطرز بالفضة فوق رأسه. فقلت له ان السياح الذين يمرون من هنا فى طريقهم إلى بغداد لا يكون عندهم مثل هذه الأشياء عادة. و الحقيقة أننى لا أملك الآن سوى فراشى و ملابسى الخاصة. فرد علىّ قائلا «لا شيء، انظر هذا بعض ما أعطانى إياه الإفرنج الذين حدثتك عنهم» و أخرج سكينة «سپورت» من صنع إنكليزى .. ثم ابتدرنى قائلا «حان وقت الصلاة، يجب علىّ أن أصلى» و فرش السجادة على الأرض بجنبى و بدأ بصلاته (نماز).

و أخيرا انتهى منها و التفت إلىّ. و كنت فى هذه الأثناء قد أخرجت سكينا كبيرا كنت قد خصصته لاستعمالى أنا أثناء السفر، فقدمته له باعتباره سلاحا ذا فائدة كبيرة فى القتال و السلم، و هو من أحسن مصنوعات إنكلترة. فتقبله بلطف و بشاشة و لاح لى أن أساريره قد تفتحت بعض الشيء، لأنه أصبح ينكت و يمزح.

ثم تطرقنا إلى أحاديث كثيرة من هذا القبيل، و قد توصلت منها إلى أن البك كان يعرض بالهدايا على الدوام. فقد أشار عدة مرات إلى ما كان قد

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۵۷

أهدى له من السياح الآخرين. و لما كنت راغبا فى تكوين أصدقاء كثيرين على قدر ما يمكن لفائدة الذين قد يمرون بعدى من هنا اغتنمت فرصة تذمره من مقص إيرانى كان يحاول عبثا أن يقص به قطعة من الورق، فأهديه مقصّا إنكليزيّا ممتازا. فزاد هذا فى مقدار ما كان قد سببه عنده السكين قبلا من الرضا و السرور، و أخذ يثنى بكثرة على الإنكليز و سلعهم الممتازة. ثم تطرقنا فى حديثنا إلى أكل لحم الخنزير و تناول المسكرات و أوجه تحريمها، و إلى موضوع الأشباح و الأرواح الخبيثة فكان البك غير ملم بشيء عنها. غير أنه مع ما كان عنده من خشونة طباع و عادات افتراسية نهابة كان يؤمن إيمانا غير يسير ببعض الخرافات، و هذا شيء شائع بين أهل المكر و قطاع الطرق.

و الظاهر أن يوم التوبة، بالنسبة للنهب و سفك الدماء، لا يزال بعيدا عند رستم بك. فقد أسهب فى وصف المعارك التى خاضها و

مقدار السلب الذى حصل عليه بحماسة و حرارة كانتا تدلان على مقدار الخبث و الشيطنة المتأصلين فيه. ثم قال لى إنه كان قد جرح عشر مرات على الأقل برغم أحسن الدروع التى يملكها. و هو يقول «عندى دروع من كل نوع، و قد كنت أستعملها على الدوام، لكننى تعلمت أن لا أعتمد عليها إلا قليلا بل أعتمد على اللّه وحده».

و قد ضم صوته للآخرين فى ندب الأيام السود التى حلت بالعنصر الكردى.

فهو يقول «إن أزمنة الأكراد الذهبية قد ولت. اركب و تجول فى البلاد فأية روحية و أية حيوية تجد فيها؟ إن جميع الخيالة الماهرين و الرجال الشجعان قد قضوا نحبهم. أو هربوا إلى بلاد أخرى، أو تسلموا المحراث اضطرارا للحصول على المال الذى يدفع للپاشا و لإعالة الزوجات و الأطفال. و أى نفع يبقى فى الجندى حينما ينصرف إلى المحراث يا ترى؟» فصدقته على ما قال حول زوال أمارات الرفاهية و الازدهار من البلاد، لكننى قلت له ان الناس كلهم على ما يبدو لم ينصرفوا إلى المهن السلمية و تبرهن على ذلك أخطار الطريق. فأجابنى يقول «إن هذا بسيط، إنها ليست سوى بعض حوادث للسرقة و النهب هنا و هناك، فلا وجود الآن لعصابات الخيالة الباسلة. لكنى أرجو أن تطمئن بأننى أنا رستم بك أتعهد بضمان سلامتك، و سوف لا يمسك أى شيء ما بين هذا المكان و كفرى. أنت رجل طيب ممتاز، و إنى أودك و أقدرك حيث

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۵۸

أنك لا تشبه البعض من أهل بلادك الذين قابلتهم قبل هذا، ممن لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا سوى الأكل و النوم، إن عيونك مفتحة و عندك ذوق. اطمئن، فسوف ترى كفرى سالما يوم غد».

و لا شك أنك قد عرفت الآن ما يكفى عن رستم أغا. لقد أغريت على وصف شخصيته و الكتابة عنه بشيء من التفصيل لأنه نموذج ممتاز للرئيس الكردى المتوحش. و قد زودنا فى صباح اليوم التالى بدليل للطريق و رسالة إلى كفرى، مقسما فيها بعيونه و بحياة ضيفه نفسه بأن لا تمس و لا شعرة من رأسى فى أى مكان تكون فيه كلمته مسموعة. و هنا كذلك سوف أترك التحدث عن أصدقائنا الأكراد الخشن الذين ربما تكونون قد مللتم من تحدثى عنهم. فهم مثل سائر الأمم و الرجال مخلوقات من نتاج الظروف و التثقيف، لكنهم يتصفون بصفات قومية خاصة يمكن أن تتحول إلى الاعتبار الصالح. فإنهم شجعان و أصحاب ضيافة إلى حد معين، لكن الصفة الأخيرة قد تضاءل شأنها فى السنين الأخيرة إلى حد مؤسف بسبب الفقر و الجور. و هم مثل معظم الأقوام التى تعيش عيشة الرعاة و تحكم بحكم شيخى معروف يتميزون بحب قوى للأهل و العشيرة، مما يجعلهم شرسين عنيفين فى تخاصمهم و تشاجرهم.

فيتبنون الضغينة و الثأر الناشيء عن الإساءة الحاصلة لقريب من الأقارب و يطورونها بسلسلة من القتل الخالية من الرحمة و الضمير. و هم و إن كانوا بعيدين بطبيعتهم عن القسوة فإن هذه الضغائن، و تولعهم بشؤون القتال و النشاط الحربى، تميل بهم إلى ان يصبحوا تحت رحمة الطيش فى سفك الدماء و تؤدى بهم إلى أن يضعوا حياة الإنسان من حيث الاعتبار فى مستوى أحط من المستوى الذى توضع فيه فى البلاد المسالمة. و مع ذلك فإن حروبهم تكون غير مميتة و إن نفس الشعور بالعواقب غير المتناهية المتأتية عن سفك الدماء يعمل على كبح عواطفهم كبحا ناجعا حينما يكون مجرد الشعور بالرحمة أو الحس الأخلاقى بفظاعة الجريمة أضعف من أن يستطيع الحيلولة دون وقوع القتل. و هكذا تكون الحالة فى الحقيقة بين القبائل نصف المتوحشة، حينما ينعدم وجود قوة مهيمنة عليا تستطيع ممارسة السيطرة المطلوبة. و إذا ما أراد المرء أن يكوّن فكرة قريبة إلى ذهنه عن الأكراد أو التركمان أو حتى العرب،

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۵۹

من حيث النزاع و التعامل الاجتماعى، فعليه أن يتصور ما كانت عليه الحالة فى مرتفعاتنا السكوتلاندية قبل قرنين من الزمن.

أما بالنسبة للأشخاص فإن الأكراد فعالون و أقوياء، و لا يختلفون إلّا قليلا من حيث الأساس عن جيرانهم الإيرانيين. غير أن قسمات الوجه القومية لها شكلها الخاص البارز بصورة تلفت النظر. فهيئة التقاطيع حادة، و شكل الوجه بيضوى، و الصورة الجانبية تلفت النظر من حيث بروز عظام الأنف و تقهقر الفم و الذقن، الأمر الذى يسبغ على الشكل العام شكلا نصف دائرى، أما العيون فمتأصلة بعمق، و

هى غامقة اللون، سريعة و مدركة. و يكون الحاجبان كثين واضحين لكنهما يميلان قليلا إلى الوراء لتكملة الشكل المفروض للصورة الجانبية. أما شكل التقاطيع العام فهو أكثر دقة و نحافة منه عند الإيرانيين الذين يكونون فى العادة أقوى بنية من الأكراد. و من النادر أن تجد الأنف الأفطس فى كردستان. و يكاد يكون الفم كامل التكوين، بأسنان لطيفة دقيقة. و تكون الأيدى و الأصابع صغيرة و نحيفة. هذا و يمكن أن نقول باختصار ان هناك شيئا من الرشاقة و الانسجام فى الشكل الكردى، الأمر الذى يجعل منهم أمة وسيمة مليحة ما بين أمم العالم الأخرى.

و تنطبق نفس النقاط على النساء أيضا، بقدر ما تدل عليه الملاحظات التى أمكننى التوصل إليها، فهن حينما يكن شابات جميلات للغاية، لكنهن حينما يتقدمن فى السن أو حتى عند ما يصلن إلى دور النضج فإن بروز التقاطيع الحاد الذى يتميزن به مع الرجال يبتعد بهن ابتعادا أكيدا عن حد الجمال، و سرعان ما يبدو عليهن الكبر و الذبول. فقد أتيحت لى فرص عدة لملاحظة هذه التفصيلات فيهن لأنهن لا يتحجبن كما تتحجب النساء الإيرانيات، و غاية ما يصنعن من هذا القبيل هو أن يسحبن المنديل الذى يغطين به رؤوسهن إلى حيث يحجبن به الفم و الذقن عن النظر. لكننى آسف لأننى لم أتمكن من متابعتهن إلى داخل البيوت حيث أستطيع وصفهن فى عملهن البيتى. على أننى عندى، بالنسبة لما أعرفه، ما يحملنى على الاعتقاد بأنهن فى حياتهن، و واجباتهن، و أعمالهن، يشبهن نساء القبائل الإيرانية شبها قريبا من جميع

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۶۰

كفرى فى ۱۸۲۷ م

الوجوه. لكن نساء الطبقة الموسرة التى تعيش فى المدن يبقين فى حرم أزواجهن أو آبائهن، و يتحجبن حينما يخرجن إلى الخارج.

ها قد وصلنا كفرى بعد أن اجتزنا حوالى اثنين و عشرين ميلا من البلاد المقفرة غير المهمة، التى كانت تشبه إلى حد كبير المرحلة الأخيرة من الطريق، سوى أن السهول أصبحت أكثر اتساعا هنا بالنسبة للمناطق المرتفعة، لكن الحريق العام الذى تعرضت له على ما يبدو يسبغ على وجه الأرض كله مظهرا كريها. و لم نجد كذلك أية قرية من القرى فى طريقنا كله. على أننا كنا غير راغبين فى مشاهدة أى نوع من البشر، فليس من المحتمل أن يكون الناس الذين نصادفهم فى هذه الأوعار ممن يمكن مصاحبتهم أو السير معهم.

و تقع كفرى فى مدخل فتحة تتفتح فى سلسلة من الجبال الواطئة،

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۶۱

الجرداء بكل ما تؤديه هذه الكلمة من معنى. فهى تتألف من قمم طبقات بارزة جدّا ترتفع فوق السهول و كأنها قد أتلفت بالنار الفطرية منذ الأزل. لكن البلدة نفسها، المسورة بسور يدور حولها، كانت تبدو بمظهر مغر حينما ينظر إليها من الفتحة التى أدت بنا إليها. و كانت أشجار النخيل المرتفعة إلى ما فوق السور، و هو أول نخيل يقع نظرنا عليه، تشعر الجميع بدخولنا إلى «عربستان» . كما كان التبدل فى الأزياء و مظهر الناس يؤيد بأننا أصبحنا الآن فى داخل الممتلكات التركية.

هذا و قد وجدنا طريقنا إلى دار عرفنا أنها أعدت لتكون منزلا لنا، و كان يجلس خارجها فوق بعض السجاد عدد من العثمانلى المتزمتين الذين رحبوا بنا بإشارات تدل على المجاملة، و لكن بكلمات معدودة. و كان الخدام من من أبواب السور- الواجهة الداخلية

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۶۲

الأتراك، كما كان كل شىء من حولنا يشير إلى التبدل الذى حصل فى البلاد و الناس. و لأول مرة فى هذه الرحلة لم يحصل اختلاف هذا المساء حول الشعير و التبن للخيول، أو الزاد المقدر لنا. فقد كان كل شىء مهيأ لنا بالتمام و بكامل الحرية، من دون كلام أو سؤال. على أننى لا حظت أن عادة واحدة فقط كانت تبعث على الاشمئزاز، فإن الخدم بدل أن ينتظروا ما يمكن أن تقدمه لهم على سبيل المجاملة عند الخروج، يهجمون عليك كلهم مرة واحدة ليطلبوا، لا ليستجدوا، البخشيش. و قد كان حتى السجان فى هذه الحالة مع المطالبين به، و لا أدرى على أى أساس كان يستند فى ذلك، فوجدت أن الطريقة الوحيدة لمعالجة الوضع أن أعطى فى الحال ما

أراه كافيا و أرد بعد ذلك أية طلبات أخرى.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۶۳

(۳) [الرسالة الثالثة]

اشارة

تحركنا من كفرى- قره تبة- أخطاء الطريق- جبل حمرين- ادين كوى و جهانكير أغا- الأدلاء العرب- منازل العرب- قلق- آثار الازدهار القديم- هبهب- دراج البادية- سهل بغداد- خبر غير سار- بغداد فى حالة حرب- التوقف فى الباب- الوصول إلى المقيمية.

بغداد- ۱۳ تشرين الثانى ۱۸۳۴ م

ها قد وصلنا أخيرا يا عزيزتى- إلى مدينة بغداد العظيمة، عاصمة الخلفاء- عاصمة هارون الرشيد و زبيدته الجميلة- و مقر جعفر البرمكى، و مسرور رئيس الخصيان، و جميع الرجال مثل أبى الحسن و على خوجة، و السيدات و الحمالين، و المفتونين و المفتونات الذين تتحدث عنهم «ألف ليلة و ليلة». فوا أسفاه، كيف عفا عليها الزمن. لكننا لنتمهل قليلا و لا نتحدث عن الأشياء قبل أوانها.

فقد زودنا مضيفنا فى كفرى سليم أغا بدليل إلى المرحلة التالية، لكنه أوصانا بإلحاح أن لا نبدأ برحلتنا قبل الصباح، و لذلك لم نتحرك قبل بزوغ الفجر. و الحقيقة أن هذه المرحلة كانت مرحلة خطرة، لأن الطريق بالنظر لوقوعه على الحدود بين الأكراد و العرب تماما كان يتعرض للسلب و النهب من الفريقين معا، و يصعب اكتشاف الفاعلين فيه. و قد كنت أنتظر أن يتصدى لنا فى الطريق صديقانا القديمان سليم بك و رستم أغا، لأنهما و قد خرجنا من منطقة نفوذهما ربما كان يروق لهما أن يقوما بفحص أدق لعفشنا و كراعنا. إذ كانت هناك عدة أماكن مناسبة للكمين، و خاصة قاع النهر الملأى بالقصب و بعض الوهاد المنتشرة فى سلسلة الجبال الواطئة التى كان يتحتم علينا

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۶۴

اجتيازها. و لذلك طلب إلينا دليلنا أن نعد أسلحتنا النارية للاستعمال و نركب بحذر. على أننا استطعنا الإفلات، كما تم لنا فى عدة مناسبات من قبل، فوصلنا قرة تبة و هى قرية صغيرة كثيرة الأوساخ بعد مسيرة عشرين ميلا. و قد ثبت أن الحيطة التى أوصانا بها مضيفنا فى كفرى كان لها ما يبررها، فقد سلبت قبل أسبوع أو عشرة أيام قافلة فى النهر الذى أشرت إليه. و حينما سمع بها سليم أغا فى كفرى ركب بنفسه مع خمسة عشر خيالا فلحق باللصوص و قتل ستة أو سبعة منهم ثم تم أسر عدد مماثل. و لأجل أن يبرهن لنا على ذلك، على ما أحسب، أرانا الحصان الذى ركبه حينما قام بهذا العمل الباهر.

فكان كميتا جميلا يبلغ أربع سنوات من العمر، رفض أن يبيعه على ما قال لى بمئة تومان أو ما يقابل خمسين باونا استرليتيا. و قد كنت أنا مستعدّا لأن أدفع له ذلك المبلغ فى الحال لو كان يوافق على التخلى عن ذلك الحيوان الأصيل.

و كان بودى فى هذه الليلة أيضا أن أبدأ بمسيرة طويلة، لكن على أغا ضابط القرية صرح لى بأنه لا يستطيع أن يسمح لى بالتحرك قبل الصباح لنفس السبب الذى قدمه مضيفنا السابق- و هو انعدام الأمان فى الطريق. فوفقت بين الرأيين بالركوب فى الساعة الثانية و النصف بعد منتصف الليل، لكننا تمنينا بعد ذلك لو تأخرنا فى الركوب إلى بزوغ الفجر برغم المسافة التى قطعناها. لأننا ما إن ابتعدنا عن القرية مسافة نصف ميل حتى علمنا أننا قد نسينا رزمة من أمتعتنا فبعثنا خيالا ليأتينا بها. و حينما استفسر عنها فى المنزل الذى كنا فيه أنكر صاحبه كل علم بها، لكنه أضاف قائلا: «إن عشرة من الخيالة مروا بقرب الباب بعد أن تركتم المنزل، و ربما كانوا هم الذين أخذوا الرزمة». و حينما سأله بخوف و وجل «من أين أتوا و إلى أين توجهوا؟» أجابه قائلا: «لا أعرف ذلك، لكنهم كانوا يتعقبونكم

على ما يبدو».

فكانت هذه أخبارا غير سارة، و كان لها تأثير مخدر واضح على دليلنا الذى بادر فى الحال إلى الانحراف عن الطريق الاعتيادى و قادنا لأكثر من ساعة واحدة خلال سهل مكشوف كان على كل حال خاليا من العوائق بحيث تقدمنا فى المسير من دون صعوبة. على أنه وقف أخيرا و قال: «يجب أن تكونوا على

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۶۵

علم بأننى حتى الآن أقودكم فى طريق فرعية، و لا بد لى أن أقول لكم الآن بأنى لا آمن أولئك الخيالة الذين شوهدوا و هم يتعقبوننا فى القرية. و لو كان هؤلاء من الأعداء فهناك مكان يتحتم علينا عبوره بعد قليل و يمكنهم أن ينتظروننا فيه- يجب علينا أن نجتازه فى وضح النهار. و لذلك أعتقد أننا ينبغى ان ننزل هنا بهدوء حتى يبزغ الفجر، انزلوا رجاء و ناموا- لا تتكلموا و لا كلمة واحدة، و الله هو الموفق! ربما نستطيع أن نفلت». و هنا تدخل خدامى فتسلموا الحديث بلهجة التبجح الإيرانية المعتادة: لماذا نتوقف فنضيع الوقت؟ لماذا نعبأ بالأكراد أو العرب، كلاب! حيوانات! من هم هؤلاء حتى يستطيعوا إيقافنا؟ دعهم يجربون لنعلمهم أن هناك إيرانيين، رجالا يستهينون بحياتهم فى سبيل حماية سيدهم. من يكن أولئك العرب حتى و لو كانوا عشرة أو عشرين؟ گورى پيده ريش! و غير ذلك. لكننى لا حظت أن الدليل كان متخوفا فى الحقيقة، فأسكت هذه الفورة البطولية و على هذا الأساس بقينا فى مكاننا ساعة كاملة من الوقت فكانت ساعة شديدة البرد و مزعجة.

و بعد انقضائها خطرت للدليل فكرة جديدة فى الموضوع، أو تشجع بتوفيق من الله، فوافق على متابعة السير و فعلنا ذلك محاذين نهرا صغيرا ذى عمق غير يسير كان يجرى فى مجرى كثير التعرج. و بعد قليل مررنا بمنزل، من منازل العرب، و من حسن حظنا أنه كان يقع فى الجانب الآخر من النهر.

فهاجت كلابه مكوّنة جوقة هائجة من النباحين، لكننا لم يقلقنا أى شىء آخر.

و قد قضينا فترة شاقة متعبة حتى طلع النهار، و عندئذ عبرنا النهر و سرنا فى طريقنا إلى بقعة التلال المنخفضة التى كانت تحد السهل فى هذا المكان.

فكانت هذه تلال حمرين التى تعد فرعا من جبل حمرين الذى يمتد من كردستان حتى يتصل بسلسلة گودريان. و قد انتهى ركوبنا الطويل الشاق خلال الوهاد الجافة المعقدة، التى كانت تتخلل هذه التلال، بمسيرة لقينا فيها نفس المقدار من المشاق خلال سهل واسع منبسط، يمتد من سفحها إلى دجلة و على طول ضفافها إلى خليج البصرة. لأننا الآن قد تخلصنا من آخر الحدود الصخرية و أصبحنا فى السهل الرسوبى غير المنقطع الذى يتكون من دجلة

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۶۶

و الفرات. فبان فى الأفق البعيد خان دلى عباس و النخيل المحيط بعدة قرى أخرى، فلوينا عنان خيولنا نحو الجهة الشمالية منها.

فتبين أنها أدين كوى ، و هى قرية جميلة جعلنا منزلنا فيها لتلك الليلة فى دار الضابط العجوز جهانگير خان، التركى النزيه المضياف. و لم نكن مقيدين هنا بالطعام اللازم للبشر و الخيل على حد سواء، لأن خدامنا كان لهم مطلق الحرية بأن يأخذوا ما يشاؤون منه لهم و لحيواناتهم. و أمر الضابط أن تكون حصتى الخاصة من هذه الغنيمة شيئا من الرز الفاخر. و قد كان جهانگير أغا هذا گرجيا بالولادة، و حينما كان فتى يافعا أخذ أسيرا فى أيام أغا محمد خان ثم ارتقى فى خدمة عدد من الأسياد حتى أصبح فى النهاية ملتزما لهذه القرية التى يدفع عنها إلى الحكومة شيئا يتراوح بين المئة تومان و الثلاثمائة.

و هو مثل غيره يتذمر من عناء الزمان و تعسف الحكومة فى الابتزاز، لكن الحقيقة أنه لم يكن يعوزه شىء للراحة فى بيته على ما يبدو و أن كل ما كان عنده كان مستعدا ليشاركه غيره به عن طيبة خاطر. و قد كان من الواجب المحبب إلى النفس أن يبرهن لمثل هذا الرجل على أن السياح الإنكليز لم يكونوا ميالين إلى عدم تقدير الجميل الذى يعاملون به، فكانت الهدية التى قدمتها له من جراء ذلك

تفوق حد التصور على ما أعتقد. و لا بد لى أن أقول هنا أن الأتراك حتى الآن قد فاقوا الإيرانيين، أو حتى الكرد، فى معاملتهم للضيف من حيث المجاملة أو التحرر. على أن هناك نقطة واحدة كنت أود فى بعض الحالات أن يتم إصلاحها. فهم يعتبرون من واجبهم فى الضيافة أن يتكرّموا بالكثير من صحبتهم على ضيفهم، مما قد يكون شيئا حسنا للغاية فيما لو كان الضيف يفهم لغتهم لأن ذلك يمكن أن يتيح الفرصة لحصوله على الكثير من المعلومات لكنه من سوء حظه، كما هى الحالة فى قضيتى، أن يكون غير ملم بلغتهم فإن ذلك يصبح ثقلا خطيرا عليه. لأن حضورهم يحول دون قيامه بإنجاز مختلف الأعمال التى لا بد له من اغتنام الفرصة السانحة لإنجازها.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۶۷

و فى حالتى أنا، استطعت بواسطة خادم من خدامى الذى قام بدور الترجمة أن استخرج شيئا من المعلومات من صديقى جهانگير أغا، الذى كان قادرا على تقديم المعلومات بقدر ما كان مجاملا و لطيفا. فقد تعلّمت شيئا عن الطريقة الخالية من التبصر التى تتبعها حكومة بغداد فى تأجير أراضى الباشوية، و تأيدت لى الفوضى، و ما أدت إليه من تناقص فى السكان، التى شهدت عليها أعيننا نحن و آذاننا منذ أن دخلنا فى حدودها.

و هكذا كان رأى مضيفنا الكريم حول فوضى الطريق و أخطاره، حتى بالقرب من العاصمة، بحيث إنه رفض بتاتا أن يسمح لنا بمتابعة السرى فى تلك الليلة قائلا إنه لا يسمح لنا بالسير قبل طلوع الصبح حتى و لو أعطى ألف تومان عن ذلك، لأننى كنت كالمعتاد راغبا فى التحرك حالما تكون قد ارتاحت خيولنا. فإن البلاد كلها على ما يقول قد اكتسحها العرب الرّحّل، و إن السرى فى الليل من دون دليل يعتمد عليه يعد ضربا من الجنون. و لما كنا نعتمد عليه فى إيجاد الدليل المطلوب، الذى يستحيل السير من دونه فى مثل هذه الطرق غير المنتظمة، فقد تحتم علينا أن نذعن للأمر الواقع آملين فقط أن نتحرك فى ساعة مبكرة من النهار.

على أن إيجاد الدليل كان على ما يظهر أمرا يسهل التكلم فيه و يصعب وضعه فى موضع التنفيذ. فلم يحضر الشخص المهم الذى كان عليه أن يسير بنا فى الطريق قبل السادسة و النصف. و كانت هناك مراوغة عربية حول الشخص الذى كان يترتب عليه الذهاب أو عدمه، مما لم أستطع إدراكه أو فهمه. و لكننا أخيرا بدأنا بالرحيل، و على بعد ميل واحد من القرية وصلنا إلى منزل من منازل العرب توقف فيه دليلنا ليحصل على خيالين اثنين منه يقومان بمرافقتنا للحماية، إذ بدونهما لا يستطيع التقدم فى الطريق و لا خطوة واحدة، هكذا كانت أوامره، و قد ظهر الآن أن مضيفنا ارتأى من الأسلم لنا أن يكون مرافقونا من العرب لا من العثمانلى، و خاصة بالنسبة للرعب العظيم الذى كانت تشعر به البلاد فى تلك الجهات من وصول جماعات كبيرة من الأعراب و ضرب خيامها فى الأراضى المنخفضة التى كانت تمتد بيننا و بين دجلة. و على

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۶۸

هذا ذهب دليلنا مع أحد خدامى للتفاوض فى هذا الشأن مع الأعراب الذين اقتربنا من خيامهم، بعد أن تركنا راكبين على ظهور خيولنا بالقرب من أحد الجداول. و كان الأعراب جميعهم جالسين أمام خيامهم و هم يدخنون شطوبهم و يشربون قهوتهم، و فى باب كل خيمة كانت تقف مهرة جميلة مسرجة و مهيأة للطوارئ مع رمح صاحبها مغروزا فى الأرض بجانبها. و قد قيل لى إن هذا المخيم كان بوسعه تقديم أربعين أو خمسين خيالا يعتمد عليهم. لكننا بعد أن مرت علينا ساعة كاملة بهذه الحال لم نستطع الحصول إلا على اثنين فقط منهم، إما لعدم الرغبة فى مثل هذه الخدمة أو من جراء الكسل، فكان ذلك مضيعة للوقت تبعث على الانزعاج.

على أن مقدار التأخير قد جعل على ما أحسب متناسبا مع العزة المنطوية فى النتيجة- فقد عاد الخادم و بصحبته شيخان أو كبيران من كبار ذلك المخيم العربى، و توجه أحدهما إلىّ شاهرا رمحه بطريقة تهديدية و هو يقسم برأسه و يقول إنه سيوصلنى سالما إلى منزلى برغم كل ما يحدث فى الطريق. فكان هذا كله شيئا حسنا على ما يظهر، لكننى أرى أن الطمع فى المكافأة المرتقبة هو الذى حدا بالشيخين أن يركبا جواديهما فيأتيان معنا.

فتابعنا السير بعد ذلك، لكننى دهشت حينما علمت أن دليلنا الأول الذى جاء معنا من القرية فى بادىء الأمر لم يكن يرغب فى مرافقتنا إلى أبعد من هذا. على أنه رد على اعتراضى يقول إن بقاءه لا فائدة فيه بالكلية- لأن الدليلين الأعرابيين لم تكن فيهما الكفاية فقط و إنما هما الدليلان الوحيدان اللذان يمكنهما أن يجتازا بنا الطريق إلى هدفنا. و الأنكى من ذلك أن هذين الدليلين لم يكونا يفهمان غير العربية التى كنا نجهلها نحن تمام الجهل. غير أننا لم يكن لنا محيص عن هذا و لذلك تابعنا السير عبر حقول القرية المحروقة و ما بين السواقى الجافة و الرطبة حتى جئنا إلى جدول عميق غير عريض علمت بعد ذلك أنه كان جدول الخالص الذى حاذينا ضفافه المتعرجة لعدة أميال فى سيرنا.

و على بعد فرسخ من القرية مررنا بمحطة دلى عباس، مع الجسر

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۶۹

الممدود على الخالص فيها، و قد تعجبت حينما عمد دليلانا فيها إلى تركها إلى يسارنا و التمادى فى السير على الضفة الشمالية. و بعد ذلك مررنا بعدة قرى تستقى ماءها من الخالص، و يتكوّن سكانها كلهم من العرب. و قد كان بالقرب من إحداها مخيم كبير من منازل الأعراب فسرنى أن أرى الجدول يحجز بيننا و بينه. و كانت هناك منازل أخرى تنتشر بعيدا و قريبا إلى مسافة كبيرة، و عند ذلك اتضح لى أن الدليلين عمدا إلى تعقيب الضفة الشمالية من الجدول على طول هذه المسافة ليتحاشيا المرور بها أو بما يقرب منها. و قبل أن نصل إلى هذه القرية بقليل استدعانى أحد خدامى من الخط الأمامى فى السير إلى الوراء لمراقبة الدليلين اللذين أصبح تصرفهما غريبا على حد قوله، إذا لم يكن مريبا. إذ انضم إليهما رجل آخر من الأعراب كان يركب فرسا جميلة فأفزعنا أن نسمع بأنّ شيخا آخر يمنعه قلقه على سلامتنا من البقاء وراءنا، و لكنه قفل راجعا لأهله فقيل لنا إنه وجد البلاد غير آمنة. على أن تردد الدليلين الباقيين و تخلفهما إلى ما وراء القافلة هو الذى كان يفزع خادمى.

و حينما عوتبا على عدم التفاتهما إلى شؤون السير و الطريق أجابا بفزع غير يسير بأن هناك كثيرا من خصومهما العرب فى هذه الأنحاء. ثم تقدما بأنواع مختلفة من الطلبات للبخشيش أو الهدايا. فوجدت من الأحسن أن أتصنع الحزم و الغضب، بينما تفوه أحد خدامى بكلمة أو كلمتين للتملق. و ما بين هذه و تلك اقتنعا بمتابعة السير مع كثير من الإحجام مرددين كلمة إن شاء الله عدة مرات، و مبدين كثيرا من علامات التخوف. و لم ينفع ذلك كله فى تهدئة المخاوف التى كانت تساور رجالى الذين لم يستطيعوا كتمان قلقهم حينما كانوا يتصورون أنهم يمكن أن يضربوا فى هذه الجهات و يجردوا من ملابسهم، إذا لم يقتلوا بدم بارد. و لم تكن حالتى الفكرية أنا على أكثر من ذلك هدوءا و استقرارا، فلم يكن بوسعى أن أحلم فيما إذا كان تصرف الدليلين مبنيا على الخوف أم على الرغبة فى المساومة و استغلال المخاوف التى قد يثيرانها فينا. فمرت علينا ساعات ثلاث ما بين منزل الأعراب الذى مررنا به و ظهور النخيل المحيط بالقرية، التى كان علينا أن نقضى ليلتنا فيها، فى الأفق البعيد فكانت أشد

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۷۰

الساعات التى عرفتها قلقا و إزعاجا. على أنها مرت على كل حال مثل غيرها من الساعات المزعجة الأخرى، كان من بواعث الارتياح لنا أن نسمع دليلينا فى النهاية يعلنان بأننا قد تجاوزنا المنطقة الخطرة و صار بوسعنا متابعة السير بأمان. و قد تبين أن ذلك كان من بواعث الارتياح لهما كذلك، لأن تشوقهما للمسير كان لا يقل عن إحجامهما عن التقدم بادىء ذى بدء.

ما أعظم السهول الواسعة من الأراضى الغنية القابلة للزراعة التى اجتزناها هذا اليوم و لا حظنا وجودها و امتدادها من جميع الجهات- الأراضى التى كانت كلها تنبت زرعا يانعا فأصبحت يبابا بلقعا بالكلية! و ما أكثر مجارى المياه و القنوات التى شاهدناها- إنها آثار الرى القديم فى هذه البلاد- و ما أعظم القابلية على الازدهار الزراعى و تكاتف النفوس، المهملة إهمالا كليا! لقد كان كل ذلك فى الحقيقة منظرا محزنا، و كان مما يفرج عن العين المتعبة من النظر إلى مناظر المدنية الراحلة و الثروة المندثرة أن نلتفت إلى الموطن المريح للسكان الحاليين فى المكان الذى سنقضى فيه هذه الليلة. فدخلنا هبهب، إحدى القرى التى تتكدس بيوتها بمجموعتها على

ضفاف دجلة، قبل أن تميل الشمس إلى المغيب بساعة واحدة تقريبا. و بعد أن قدمنا بعض الإيضاحات استقبلنا بأدب و لطف نائب الضابط إسماعيل أغا، و هو سيد من السادة، فزودنا بجميع ما كنا نريده تزويدا وافرا. و تقع القرية نفسها ما بين بساتين ممتدة من النخيل- و كان كل بيت يوجد فى ساحته عدد منها. فذكرتنى المناظر هنا ببعض أنحاء بومبى.

و فى أثناء ركوبنا هذا اليوم اصطدنا عددا كبيرا من الطيور- و لا سيما من الدراج الأسود و الرمادى. كما لا حظنا من بعيد كثيرا من الغزلان، لكن الأسراب الكبيرة من الدراج البرى التى مرت بنا كانت من أعظم ما رأيت من هذا القبيل إثارة للدهشة و العجب. فكانت هذه الأسراب تأتى كالغمام، على شاكلة الجراد، و كان أحدهما على الأخص، و هو الذى استغرق عدة دقائق فى مروره، يكوّن قوسا من فوقنا يمتد جانباه من الطرفين على مد النظر- ربما كان هذا السرب وحده يحتوى على آلاف مؤلفة من الطيور. و هناك نوعان من هذا

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۷۱

الطير يشيع وجودهما فى أواسط آسية- نوع كبير و نوع صغير، و هذه كانت من النوع الصغير. لكننى لم أر هذه الطيور من قبل تجتمع بمثل هذه الأسراب الجسيمة، أو فى حالة الهجرة كما كان يظهر مما رأيت .

و قد قررت العمل على تلافى الوقت الضائع إن أمكن، و نظرا لما قيل لى من عدم وجود ما يدعو إلى القلق فى الطريق ما بين موقعنا هنا و بغداد فقد حصلت على دليلين راجلين من الأعراب و تحركنا فى الواحدة و النصف بعد منتصف الليل، و تمادينا فى السرى حتى وصلنا إلى المدينة العظيمة. فكان طريقنا كله فى اراض مستوية، و مررنا بعدة قرى قبل طلوع الصبح الذى بزغت علينا خيوطه الأولى و نحن نشاهد منائر بغداد و قبابها ترتفع فى الأفق البعيد.

و يبدو أن سهل بغداد على طول امتداده ينطوى على منتهى الخصب، لكنه يتطلب در الماء إليه ليكون منتجا حقا. فقد جعله نظام الرى البديع، الذى لا تزال آثاره الكثيرة باقية حتى اليوم، حقولا يانعة و بساتين غناء. أما الآن ففيما عدا التفاح المر الذى يغرى العين بصبغته البرتغالية الغنية و النباتات المنتجة للصودا التى لا تصلح إلا علفا للجمال، فلا تستبين العين فيه شيئا ناميا مطلقا. و مع أننا سرنا سيرا مسرعا، فقد مرت علينا فترة متعبة قبل أن ترتفع أسوار المدينة أمام أنظارنا- و بارتفاعها تجدد استبداد القلق و الريبة بنا، لأننا علمنا أن قبيلة من الأعراب المعادين قد نصبت خيامها على مقربة من المدينة و أن جيوش الباشا كانت مرابطة تجاه العدو- و أن عدة مناوشات قد حصلت من قبل، و أن جماعات من الأعراب صارت تملأ البلاد و تقوم بالسلب و النهب، بحيث لم يكن من الأكيد مطلقا أن يسمح لنا بالوصول إلى الأسوار من دون مضايقة و إزعاج برغم وقوعها على مثل هذه المسافة القصيرة عنا.

و مع أن هذه الحالة هى على درجة من الاعتياد فى هذه الجهات بحيث لا

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۷۲

سور بغداد و خندقها فى أوائل القرن التاسع عشر

تستدعى الكثير من الدهشة لدى السكان المحليين فإنى أعترف بأن الخبر قد أفزعنى، خاصة بعد أن تأيد الخطر لنا من إطلاق عدة إطلاقات من المدافع و سقوط النار المنطلقة من البنادق فى نفس المكان الذى أشير إلى كونه موقعا للمخيم المعادى. و نظرا لأنه لم يكن عندنا ما يمكن أن نفعله سوى أن نصل بأسرع ما يمكن إلى حيث نستطيع الاحتماء بالأسوار، فقد سرنا سيرا أسرع و مع أننا التقينا بعدد من جماعات الأعراب الصغيرة التى كانت مدججة بالسلاح أو مررنا بهم فقد وصلنا إلى باب كركوك من دون مضايقة أو تحرش. و قد حصل فى الباب توقف على جانب غير يسير من الإزعاج لأن قافلة من القوافل كانت تهم بالخروج، و لأن موظفى الباشا كانوا يقومون باستيفاء الرسوم و الضرائب المطلوبة. غير أن تطمين الضباط المسؤولين بأننا إنكليز، و أننا كنا

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۷۳

فى طريقنا إلى مسكن الباليوز أو المقيم، كان كافيا لإنقاذنا من لجاجتهم و إلحافهم. لكن تخليص أنفسنا من زحمة البغال و القافلة لم

يكن سهلا، فاستغرق وقتا أكثر مما كان يتحمله جزعى و قلة صبرى. على أننا فى النهاية تمكنا من العبور بشق الأنفس، و حصلنا على دليل يوصلنا إلى دار المقيمية.

و بعد سياحة طويلة عبر الأزقة و الأسواق، كانت مملة بالنسبة إلينا، وصلنا إلى مبتغانا. و قد عرفت بهزة من الفرح السپاه الهنود الذين كانوا يرابطون فى الباب- لقد كانوا كأنهم أصدقاء قديمون فى بلاد غريبة- و بعد خمس دقائق كنت جالسا على مائدة الفطور مع الكولونيل تايلور ، بكل مسليات الترحيب الحار و الفطور الشهى لتحيتى و إنعاشى. و لا أرانى بحاجة للقول بأن بقية اليوم قد تقضت بأطرف الحديث و أكثره متعة مع الأصدقاء الذين اجتمعت بهم، فقد كان عندنا كثير مما يجب أن نقف عليه و نقوله. غير أنه لما كانت هذه الأخبار لا يمكن أن تحظى عندكم بنفس الاهتمام الذى تحظى به عندى سوف أكفيكم مؤونتها فى الوقت الحاضر، و أستودعكم إلى تلك الراحة الهنيئة التى تقصر عن زيارة و سادتى هذه الليلة.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۷۵

(۴) [الرسالة الرابعة]

اشارة

لذة الراحة بعد التعب- الانطباعات الأولى فى بغداد- أسوارها- شوارعها- نهر دجلة و ضفافه- الأسواق و فسح البيع- وصف بكنغهام للمدينة- الجوامع و المنائر- البيوت- داخلية البيوت و الأحوال فيها- المرأة التركية- المظهر الشخصى- الوشم- النساء الكرجيات- سكان بغداد- عاداتهم- الازدهار فى أيام داود باشا- الشؤون العسكرية- الأسواق- التجار الأتراك- العرب- عاداتهم- أصوات بغداد.

عزيزتى

إن أول يومين أو ثلاثة بعد الانتهاء من رحلة غير قصيرة، و عند الوصول إلى مكان غريب، لا بد ان تنقضى بنوع من الدوامة المحمومة الحالمة، التى لا يمكن أن تكون مؤاتية للحصول على المعلومات الصحيحة أو تكوين فكرة عما يحيط بالمرء. ففيها يتم تبادل الاستفسارات و الأجوبة و يتطرق المرء إلى الحديث عن أشياء شتى. لكن شيئا من المعرفة عن الأمكنة و المواقع يعد ضروريّا له قبل أن يكون بإمكانه استيعاب المعلومات التى تنقل إليه. و الراحة كذلك- الراحة البسيطة و الهدوء- هى التى تبعث الانشراح فينا، بعد أن نكون قد شققنا طريقنا خلال بلاد صعبة و طريق شاق متعب، بحيث يصعب علينا أن نوفّق على تهيئة أنفسنا للجهد المطلوب للسعى وراء العجائب و مشاهدة المناظر. و لا بد لمن يجد نفسه فى هذه الظروف أن يكون قد شعر بهذا- أى بالإحساس اللذيذ الذى يلازم هذا «التكاسل»، و خبر الإحجام الذى شعرت به فى نقض هذا التأثير السحرى.

أما حالتى فلم تكن تتحمل الانهماك الطويل. إذ لا يزال هناك الكثير مما يجب أن أجتازه، و لا يمكن إلا تخصيص قليل من الوقت لمشاهدة المناظر أو

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۷۶

التمعن فى الأشياء الغريبة. و مع ذلك فها هو دجلة الخالد يجرى من تحت شباكنا، و يعج بالزوارق و الأكلاك، و يمتد من فوقه جسر الزوارق المعروف الذى يوصل بين ضفتيه. و ترتفع من حولنا منائر الجوامع و قبابها، و مراقد القديسين و الأولياء، و هى تحدثنا عن الأيام الغابرة حينما كانت بغداد عاصمة الإسلام و موئل قوته و منعته. و ها هى بابل و سلوقية و طاق كسرى تقع فى مواقع قريبة منا، و تغص البلاد المحيطة بنا كلها بالأشياء المهمة التى تلفت النظر و تستدعى الاستكشاف. و لذلك أعددنا أنفسنا للاستفادة من وقتنا القصير بأحسن وجه، و بدأنا بجولاتنا.

فبالنسبة للذين يأتون من إيران، و خاصة الذين يكون قد أضجرهم تعاقب الدمار و الخراب الذى أتعب عيوننا و أنهكها ما رأيناه من آثاره، يعتبر منظر بغداد لأول وهلة منظرا بديعا يبعث على الانطباع الحسن بالتأكيد. فللأسوار أولا منظر مهيب يؤثر فى النفس- فهى مشيدة بالآجر المحروق بالنار، و مدعمة من كل زاوية بأبراج مدورة لها فتحات (مزاغل) خاصة للمدافع، بدلا من السياج البسيط المبنى بالطين، المتهدم على الدوام تقريبا، الذى يحيط بالمدن الإيرانية. و لا يعنى هذا أن سور بغداد هو سور كامل، فالأمر ليس كذلك.

و إنما أتكلم عن مظهره الخارجى. و الأبواب أيضا، فمع أنها متهدمة للغاية فإنها على وجه التأكيد أعظم من أبواب المدن الموجودة فى البلاد المجاورة.

و حينما يدخل السائح القادم من إيران إلى المدينة فإنه علاوة على ذلك يبتهج بمنظر البيوت المبنية، مثل أسوار المدينة، بالآجر المفخور التى ترتفع فى علوها إلى عدة طوابق. و مع أن عدد الشبابيك المطلقة على الطريق غير كثير بحال من الأحوال فإن العين لا يزعجها استمرار ذلك التعاقب الكريه من الكتل الطينية الحقيرة الواطئة، المتداعية، المتعرجة و غير المنتظمة، التى تحجزها

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۷۷

عن بعضها ممرات متربة موحلة لا تستحق حتى أن تسمى أزقة، مما يتكون منه القسم الأعظم من كل مدينة إيرانية.

و لا ينكر أن الشوارع، حتى فى هذه المدينة، تكون فى الغالب عبارة عن أزقة ضيقة غير مبلطة، و موحلة فى الشتاء من دون شك، لكن المرء حينما يمر راكبا فيها و خاصة فى المواسم غير الممطرة يتأثر حتما بفكرة أن الجدران المتينة القائمة على يمينه و شماله لا بد أن تحتوى فى داخلها على مساكن مريحة جيدة تقاوم الأحوال الجوية، بينما تؤيد الأبواب ذات الحجم المناسب و القبضات الحديد التى تحافظ على مدخلها ما يختلج فى مخيلته من فكرة المتانة و الأمان. أما فى إيران فالأمر يكاد يكون بعكس ذلك، إذ تكون مداخل البيوت، و حتى بيوت الأشخاص المرموقين، أشبه بفتحات الكهوف أو المغاور بدلا من أن تكون أبوابا لبيوت يأوى إليها أناس من البشر.

و لا تعدم شوارع بغداد الفتحات التى تسمح بدخول النور و الهواء إليها.

فليست الشبابيك المطلقة عليها كثيرة فقط بل توجد أيضا شرفات مطلة، أو شبابيك بارزة ، تخيم على الشارع فتسمح بدخول الضوء إلى الغرف التى يجلس فيها عادة عدد من الأتراك المتزمتين الذين يقضون الوقت بالتدخين.

و إذا كنت محظوظا فقد تجد نفسك صدفة هدفا لأشعة نفاذة توجهها إليك من وراء المشبك نصف المغلق زوجان من العيون المشرقة. و قد ترى هذه الأجنحة المعدة للجلوس ممتدة أحيانا عبر الشارع لتتصل بالبيوت من الجانبين، فتضفى بذلك تنوعا مبهجا على طراز البناء و خاصة حينما تشاهد و هى نصف مظلمة بسعف النخيل الذى يعلوها من ساحة الدار فى الداخل. و قد كان هناك فى الجو العام المتكوّن من التنوع البارز، و طراز البناء، و الملابس الغريبة، و اختلاط الخضرة، و خاصة سعف النخيل، ما يعيد إلى الذهن، حينما ينظر إليه من وسط الشوارع الأكثر استقامة ذكرى مشوشة عن بلاد أخرى أكثر

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۷۸

اشتهارا فى العالم- بلاد عليها مسحة ما ديرا فى جزر الهند الشرقية و الغربية أو ما أشبه- بلاد تولد فى النفس مقدارا من البهجة و الانشراح يزيد، على كل حال، على المنظر الحقيقى الذى أراه أمامى.

هذه هى الانطباعات التى تكوّنت لدى عما رأيته أثناء مرورى بالبلدة، لكن ضفاف النهر كانت ترينا منظرا مختلفا تمام الاختلاف و أكثر جاذبية و جمالا من كل ذلك. فإن تدفق نهر جليل معروف يعد شيئا طريفا فى جميع الأزمان، لكنه حينما تكون ضفافه مزدانة بخط طويل من الأبنية المؤثرة فى النفس- إذا لم تكن جميلة تمام الجمال- و مظللة ببساتين النخيل وارفة الظلال، فضلا عما يزيد فى رونقها مئات الزوارق و ضجيج الآلاف من الناس، و حينما يكون مجراه قد مد من فوقه جسر من الزوارق يعبر عليه سيل دائم التدفق من الناس و الخيل و الجمال و القوافل، و حركة نقل عظيمة من جميع الأنواع و الأشكال، فإن اللمحة المتكونة من جميع هذا يصعب

عليها أن تقصر عن رسم صورة حية جدا فى مخيلة الرائى. و هذا بطبيعة الحال هو المنظر الحقيقى لدجلة حينما تنظر إليه من أية نقطة كانت على ضفتيه، حيث تستطيع أن تحصر فى مدى رؤيتك جميع الحيز الذى تشغله المدينة الحالية.

و لم تكن النظرة الأولى التى ألقيتها على دجلة تدل على ما كنت أتوقعه على وجه التأكيد: فلا يمكننى أن أقول إننى قد خاب أملى تماما فيه لكنى كنت أتوقع أن أرى نهرا أكثر عرضا و اتساعا مما رأيت. على أننى أعتقد أنه أحسن بعرضه الحالى لأن العين تستطيع فى الوقت الحاضر أن تشرف على الجانبين بسهولة. أما جهة البلد المطلة على النهر فقد كان عجبى فيها مفعما بالبهجة و السرور. فلم نجد فيها إلّا القليل من الجدران العارية، لأن معظم البيوت لها عدد كبير من المشابك (القيم) و الشرفات (الشناشيل) أو الشبابيك البارزة التى تطل على النهر. و بالقرب من الجسر جامع جميل بقبابه و مناثره، و هو منظر يبعث فى النفس السرور و الارتياح . و هناك بوجه عام شموخ يستحق الاعتبار

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۷۹

فى خط الأبنية المطلة على النهر من ضفته اليسرى، فيضفى تنوعا ظريفا على المنظر. و ليس الجانب الأيمن، أو الغربى، من النهر على مثل هذا الجمال فى طراز الأبنية و امتدادها، لكن بساتينه الواسعة و نخيله المتشابك المختلط بالأبنية تسبغ عليه منظرا مبهجا إذا ما نظر إليه من الجانب الآخر المكتظ بالسكان.

على أننى يجب أن أعرف بأننى قد خاب أملى بأسواق بغداد. و ليس السبب فى ذلك افتقارها إلى السعة و الامتداد، لأنها على مقدار كاف منهما، و لا خلوها من الناس، أو عدم وجود حركة فيها، لأنها تكون فى كثير من الأحيان مكتظة اكتظاظا كافيا فتظهر بمظهر يزيد تنوعا و بهاء عما يلاحظ عادة فى الأسواق الإيرانية. و إنما هناك من ناحية البناء و العمارة فقر فى التخطيط و بساطة فى التنفيذ، و مظهر من مظاهر التهدم، الذى يعزى جزئيا إلى الكوارث التى أصابت المدينة مؤخرا بطبيعة الحال، لكن كثيرا منه يرجع السبب فيه إلى عيب أصيل وجد فى طراز البناء منذ البداية. على أن بعض الأسواق، و منها صف ثلاثى أو رباعى ممتد إلى مسافة غير يسيرة من تشييد داود باشا، قد بنى بناء جيدا بالجص و الآجر المفخور، و ظلل عن الشمس بسقوف ذات طوق عالية مبنية بالمواد نفسها. لكن أسواقا أخرى كانت خربة جدا، و كانت سقوفها مصنوعة من مرادى الخشب الممدودة بصورة وقتية غير منتظمة و المغطاة بالسعف أو القش و بالقصب. أما الدكاكين نفسها فهى دكاكين بسيطة فقيرة، غير مرممة فى كثير من الحالات، و كثير منها فارغ غير مشغل. و قد كان يلاحظ فى معظم الأماكن ذلك الجو المتسم بالإهمال و القذارة، الذى يدل تمام الدلالة على الجنوح إلى الانحطاط و الإهمال العام.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۸۰

و هناك فى مختلف أجزاء البلدة عدة فسحات مكشوفة يباع فيه البعض من أنواع السلع، و قد سميت بأسمائها، مثل «سوق الغزل» و «سوق الموسلين» و «سوق الحنطة» و ما أشبه . و من بين هذه كلها كانت أكبرها و أزهاها السوق القريبة من الباب الشمالية الغربية، أو باب الموصل . غير أن أية سوق من هذه الأسواق لا يمكن أن تمت بصلة إلى أى رونق أو بهاء، و حتى إلى النظافة بالذات. و الحقيقة أن السوق التى ذكرت لآخر مرة هى «ميدان» المدينة الكبير. و تعرض الخيل هنا للبيع، و هو محاط بالمقاهى الممتلئة على الدوام بجمهور من جميع أنواع الناس الذين يجلسون فيها للتدخين و شرب القهوة و ما أشبه. و هو فى الوقت نفسه الميدان العام للاستعراض، و تنفيذ أحكام الإعدام كذلك، لأن المجرمين يعاقبون هنا بقطع الرأس و الشنق أو الجدع (قطع الأيدى و الأرجل). فكثيرا ما يلاحظ المارة أمامهم جذعا مقطوع الرأس، أو جذعين، يعرض على الناس خلال اليوم تنبيها لفاعلى الشر. على أن التركى المتزمت، الذى لا يتأثر بهول المشهد، يدخن شطبه بهدوء أو يمر بما يشاهده من دون أن يعبأ به، أو يغمغم بكلمة لا إله إلّا اللّه. و حتى هذا المكان الذى يستعمل لكل شىء لا يحتوى على أكثر من أيكر و نصف من الأرض على ما أعتقد.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۸۱

هذا و تستحق بغداد، من حيث شهرتها القديمة و أهميتها الحالية، أن يؤتى على وصفها بأكثر مما أنا مستعد لتقديمه إليك من

الوصف التفصيلى الدقيق.

و لما كنت أعتقد أنك يمكن أن تنزعجى إذا ما أقدمت على ترك القصة و هى مبتورة غير كاملة، أجد نفسى مدفوعا إلى الاستعانة بشىء من المصادر الأخرى لأجل أن يتسنى لى تقديم فكرة أوضح عما تكون عليه هذه المدينة التى سارت بذكرها الركبان، أو عما كانت عليه قبل أن تنزل بها الكوارث الأخيرة. و يبدو لى أن الوصف الذى عمد إليه بكنغهام فى كتابه «رحلات فى بلاد بين النهرين » هو على درجة من الجودة بحيث إننى سوف لا أترك مجالا متيسرا من دون أن أبادر فيه إلى اقتباس شىء منه، لأنك قد لا يتسع لك المجال لمطالعته.

فيقول المستر بكنغهام «إن ما فى داخلية البلدة من الأشياء ذات الأهمية يقل عما يتوقعه المرء من الشهرة الجديرة باسمها كمركز شرقى كبير للثروة و الأبهة. فإن قسما كبيرا من الأرض الداخلة فى ضمن الأسوار غير مشغول بالأبنية، و خاصة من الجهة الشمالية الشرقية. و حتى فى الأماكن التى توجد فيها الأبنية و العمارات، و خاصة فى محلات المدينة التى يكثر فيها السكان بالقرب من النهر، تلاحظ وفرة الأشجار. و على هذا فحينما كان ينظر إلى كل ذلك من سطح أية دار من الدور الكائنة فى داخل الأسوار كانت المدينة تبدو كأنها قائمة فى بستان كبير من النخيل، أو مثل ما كانت بابل عليه من كونها إقليما مسورا و ليس بلدة واحدة.

«و قد بنيت الأبنية كلها، العامة و الأهلية، بالآجر المفخور ذى اللون الأحمر الضارب إلى الصفرة، و الحجم الصغير، و الزوايا المدورة الدالة على أن معظم هذا الآجر كان قد استعمل عدة مرات من قبل لأنه ربما كان قد أخذ من

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۸۲

من أزقة بغداد القديمة

خرائب أبنية قديمة لتشييد أبنية أخرى بها. و فى الحالات القليلة التى يكون الآجر جديدا يكون ذا مظهر نظيف مرتب لا وجود له مطلقا فى الآجر القديم. و مع ذلك فحتى هذا يعد أدنى من الحجر. و شوارع بغداد، مثل شوارع جميع المدن الشرقية الأخرى، ضيقة غير مبلطة تقوم على جانبيها بوجه عام جدران خالية من أى شىء، إذ نادرا ما تلاحظ الشبابيك مفتوحة على الأزقة و الطرق العامة، بينما تكون أبواب الدخول المؤدية إلى المساكن صغيرة بسيطة.

و تكون هذه الشوارع أكثر تعقيدا و تعرجا من كثير من شوارع المدن التركية الكبيرة. و فيما عدا بعض الأسواق و خطوطها التى تنتظم انتظاما محتملا، و بعض الفسحات المكشوفة، فإن داخلية بغداد عبارة عن متاهة من الأزقة و الممرات.

«أما الجوامع التى تعد على الدوام أبرز المعالم فى المدن الإسلامية فهى مبنية هنا بطراز يختلف عن طراز الجوامع التى شاهدتها فى معظم أجزاء

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۸۳

تركيا الأخرى. و أقدمها على ما يعتقد يسمى جامع سوق الغزل، لكن هذا لم يبق منه سوى منارة سميكة ضخمة و قسم من السور الخارجى».

و للمنارة حوض واحد فقط، ينشأ بروزه كما يقول المستر بكنغهام من تحت مركز العمود ثم يصعد إلى أعلى بسلسلة من المنحنيات المعقدة و التزيينات المدلاة على شاكلة المقرنصات «الستالاكتايت» التى تنتفخ بالتدريج إلى الخارج و تنتهى بالحوض من حوالى ثلث ارتفاع المحور. و تكون النهاية مدورة غير رشيقة، فيبين المنظر العام للرائى منظرا سمجا.

و يعد هذا الحوض أعلى نقطة يمكن الارتقاء إليها و مشاهدة منظر المدينة العام منها. و هو فى الحقيقة يشرف على معظم السطوح و الساحات لمسافة طويلة من حوله. و قد استغربت حقا أن أجد كفارا مثلنا يسمح لهم بالصعود إلى ارتفاع يتفرجون منه على المسلمين. و وجدنا شيئا من الصعوبة فى الصعود بسبب الظلام المخيم على السلّم و ذروق الخفاش و الحمام المتراكم فيها، ذلك الحمام الذى كان يأوى بالآلاف إلى الأماكن التى تآكلت فيها الحنيات و الشقوق المتكونة بتأثير العنف و الزمن. و من المعتقد أن المنارة و جامعها

المتهدم يبلغ عمرهما ما يزيد على ستمئة سنة . و لما كنت أشك فى أن يكون وصف جوامع بغداد مسليا لكم سوف أقتصر فى الوقت الحاضر على أن عدد هذه العمارات المقدسة يتجاوز المئة على ما يعتقد، أو كان قد تجاوز المئة

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۸۴

فى يوم من الأيام، برغم أن حوالى عشرين أو ثلاثين منها فقط تستحق الملاحظة و الاهتمام لدرجة ما. أما القباب فلا أظنك تستطيعين أن تجدى ما يزيد على الدزينة منها بحجم يعتد به، و أنا متأكد أن عدد المنائر يقل عن أربع و عشرين. و هناك عدد من المنائر و القباب المغطاة بالآجر المصقول، الملون فى الغالب باللون الأخضر و الأبيض و الأصفر و الأسود، الموشى بالفسيفساء (الموزاييك) ليدل على الأوراد و الأرقام و الكتابة التى يكون لها، على حد تعبير المستر بگنغهام، تأثير مبهج بدلا من تأثير الروعة و الفخامة. و يمكن أن يقال بوجه عام إن جوامع بغداد و مراقدها تقلّ فى طراز عمارتها عن جوامع و مراقد المدن الإسلامية الكبيرة فى الهند بقدر ما تمتاز أبنيتها بوجه عام على أبنية المدن فى إيران. و قد تحدثت عن الأسواق من قبل، و إنى أؤيد هنا المستر بگنغهام تمام التأييد فى كونها بسيطة بساطة نسبية، أما الخانات و الحمامات فلا أستطيع أن أذكر إلا النزر اليسير عنها، لكن الخانات التى رأيتها كانت تبدو و هى على درجة كافية من الرثاثة.

و يقول المؤرخ المشار إليه عن دور السكنى فى بغداد «إننى لم أر منها سوى جدرانها الخارجية و سطوحها. و قد لفت نظرى بوجه خاص أننى على طول هذه المدينة الواسعة و عرضها لم أجد و لا عقدا مدببا واحدا فى أبواب أى مسكن من المساكن. فقد كانت العقود كلها مدورة و منبسطة مع شىء من الزينة بالآجر الصغار فوقها. و حتى الأسواق القديمة و الجوامع المتهدمة التى كان يلاحظ وجود العقد المدبب فيها يكون شكله أقرب إلى شكل العقد القوطى من العقد الإسلامى، و هذا ما لا حظته فى الموصل أيضا. و لذلك لا يمكن أن تكون بغداد نفسها قد كانت مقرا لفن العمارة الإسلامية الذى ربما يكون قد نشأ فى بلد يبعد عنها من جهة الغرب. «و تتألف البيوت من صفوف من الغرف تنفتح أبوابها إلى باحة داخلية مربعة. و فى الوقت الذى تشغل فيه السراديب، و هى غرف تبنى تحت سطح الأرض، أثناء النهار للاحتماء بها من الحرارة الشديدة تستعمل السطوح المكشوفة لتناول العشاء وقت المغرب و النوم فيها خلال الليل. فمن سطح

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۸۵

المسكن الذى كان يقيم فيه المستر ريچ الذى كان منقسما إلى عدة أقسام، يكون لكل منها ممرها الخاص للصعود و النزول، بحيث يتكون منها فى الحقيقة عدد من الغرف غير المسقفة، كان بوسعنا أن نشرف عند انبلاج الصبح على منظر من مناظر بغداد يشبه منظر مدريد الموصوف فى «لاديابل بواتو» حين يرينا أسر البيوت المحيطة بنا جميعها فى مخادعها المكشوفة، و هى فى حالات على جانب غير يسير من الطرافة فى بعض الأحيان. فقد كانت تنكشف لنا من هذا الموقع المنيف ثمانية أو عشرة مخادع مختلفة تقع فى عدة محلات محيطة بنا. و نظرا لأن الأسر جميعها كانت تنام فى العراء خلال الصيف بطبيعة الحال كانت تنكشف أمام أنظارنا مناظر بيتية خصوصية كثيرة من دون أن يكتشف أحد و لو مرة واحدة، أو يشك، بكوننا كنا نتطلع إليه. فقد كان الزوج فى الأسرة الموسرة ينام على سرير مرتفع تفرش فوقه حشية و وسائد من الحرير، مغطاة بلحاف سميك من القطن من دون أن تحاط بستائر أو كلة تقى النائم من البعوض. كما كانت الزوجة تنام على فرشة مماثلة و لكن على الأرض بصورة دائمة- أى من دون سرير، و على مسافة من زوجها- بينما كان الأطفال، الذين يصل عددهم إلى الثلاثة أو الأربعة، يشغلون فرشة واحدة.

أما الخدم أو المماليك فقد كان كل منهم ينام على حصيرة منفردة تفرش على الأرض، لكن الجميع كانوا ينامون أو ينهضون من الفراش على مرأى من بعضهم بعض. و كان كل فرد ينهض من نومه فى ساعة مبكرة بحيث لا يبقى أحد فى الفراش بعد طلوع الشمس، فيطوى فراشه و غطاءه و وساداته لتؤخذ إلى الدار عدا الأطفال الذين كان يتولى هذا العمل عنهم أمهم أو أحد الخدم.

«و لم يكن أى من هؤلاء يخلع ملابسه كما يفعل الأوربيون عامة حينما يذهبون إلى الفراش. فقد كان الرجال يحتفظون بقمصانهم و

لبساهم، و قفاطينهم أحيانا، عند النوم. و كانت الأطفال و الخدم ينامون بالملابس ذاتها التى كانوا يلبسونها أثناء النهار. أما الأمهات و البنات الكبيرات فقد كن يلبسن سراويل الأتراك الحريرية الكاملة مع الرداء المفتوح و لفات الرأس إذا كن من الأسر الغنية. و كانت الفقيرات منهن يلبسن جلبابا (دشداشة) فضفاضا أحمر

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۸۶

و غطاء بسيطا للرأس. و فى معظم الحالات التى رأيناها كانت الزوجات يساعدون أزواجهن فى ارتداء الملابس أو خلعها، و القيام بكل واجبات الوصيف.

«و قد كان الزوج عادة يؤدى الصلاة بعد أن يكون قد ارتدى ملابسه، بينما يكون المملوك منصرفا إلى إعداد القهوة و الشطب له. و بجلوسه على سجادته بعد أن تكون هذه قد أحضرت كانت الزوجة تقوم على خدمته بنفسها، فتتراجع إلى مسافة مناسبة لتنتظر الكوب بعد تقديم الماء، و تكون واقفة بين يديه على الدوام، و كانت تتكتف أثناء حضوره فى بعض الأحيان، و حتى أنها كانت تقوم بتقبيل يده عند تسلم الكوب منها كما يفعل أحط خدم الدار و مباشريه. و حينما كان الزوج يتكىء على وسائده أو يجلس على سجادته بارتياح و تراخ لينعم بشطبه أو غليونه الصباحى كانت نساء الأسرة ينصرفن إلى الصلاة بصورة عامة. و غالبا ما كن يصلين على انفراد كما يصلّى الرجال تماما، و لكننا لاـ حظنا مرة واحدة أو مرتين أن ربة البيت و بعض النساء الأخريات، كالأخت مثلا أو إحدى القريبات، كن يؤدّين الصلاة معا معقبة إحداهن إشارات الأخرى التى تقف بجانبها، كما يحصل حينما يقوم الرجال بصلاة الجماعة خلف الإمام. و لم تكن أية امرأة، سواء أكانت الزوجة أم الخادمة أم المملوكة، تهمل هذه الفريضة الصباحية، لكننى لم أجد بين الأطفال الذين تقل أعمارهم عن اثنتى عشرة سنة من كان يقوم بتأديتها.

«و على الرغم من العزلة الظاهرة التى تعيش فيها المرأة هنا، و فى جميع أنحاء الأمبراطورية التركية فى الحقيقة، فإنها غير محرومة من الحرية الحقيقية التى يساء استعمالها لدرجة غير يسيرة فى بعض الأحيان كما يحصل فى أماكن أخرى. و لاـ يمكن أن ينكر بأن التسهيلات للاجتماعات السرية المريبة هى أكثر فى المدن التركية منها فى أية مدينة أوربية كبيرة. فإنّ تنكّر المرأة التركية أو العربية فى زيّها و لباسها هو على درجة من الكمال بحيث إن زوجها لا يستطيع التعرف عليها. و هذا يؤدى بناء على ذلك إلى أن تذهب السيدة أينما تريد عند الحاجة.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۸۷

«و تعد الگرجيات و الچركسيات من بين نساء بغداد أجملهن على وجه التأكيد، و أقلهنّ تشويها بالمساحيق. أما نساء الطبقة العليا من سكان البلاد الأصليين فتكون سحنهن أقل طراوة و صفاء، بينما تكون نساء الطبقتين الوسطى و الدنيا، ببشرتهن السمراء و قلة جمال محياهن إلا من حيث العيون السود المعبرة، قد و شمن أنفسهن و شما و حشيا يكسبهن مظهرا منفرا فى بعض الأحيان. و تقوم نساء جميع الطبقات و المراتب بصبغ شعرهن بالحناء، كما تصبغ راحات أيديهن صبغا قويا بها بحيث تبدو و كأنها أيدى البحارة المكسوة بالقطران».

و إلى هذا الحد أكتفى بهذا المقدار مما ذكره المستر بگنغهام. و من المؤكد أن نساء الگرج و الچركس هن أجمل النساء و أكثرهن تقديرا هنا، لكنهن أصبحن أكثر ندرة من ذى قبل. فإن تركيا لاـ يسعها بعد هذا أن تشجع تجارة الرقيق مع هذه البلاد التعيسة المضطهدة (القفقاس)، حيث إن أهاليها يرزحون الآن تحت و طأة الحكم الذى يمارسه طاغية أشد قسوة من الحكام السابقين و هو عاهل الروس المطلق المستبد. و يسير القضاء على السكان هناك سيرا حثيثا، و لكن ليس بالسرعة التى يريدها المغتصب. فحينما كنت فى تبريز تناهى إلينا أن حملة كانت على و شك أن تجرد من تفليس ضد الأباظة بنية استئصالهم.

و ليس من المحتمل كذلك أن يتكاثر العنصر الگرجى هنا، لأن المعروف اليوم معرفة قاطعة أن قليلا من نساء تلك البلاد من يمكنهن تربية الأطفال و تنشئتهم فى هذه الجهات. فهم يموتون عادة قبل إكمال الثالثة من أعمارهم، و يعزو البعض القسم الأعظم من هذه

الوفيات إلى ولع الأمهات الخالى من التبصر بتحشية أطفالهن الصغار بالحلويات و سائر الأنواع غير المناسبة من الغذاء.

و لقد قدر بكنغهام نفوس بغداد حينما كان موجودا فيها بما يتراوح بين الخمسين و المئة ألف نسمة. و هو يعتبر عدد نفوسها أقل من عدد نفوس حلب و أكثر من نفوس دمشق، بحيث إنه يجعل الحد المقارب للحقيقة ثمانين ألفا.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۸۸

على أنه من المؤكد أن عدد النفوس قد ازداد ازديادا كبيرا فى أيام داود باشا، و لذلك فإنه على ما أعتقد لم يكن يقل قبل طاعون ۱۸۳۱ م عن مئة و خمسين ألف نسمة. و كان القسم الأعظم من هؤلاء أتراكا و عربا، لكنه كان هناك أيضا عدد كبير من البغداديين الأصليين و هم يكادون أن يكونوا عنصرا خاصا يختلط فيه الدم الإيرانى و الهندى بالأرومات الرئيسة. و معظم التجار الآن هم من أصل عربى، و هناك عدد من اليهود و الأرمن و النصارى التابعين للكنيستين الكاثوليكية و السريانية. و يلاحظ وجود الأكراد و الإيرانيين و البدو بكثرة فى الأسواق، لكن البدو لا يودون قضاء ليلتهم ما بين الأسوار. أما القسم الأعظم من الإيرانيين، الذين هم فى الغالب من زوار العتبات فى كربلاء و مشهد على، فيرجعون فى آخر النهار إلى الكاظمية و هى قرية و عتبة مقدسة تقع على بعد أربعة أميال فى الجانب الغربى من النهر، أو يخيمون خارج أسوار المدينة، فى الجهة الشمالية منها.

و يصف المستر بكنغهام أزياء بغداد و ألبستها بكونها أقل رونقا و بهاء بكثير مما هى فى مصر أو القسطنطينية فى ذلك الوقت. على أننى لا أستطيع الحكم على ذلك بشىء، لكن منظر الأزياء فى الوقت الحاضر أبعد من أن يكون شيئا باهرا على وجه التأكيد. و قد أكد لى الكثيرون أن هذا المظهر يختلف اختلافا غير يسير عما كان عليه فى أيام داود باشا. فقد كان الباشا يحتفظ ببلاط زاهر و تأسيسات فاخرة، كما كانت الحلل و البزات العسكرية على عهده شيئا زاهيا و متألقا تمام التألّق. فإن الثمانمئة گرجى من أتباعه، المتزيين بالألبسة الزاهية و المسلحين بالسلاح الفاخر، الراكبين على الجياد العربية الأصلية، المطهمة بالجهاز المزركش، لا بد أن تكون قد كوّنت منظرا باهرا فى عهده. و كان ضباطه، و هم يقتدون بسيّدهم، يتنافسون فيما بينهم من حيث فخامة العدد و كثرة الأتباع. أما الآن فلا يوجد شىء من ذلك مطلقا، إذ تقتصر القوة العسكرية البسيطة اليوم على عدد قليل من الهايتة، أو الخيالة الألبانيين، المختلطين بخيالة آخرين من أهل البلاد، التى تتزيا بالألبسة الرثة و الأسلحة البسيطة. و تحتوى كذلك على مفرزة من «النظام» أو الجند النظامى الجديد، و هذه قطعة عسكرية على آخر ما تتصوره المخيلة من عدم الانتظام، فقد أفقدها

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۸۹

لباسها نصف الأوربى منظر الأتراك المهيب من دون أن يسبغ على أفرادها أناقة الجند الأوربيين و مظهرهم المهنى. و ليس هناك سوى مئات قليلة من هؤلاء الأبطال الشواذ، الذين ذكرنى زيهم غير المهندم، و «الفيس» الأحمر الذى يضعونه فوق رؤوسهم، بالمساجين الفرنسيين القدماء الذين كانوا يلبسون قبعاتهم الليلية الحمراء و سترهم المتعفنة. أما السراى، أو قصر الباشا، فلا ضجة فيه و لا مظهر يعتد به، و أما الموظفون الفاسدون ذوو المستوى المنحط التابعون للرجل التعيس الذى كان يضطلع بمنصب الباشا فيقتدون بسيدهم فى الرثاثة و قلة الحاشية و فى جميع الوجوه الأخرى.

غير أن الأسواق ما يزال فيها الآن شىء من الحركة و اللون. لأن الأتراك و العرب معا مغرمون بالأحمر بمختلف أطيافه و درجاته، و بالألوان الزاهية الأخرى. يضاف إلى ذلك أن الأصباغ و الزينات التطريزية، و عمائم الشال، و الألبسة الفضفاضة، مع الخناجر المطعمة بالفضة و المسدسات المدلاة من المحزم، تعمل كلها على رسم صورة حية مبهجة.

على أن الركوب عبر الأسواق يعتبر عملا فيه شىء من الخطر. فهى، على كونها تؤلف الممرات و الطرق العامة فى البلد، ضيقة بحيث إنك تضطر على الدوام على التوقف فيها بسبب الخطوط الطويلة من الجمال و البغال المحملة التى يحتمل جدا أن تؤدى الأحمال الموجودة فوق ظهورها إلى كسر رأسك أو ركبتيك حسب ارتفاع الحيوان الذى تصادفه، بينما تكون منشغلا بشق طريقك بينها و بين الأعراب الحفاة الذين يمتلىء بهم كل شارع أو زقاق. و قد ذكرتنى مجموعات الحمير، المحملة بالحطب، بسيدة مآدب «ألف ليلة

و ليلة» التى عزت الجرح الموجود فى خدها إلى صدمة أصابتها من إحدى القوصرات التى كان يحملها حيوان من هذه الحيوانات. فعرّضت بذلك حيوية مجتمع الحطابين كلهم إلى الخطر. و تبرهن الخروق المختلفة فى سراويلى الآن أكثر من مرة على إمكانية وقوع ما جاء فى تلك القصة. و كم أتمنى أن يكون بوسعى أن أقول إن دكاكين الطباخين تذكرنى على الشاكلة نفسها بدكان سى مصطفى و حلوياته اللذيذة. لكن الحقيقة ان رائحة السمن الزنخ كانت منفرة جدا، و لم تكن

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۹۰

دكاكين الحلواتية كذلك مغرية مثل دكاكين الحلواتية فى استانبول.

و من بين الأشياء التى تلفت نظر الغريب فى بغداد الهدوء الرزين، و الجمود الذى يبدو على التاجر التركى و هو يجلس فوق المنصة العالية المنصوبة بالقرب من بابه، مدخنا شطبه فى وسط الضجيج المحيط به، كأنه لا يسمع شيئا منه و لا يملك الاهتمام الذى يجب أن يكون عند التاجر بيع ما عنده من سلع. و حينما يراجعه أحد الزبائن يعرض عليه السلعة المطلوبة ببطء و سكون و ينهى المعاملة إذا تم الاتفاق على السعر- و إلا فيتابع تدخينه للشطب. و لو كان فى مكانه تاجر إيرانى لسألك دزينة من الأسئلة عما تريد، و لعرض عليك بالتعاقب خمسين شيئا من الأشياء التى لا تحتاجها، و لقفز من مكانه و عاد إليه عدة مرات، خلال المدة التى يستغرقها التركى المتزمت فى سحب «الچبوق» من فمه بقصد التحدث إليك. على أنه لا بد من الاعتراف هنا بأن الباعة اليهود و الأرمن يعوضون بسرعتهم و طلاقة لسانهم عن تثاقل الأتراك و تكاسلهم. فإنهم مدركون نشطون فى التأكد من طلبات الزبائن و تزويدهم بها.

و المزية الأخرى التى تلفت نظر الغريب فى شوارع بغداد و أسواقها كثرة العرب، من البدو و سكان المدينة، التى ألمحت إليها من قبل. و يتألف لباسهم من قميص خشن يلبس فوقه الناس المتمكنون قفطانا (زبونا) مصنوعا من نوع من أنواع القماش الحرير أو القطن، المخطط فى الغالب. و كلهم يضع على كتفيه عباءة من شكل خاص، فتكون عريضة من دون أردان لكنها مزودة بفتحتين تمد منهما اليدان عند الحاجة، و تصنع من الصوف المحبوك فى حياكته، المخطط بخطوط عريضة متعامدة بيضاء اللون و بنيته، لكنها تكون

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۹۱

بيضاء أو سوداء اللون فى بعض الأحيان. و هى اللباس القومى الخاص- أى العباءة العربية المعتادة. و لا يقل لباس الرأس انفرادا و تخصصا عن العباءة.

فليس هو عمامة على ما يعتقد البعض، و لا شيئا يشبهها. و إنما هو يتألف من كفية حرير مربعة الشكل محبوكة الحياكة، تخطط بخطوط متسعة صفراء و حمراء، و تبرم لحمتها من الحاشية إلى خيوط متينة قصيرة. و تطوى هذه الكفية بشكل مثلث ثم توضع فوق الرأس فيتدلى طرفاها على الكتفين أو أمامهما، بينما يتدلى الطرف الثالث إلى الوراء. و فيما حول قمة الرأس المغطى بهذه الطريقة تلف حزمة من وبر الإبل البنى اللون، المبروم برما جزئيا مرتين أو ثلاث مرات، بحيث يبدو الرجال لأول وهلة و هم يرتدون العباءة الفضفاضة معه أشبه ما يكون بالنساء الساحرات من الرجال. و ليس من الممكن من دون الاستعانة بالرسم أن أنقل إليكم ما يكوّن عندكم فكرة تامة عن التأثير الفريد الذى يحدثه لباس الرأس هذا، حينما يساعده فى التأثير زوجان من العيون السود النفاذة التى تحدّق من بين خصل شعرهم الأسود.

لأن العرب، مثل سائر المسلمين لا يحلقون الرأس، و إنما يضفرون شعرهم الطويل الخشن الأسود بسواد الفحم (الذى يتدلّى على أكتافهم و ظهورهم) و يخفونه تحت الغترة . على أنه لباس رأس مفيد للبادية، يخفف من تأثير الحرارة و البرودة و خاصة حينما يلبسون تحته طاقية مصنوعة من الوبر. لأنهم يتلثمون بطرفى الكفية فى الطقس البارد، و يتلفعون بها إلى ما فوق الوجه و العيون حينما يشتد تأثير الشمس و إزعاجها، و بذلك ينتفع بها للحماية فى كلتا

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۹۲

الحالتين. و مع ذلك فإن هؤلاء البدو قد تحمصت بشرتهم إلى حد السواد التام. و أؤكد لكم أنهم يكونون بهذا أشكالا فريدة فى

وحشيتها حينما يطوفون فوق جيادهم النحيفة، فتتطاير ملابسهم الفضفاضة فى الهواء و تهتز رماحهم فوق أكتافهم. و إن المرء قد يعتبرهم حتى فى داخل المدن أشخاصا تخطر ملاقاتهم، لأنهم يندفعون فى سيرهم بهيئة الاستقلال الفظ. فإن العربى يعتبر نفسه فى كل مكان سيد الأرض التى يحل فيها، و هو فى الحقيقة يكاد يكون كذلك هنا أيضا. ثم إن صراخهم و هديرهم حينما يمرّون قد يؤديان بالمرء إلى الاعتقاد بأنهم يهمون بسلب كل من يصادفونه فى الطريق. لأن العربى لا يتكلم إلا بأعلى صوته، و لذلك يرتفع صوتهم أثناء الكلام بحيث يخيّل للغريب أنهم يتشاجرون فيما بينهم. و قد أدّت هذه الخصلة فى بعض الأحيان إلى حصول أغلاط مضحكة. فقد كان أحد النوابين المقيمين فى بغداد متشبعا بالخوف من الهيضة (الكوليرا) بحيث لا يخرج من البيت إلا و هو يحمل معه الأدوية الواقية. و قد حدث ذات يوم بعيد وصوله إلى هنا أنه بينما كان جالسا فى إحدى المقاهى أو الأماكن العامة الأخرى، طلب إلى مغنّ كان موجودا فيه أن يسلى الناس بالغناء. لكن المسكين وجد صعوبة فى ذلك و أخذ يخرج أصواتا مبحوحة و أنغاما غريبة ربما كانت تبعث الفزع فى نفوس البعض منهم.

غير أن النوّاب الذى كان يجهل لغة البلاد تصور أن الرجل قد أصيب بالهيضة الوبيلة التى كان يقال إنها قد بدأت تصيب بعض الناس فى بغداد بشرها.

فهجم النواب عليه و الأدوية بيده، و أخذ يقنعه بتناول الحبوب و الشرب مما كان فى القنينة التى كانت معه فرفض المغنى المتعجب ذلك و هو يستغيث بقوله:

«لا لا لا» لكن النواب ظل يلح عليه بتناول الدواء حتى أفهم بحقيقة الأمر.

غير أن العرب ليسوا وحدهم هم الذين يصخبون بمثل هذا الصخب، و إنما هو شىء عام فى بغداد التى تعد من بين جميع الأماكن الأخرى التى

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۹۳

ذهبت إليها غريبة جدا من حيث وجود كل نوع من أنواع الأصوات التى يمكن تصوره فيها، و يعد سكانها بوجه عام أشد الناس صخبا. فالغرفة التى أسكنها الآن لها شرفة تطل على الشارع و شباكان، بحيث إن كل شىء يمر من تحتها يسمع بحذافيره كما لو كان يحصل فى داخل الغرفة نفسها. و لذلك يعزف عندى قبيل طلوع النهار جوق من الديكة و الدجاج الموجود فى ساحة مجاورة، و ترتفع أصواته. و يعقب هذا بوق النهوض الذى يدق فى جناح الحرس السپاهيين التابعين للمقيمية، فيثير بدوره نباح عدد من الكلاب. و يظل النباح مستمرا حتى تبدأ الحمير بالنهيق. و ما يحل ذلك الوقت حتى يكون الأعراب المجاورون الذين التجأوا إلى المدينة بسبب اضطراب الحالة فى خارجها قد شمروا عن سواعدهم و أخذوا يسوقون إلى المرعى قطعان الأغنام و الماشية و الجمال التى جاءوا بها معهم طلبا للأمان. و لا بد أن تكون هذه الحيوانات أكثر حيوانات العالم صمما تجاه الرعاة، أو أن الرعاة يسيئون معاملتها إساءة غير يسيرة. لأنها تنادى بمختلف الأصوات العالية بقصد إقناعها بالحركة و الخروج إلى الخارج، فيؤدى ذلك كله إلى تكوّن هدير و ثغاء لا مثيل له فى أى مكان آخر. و على هذه الشاكلة يتجمع قطيع بعد آخر فيزداد الهرج و المرج و تعلو الضجة فتشتبك الأصوات. و ما تبدأ بالحركة و يقل الضجيج حتى تعقبه أصوات أخرى و يتعالى ضجيج من نوع آخر، فهناك أصوات المارة و المستطرقين و الشحاذين، و الأصوات المتعالية من بعيد و غير ذلك، و لا أظن أن هذه الأصوات يمكن أن تضاهيها أصوات پيكاديللى بكل عرباته، و لا شارع كوكسبر أو تشرينغ كروس، و لا سميث فيلد فى يوم السوق الخاص. و لا غرو فهذه بغداد الوريثة الحقة لبابل القديمة.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۹۵

(۵) [الرسالة الخامسة]

اشارة

أسباب الخراب فی بغداد- ظهور الطاعون فی المدینة- انتشاره- المقیم البریطانی یغادر بغداد- اعتذار المستر غروفز عن موافقته- تفاقم الوباء- دخول الماء من الأسوار و غرق المدینة- سقوط سبعة آلاف دار مرة واحدة- دفن خمسة عشر ألف- ذعر الباشا- إحاطة الماء بالقوافل- توقف الفیضان و الطاعون- دخول الطاعون إلی بیت المستر غروفز- موت زوجته و طفله- حوادث الموت الکاسح و أسبابها- تأثیر الطاعون فی الأماکن الأخری- بغداد بعد الطاعون و الغرق- طاعونان آخران فی سنتین أخریین- الوفیات فی البصرة.

عزیزتی

کنت حینما اقتطفت مما کتبه بکنغهام قد وصفت بغداد کما کانت علیه فی أیام أسعد باشا. و قد أشرت أیضا إلی ازدیاد النفوس و حلول عهد زاهر تحت حکم داود من بعده. و لو کنت أقف عند هذا الحد فقد یؤدی ذلک الانطباع بکم إلی الاعتقاد بأن بغداد قد بقیت علی حالتها تلک. فوا أسفاه! کم تکونون مخطئین بذلک!- آه کیف یتجندل الأبطال!- فإن بغداد الآن خراب قفر، نسیبا! و قد تم هذا التبدل بتعاقب الکوارث علیها تعاقبا مخفیا کان یمکن أن یحصل فی أیة مدینة من المدن الحدیثة. فقد قضی الطاعون و الغرق و المجاعة، بأبشع أشکالها علی السکان و قوّض أسوار هذه المدینة العظیمة

رحلة فریزر إلی بغداد/ تعریب جعفر خیاط، ص: ۹۶

و عماراتها. و جور الانسان، و هو أشد نکالا من نقمة القدرة الإلهیة، کان و لا یزال یکتسح ما تخلف عن کل ذلک بسرعة.

ففی أواخر عهد داود باشا، أی فی خلال سنة ۱۸۳۰ م، تکاثر أعداؤه فی مجالس الباب العالی و أواسطه، فتقرر إسقاطه علی کل حال. و لکنه کان قد ثبت أقدامه فی مکانه بحیث إن جمیع القوی الموجودة فی استانبول ما کان فی مقدورها أن تفعل ذلک لو لم تتدخل فی الأمر ید جبارة فتنزله من علیائه. فکان داود قد عمد منذ مدة طویلة إلی تشکیل جیش کفء و نجح نجاحا کان یمکنه أن یهزأ فیه إلی حد الازدراء بجمیع الاستعدادات العسکریة التی کان بوسع السلطان أن یجردها ضده. و هکذا بقیت الحال إلی أن ظهر فی بغداد، فی أوائل ۱۸۳۱ م، الطاعون الذی کان یفتک فتکا ذریعا فی إیران. فقد کانت بعض الإصابات الفردیة قد وقعت علی ما یقال منذ تشرین الثانی المتقدم، و لکنها أخفیت أو أهملت. و لم تصبح حقیقة الطاعون المیتة، التی کان یتزاید ظلها فی بغداد، شیئا مخفیا حتی حل شهر آذار من سنة ۱۸۳۱ م.

ففی الیوم الأخیر من آذار أغلق الکولونیل تایلور بیته تبعا للعادة الألیمة، الضروریة، التی یتبعها الأوربیون الذین یجدون بالتجربة أن هذه الحیطة إذا تم اتخاذها فی الوقت المناسب فإنهم یفلتون فی الغالب من المرض الذی لا ینتقل علی ما یبدو إلا بالملامسة أو الاتصال الوثیق بالشخص المصاب. و فی مثل هذه الحالات یتم تسلم الأشیاء کلها عن طریق خوخات تفتح فی الجدار، و لا تمس مطلقا قبل أن تغسل غسلا جیدا بالماء. فاللحم و الخضروات و الدراهم کلها تمر بهذه العملیة التطهیریة، و الرسائل و الأوراق یتم تسلمها بملقط طویل من الحدید و تبخر قبل أن تلمس بالید. و لو کان من الممکن لسکان هذه البلاد أن یضبطوا بحیث یمکن أن یخضعوا لمثل هذه

رحلة فریزر إلی بغداد/ تعریب جعفر خیاط، ص: ۹۷

الإجراءات الوقائیة لکان من الممکن أن یجرد هذا المرض من تأثیراته، و لقل عدد ضحایاه إلی حد کبیر. لکن التراخی و عدم المبالاة الممتزج بعقیدة واهیة بالقضاء و القدر یمنعانهم من إجهاد أنفسهم فی هذا الشأن، مع أن هرب الآلاف من المدینة بأمل التخلص من الوباء الذی تسرب إلی مساکنهم یبرهن بطریقة لا تقبل الجدل بأن اعتقادهم بالقضاء و القدر غیر راسخ أو تام بأی حال من الأحوال.

و قد تم هذا الفرار فی الوقت المناسب، و هرب اللاجئون و لکنهم هلکوا فی مکان آخر و فرصة أخری. و فی غیرها نقل الهاربون

المرض معهم و نشروا سمومه هنا و هناك حتى ماتوا ميتة تعيسة فى البر أو البادية. و مع كل ما كان يبذله الأوربيون من عناية أو حيطة لم تكن هذه فى بعض الأحيان كافية لدرء العدوى و إبعادهم عنهم. فالقايروس على درجة من الدقة بحيث إن أقل اتصال يحصل يكون كافيا لإيصاله من شخص إلى آخر، و يستطيع أصغر حيوان نقله من محل لآخر. و لذلك تكون القطط و الجرذان و الفئران حيوانات خطرة فى هذا الشأن، و تصبح القطط على الأخص و هى تألف الإنسان أشد خطرا عليه، و من أجل هذا يقوم الذين لهم عقيدة بأهمية الحجر و العزل بإتلافها حيثما توجد. و من الحوادث المميتة المسببة عن الاتصال بمثل هذه الحيوانات الحادثة التى وقعت فى بيت أحد نصارى بغداد المتصلين بالمقيمية البريطانية. فقد كان هذا ممن يقتدون بالمقيم فى غلق داره، و عدم فتحه لأحد. غير أن ابنته فى هذه المرة لمست قطة كانت تتردد على البيت، و كانت هذه القطة قد خرجت إلى الخارج أو اتصلت بقطة أخرى فأدى ذلك إلى نقل المرض إلى البيت و إصابة البنت به فقضت نحبها. و قد كانت الطفلة المسكينة منذ اللحظة الأولى على علم بمصيرها، حيث كانت تقول «أصبت بالطاعون، و سوف أموت» فأيدت الأعراض التى ظهرت عليها ما تنبأت به و أسلمت الروح بعد أيام أربعة.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۹۸

و من المحتمل أن يكون المرض قد جىء به إلى بيت الكولونيل تايلور بطريقة عرضية مثل هذه، مع أنه هو و جميع من كان يسكن معه كانوا على علم بأن البيت و مداخله كلها كان مغلقا غلقا محكما. ففى اليوم العاشر من نيسان مات أحد الحرس السپاهيين به، و أصيب أربعة من خدامه. و كان المرض قد انتشر فى هذه المرحلة انتشارا أدى إلى موت سبعة آلاف شخص فى القسم الشرقى من المدينة، و هو القسم الذى كان يقع فيه مسكن الباشا و البعثة البريطانية و جميع الناس المعروفين. و كان أخبار الجانب الثانى على جانب أقل من الفظاعة، لكن هلع السكان اشتدت و طأته بارتفاع مستوى المياه فى دجلة، التى انبثقت من السدود المقامة على جانبيها فغمرت الأماكن المنخفضة من الناحية الغربية، و دخلت المدينة حيث كانت ألفان من البيوت قد تهدمت من قبل على ما يعتقد. و قد حيل دون الكثير ممن كان يمكن لهم أن ينجوا بأنفسهم لا بانتشار هذه المياه فقط بل بوجود الأعراب أيضا، الذين أخذوا يتجمعون الآن حول المدينة فيسلبون الخارجين منها جميعهم إلى حد العرى.

فبالحصار الذى تم على هذه الشاكلة تسنى للوباء أن يفعل ما يفعل بكل حرية، و وقع الناس فريسة له بسرعة لا تصدق. و لما وجد الكولونيل تايلور أن داره قد تسللت إليها العدوى لم يبق لديه سوى أن يستخدم الوسائل المتيسرة عنده للفرار فى الوقت الذى كانت لا تزال هناك إمكانية يستغلها لذلك.

و كانت زوارقه، التى كان قد جاء بها من البصرة هو و أسرته، لا تزال مشدودة بجدران المقيمية من جهة النهر بحالة استعداد للخدمة الآنية. فقرّر أن يستقلها فى الحال، و كان من حسنات هذا الوضع و الموقع أن تلك الزوارق قد ارتفعت بارتفاع المياه فى النهر حتى صارت فى مستوى الباب الخلفى للدار، و أن سكان الدار كان بوسعهم أن يتخذوا الاستعدادات المطلوبة و ينتقلوا إلى

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۹۹

الزوارق من دون أن يتعرّضوا إلى أى تدخل من الخارج. و حينما تم كل شىء على الوجه المطلوب دعا الكولونيل تايلور المستر غروفز، المبشر المعروف، إلى أن يصطحبه و أسرته إلى البصرة حيث يمكن بالالتجاء إلى بيت فى الريف تحاشى العدوى.

على أن المستر غروفز رفض استغلال الفرصة المتاحة له عن تقصد بالغ، و لم ينزل عند رغبة الكولونيل تايلور فى ذلك. و كان الرجل الجليل هذا قد تعهد بالعناية بعدد معين من الأحداث، و هم أطفال بعض الأسر المسيحية فى بغداد، فمنعته دوافع القيام بالواجب من اتخاذ خطوة كانت تعد فى نظره تخليا عن الواجب. فقرر البقاء فى مكانه، و بعد أن وضع ثقته بالعلىّ القدير الذى أنزل البلوى و هو قادر على إنقاذه أو القضاء عليه، أغلق داره التى كانت تحتوى على اثنى عشر شخصا، من بينهم معلم أرمنى و أسرته، و ظل ينتظر النتيجة. و يمكن الحصول على أحسن أخبار هذه الفترة المرعبة من يوميات هذا الرجل الكريم. و على هذا فإننى سأعمد إلى أن

أقتبس منها ما يختص بالطاعون و الغرق من الأخبار خلال ما يأتى من سرد القصة الموجزة عن الحالة فى بغداد.

فقد غادر الكولونيل تايلور بغداد فى الثانى عشر من نيسان. و فى اليوم السابق لذلك علم بأن عدد الموتى قد بلغ حد ألف و مئتين، و فى يوم السفر بالذات تأكد لدى العارفين بأن ألفا و أربعين حادثة موت قد حصلت فى الجانب الشرقى من المدينة وحده. و فى اليوم التالى لذلك علم المستر غروفز بكل ألم و مرارة بأن المرض قد تسرّب إلى الدار المجاورة لداره، التى كان قد تجمع فيها ثلاثون شخصا، و كأنهم قد فعلوا ذلك لغرض تزويده بالضحايا المهيأة لا غير. و فى ذلك اليوم بالذات كانت الوفيات تتراوح بين الألف و الألف رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۰۰

و خمسمئة، و كان معظم من مات فى هذا اليوم فى خارج أسوار المدينة. ثم ازداد عدد الموتى إلى ألف و ثمانمئة. و قد أخذ الهلع و الخوف من الأحياء الباقين مأخذه بحيث كان يندر إقناعهم بالبقاء لدفن موتاهم. و اتخذ الكثيرون الاستعدادات اللازمة للمصير الذى كانوا ينتظرونه بتهيئة الأكفان لهم و لأسرهم، قبل أن يؤدى الطلب المتزايد عليها إلى استهلاك المتيسر منها كله.

و أصبح الماء شحيحا أيضا، لأن كل سقاء كنت تطالبه بالوقوف كان يرد عليك بأنه كان يأخذ حمله من الماء لغسل جثة أحد الموتى. و قد روت بنت أرمنية للمستر غروفز خبرا قالت فيه إنها كانت قد عدت خمسين جثة و هى تنقل للدفن فى فسحة لا تزيد مساحتها على ستمئة ياردة. و لم يكن السكان قادرين على بذل أى نوع من الجهد، لأن الحيرة على ما يبدو قد شلّت أيديهم و أذهلتهم فأفقدتهم رشدهم. فجلسوا فى بيوتهم ينتظرون الموت الذى كان آتيا لا محالة، و كأنهم قد صعقوا مما كان يمر أمامهم، و نادرا ما كان يتخايل أحد فى الشوارع فى هذا الوقت عدا حملة الموتى و الأشخاص الذين كانوا يأخذون الأكفان لهم، و عدا السقائين الذين كانوا يأخذون الماء لغسل الجثث.

و بقى عدد الوفيات ثابتا لا يتغير ما بين السادس عشر و الحادى و العشرين من نيسان، على قدر ما يمكن التأكد منه، و ظل محافظا على مستواه المقارب لألفى وفاة فى اليوم و الواحد. لكن حوادث كثيرة تنفرد بنوع النكبة التى تؤدى إليها كانت تحدث هنا و هناك. فإن أسرة ينتمى إليها أحد طلاب المستر غروفز الصغار قد أصيب أربعة أشخاص من مجموع الستة الذين كانت تتألف منهم- إذ أصيب الوالد و الأم مع أحد الأولاد و إحدى البنات، و لم يبق منهم سوى بنت و ابن فقط. أما كتائب الباشا المعروفة التى كانت تتألف واحدتها من سبعمئة رجل، فإن بعضها قد بلغ عدد الذين أتى عليهم الطاعون حد الخمسمئة. و كانت أخبار المناطق المجاورة للمدينة على أسوأ مما كانت عليه فى داخلها. كما كانت المياه الطاغية فى النهر يعلو مستواها علوا سريعا كذلك، حتى أصبح خطر الغرق العام و شيكا كل يوم.

ففى اليوم الحادى و العشرين من الشهر انبثق الماء من سراديب

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۰۱

المقيمية، و وصل إلى أوطأ من قمة السدود المحيطة بالمدينة بقدم واحد.

و بأمل التمكن من تقديم المساعدة ذهب المستر غروفز إلى المقيمية. لكن المناظر التى شاهدها فى الطريق كانت تبعث فى النفس التألم و الكدر إلى أقصى الحدود، و لم يكن من الممكن مطلقا الحصول على أى نوع من المساعدة للمصابين الذين كانوا يصارعون المرض. فمن الناس من كانت زوجته تعانى سكرات الموت، و منهم من كانت أمه كذلك، و منهم من كان مضطرّا لأن يذهب بنفسه إلى الشط فيحمل الماء منه ليغسل طفلا ميتا. لأن السقاة الاعتياديين انعدم وجودهم، و إذا ما وجد منهم أحد كنت تجده مصحوبا بخادم يسوقه إلى بيت حدثت فيه حادثة وفاة. و قد امتلأت ساحة الجامع بالقبور الحديثة و أخذ الناس يدفنون الموتى فى الشوارع العامة. و يقول المستر غروفز «ان الموت قد أصبح الآن مألوفا بحيث إن الناس صاروا يدفنون أقرب الناس إليهم من دون اكتراث يعتد به، كما لو كانوا يقومون بعمل اعتيادى».

و لم تكن المناظر القريبة أقل من ذلك إثارة للألم و الانزعاج. ففى مقابل شبابيك الدار التى كان يقيم فيها المستر غروفز كانت

هناك دربونة تؤدى إلى ثمانية بيوت، و من هذه البقعة الصغيرة فقط كانوا يشاهدون الجثث تنقل إلى الخارج يوما بعد يوم حتى وصل عددها إلى سبع عشرة جثة. و فى اليوم الثالث و العشرين توفيت أم السيد، صاحب البيت الذى يسكنه المستر غروفز، فى بيتها و لما لم يكن من الممكن الحصول على مساعدة أحد لنقلها إلى مدفنها فى الخارج قبرت فى بيتها من قبل خادمتيها اللتين سرعان ما أتى الموت عليهما من بعدها. و نظرا لعدم وجود أحد له علم بمصيرهما فقد بقيت جثتاهما فى مكانهما، تملأ رائحتهما الجو، حتى نهبت الدار بعد ذلك بمدة و جيزة و كسرهما بابها فأصبح أمرهما معروفا .

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۰۲

و فى هذا اليوم نفسه شوهدت بنت صغيرة عمرها اثنتا عشرة سنة و هى تحمل طفلا بين ذراعيها فى الطريق، و حينما سئلت عنه أجابت بأنها لم تكن تعرف من هو- لقد وجدته فى الطريق و علمت أن والديه قد توفيا. و قد كان عمل الطفلة هذا ضربا من العمل الخيرى الشائع جدا يومذاك، و خاصة بين الإناث من الناس، لكنه كان شيئا مميتا فى كثير من الأحايين. إذ ذكرت امرأة أرمنية جاءت تستعطى شيئا من السكر لطفل التقطته على هذه الشاكلة أن جارتها كانت قد أنقذت طفلين بنفس الطريقة بعد أن وجدتهما متروكين فى قارعة الطريق. فمات الطفلان كلاهما ثم أعقبتهما هى نفسها. و من بين جميع الحوادث المؤلمة المقترنة بالحملات الخيرية التى كان يتولاها المستر غروفز أحيانا عند خروجه من البيت، كان منظر الأطفال العديدين المتروكين على هذه الشاكلة أشد المناظر إيلاما. فقد كان الآباء و الأمهات، حينما يجدون أنفسهم قد أصيبوا بالمرض، يعمدون إلى أخذ أبنائهم المرشحين لليتم و يتركونهم بالقرب من أبواب البيوت المجاورة «إلى رحمة الغرباء فى وقت قضت فيه التعاسة الشخصية على كل إحساس بشرى». كما يقول المستر غروفز. ثم يتابع وصفه قائلا:

«و كان الكثير من الأطفال المتروكين على هذه الشاكلة لا يزيد عمرهم على عشرة أيام. و قد وجدت فى طريقى إلى المقيمية ثمانية أو عشرة من مثل هؤلاء و لم يتيسر أى عون أو أمل انسانى لهم، إلا إذا كان بوسع الذين تركوهم أن يعودوا

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۰۳

إليهم فيسترجعونهم من الطريق بعد أن ييأسوا من عطف الغرباء عليهم. و قد خابت جهودى المخلصة كلها فى إيجاد أى نوع من المساعدة المثمرة لنجدة أولئك الصغار الأبرياء، و كانت أسرتى أيضا ليست فى وضع تستطيع فيه تقديم أية مساعدة لهم حتى لو خاطرت بجلب العدوى إلى بيتى».

و فى الرابع و العشرين من الشهر أدى سقوط أحد جدران المقيمية بسبب المياه المترشحة فى داخلها إلى قيام المستر غروفز بزيارتها مرة أخرى. فلم يصادف فى طريقه إلى هناك و لا نسمة واحدة من الناس فى الشوارع، عدا الذين كانوا يحملون الجثث و الأشخاص المصابين بالطاعون الوبيل. و كانت صرر الملابس، من مخلفات الموتى، ملقاة بالقرب من كثير من الأبواب.

و قد أغلقت ساحة الجامع الكبير، إذ لم يبق فيها مكان لهم. و لذلك كان الناس يحفرون القبور فى جوانب الطرق، و حتى فى الطرق نفسها، و فى كل بقعة فارغة أخرى. و بينما كان المستر غروفز يتحدث إلى الخادم الوحيد الذى بقى حيا من خدم الكولونيل تايلور فى المقيمية تناهى إليه أن عمته، التى كانت ثامن شخص من أقاربه يصاب بالعدوى، قد قضت نحبها مثل غيرها. و مات هذا اليوم كذلك بائع مشهور من باعة قطن الأكفان، بعد أن كان يستغل حلول النكبة و يبيع القطن بأسعار مرتفعة. و لذلك لم يبق فى المدينة شىء من هذه السلعة. و ارتفع سعر الحبال أيضا إلى أربعة أضعاف سعرها الأصلى. و بدلا من أن تدفن الجثث بموجب مراسيم الدفن المعتادة صارت تلقى حتى جثث الموسرين من الناس على ظهور البغال أو الحمير ثم تؤخذ لتدفن فى حفرة من الحفر. و مما يذكره المستر غروفز أنه صادف فى طريقه نساء عربيات كن يقمن بإيماءات غريبة تلفت النظر- و كأنهن كن يخاطبن بها اللّه عز و جل متعجبات من بقاء الإفرنج و الكفار مثله على قيد الحياة، بينما كان يموت ذلك العدد الكبير من المسلمين. فكان تأثير ذلك عليه شيئا مرعبا و مؤلما، خاصة و قد كان فى تلك اللحظة محاطا بالموتى و زمجرة الكلاب التى كانت تنهش بالجثث (حتى قبل أن يسلم أصحابها

الروح أحيانا إلى بارئها)، المختلطة بصراخ الأطفال الملقاة فى قارعة الطريق، الأمر الذى كان يتكوّن منه منظر مفزع فظيع لا يمكن أن ينمحى من ذاكرته.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۰۴

و قد ازداد عدد الوفيات فى هذه الأثناء ازديادا ملحوظا. إذ تأيد فى اليوم السادس و العشرين من الشهر لدى المسؤولين فى السراى بأن عدد الموتى بلغ خمسة آلاف نسمة فى يوم واحد- و لا شك أن العدد قد ازداد بمقدار أربعة آلاف على ما يبدو، و كان هذا من مجموع السكان الذى لم يكن يتجاوز فى ذلك الوقت الخمسين أو الستين ألفا. لأن ثلث السكان على الأقل كانوا قد غادروا المدينة. ثم ارتفع مستوى الماء ارتفاعا مخيفا كذلك، فكان توقع ما يمكن أن يؤدى إليه تدفقه إلى المدينة شيئا فظيعا. على أن جميع ما كان يتوقعه الناس بفظاعته قد تجاوز التحقق فى اليومين التاليين. ففى تلك الليلة تهدمت كتلة كبيرة من السور فاندفع الماء بكل قوته إلى داخل المدينة، و غمر محلة اليهود بسرعة، فتهدمت مئتا دار من دورهم فى الحال. و قد سقط كذلك قسم من سور القلعة، و لم يكن هناك أمل كبير بإمكان بقاء أى بيت أو جدار قائما عند تسرب الماء إليه بالنظر لطبيعة الملاط الذى تبنى به الجدران و قابليته للتفتت. و ما حلت الليلة الثانية حتى كان القسم الأسفل من المدينة بأجمعه تحت الماء، فسقط على ما يقال سبعة آلاف دار مرة واحدة، دافنة بذلك المرضى و الذين كانوا يعانون سكرات الموت و الأموات و الأصحاء فى رمس مشترك. و المقول استنادا إلى مراجع موثوقة أن ما لا- يقل عن خمسة عشر ألف شخص، مريض و غير مريض، أتى عليهم الماء فأغرقهم بلججه فى هذه الحادثة وحدها. و إذا أخذنا بنظر الاعتبار احتشاد السكان فى الأماكن التى كان يمكن الالتجاء إليها من المدينة، و تعذر الهرب على الناس فى الخارج بسبب الطوفان الحاصل، نجد أن هذا العدد ليس مما لا يمكن تصديقه على كل حال. و قد جاء القليلون الذين نجوا من هذه الكوارث بمخلفات أسرهم المحطمة إلى الدور التى بقيت سالمة فى الأجزاء المرتفعة من المدينة و خالية بسبب الهجر أو الطاعون، و بهذه الوسيلة زودوا الوباء الفتاك الذى كان لا يزال مرابطا فى المساكن التى أشغلوها بغذاء جديد. و يعلق المستر غروفز على هذا الحادث بقوله «ليس هناك شىء يمكن أن يعطى فكرة مثيرة حقا عن مقدار تعاسة الأفراد و بؤسهم فى هذه الفترة أكثر من مرور هذه الحادثة المخيفة من دون ملاحظة تذكر، أو جهد يبذل للتفريج عن المصابين بوطأتها، بينما كانت

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۰۵

حادثة مثل هذه إذا وقعت فى أى وقت آخر لا يتردد ذكرها على كل لسان فقط و إنما تبذل أيضا أشد الجهود و أعظمها لمساعدة المتضررين بها».

و قد بلغت صعوبة الحصول على المؤن أشدها فى هذه المرحلة. إذ صار الأشخاص المحترمون جدا يدورون على الأبواب ليستجدوا شيئا من أبسط الضروريات اللازمة للعيش. و كذلك ازداد عدد الموتى المتروكين فى الشوارع إلى درجة مخيفة. و تعذر وجود الوسائل اللازمة لرفع جثثهم و دفنها. و قد شارك فى هذا الوضع الذى وصلت فيه الشدة حدها الأقصى مشاركة تامة عاهل المدينة المبتلاة و سيدها الهمام. إذ أصبح السراى شبيها بمساكن القسم الأعظم من رعاياه- أى كومة من الأنقاض يقبع فيها هو نفسه، و هو على أشد ما يكون من الرعب و الحيرة. و قد صرح لخادم من خدام المستر غروفز بأنه كان لا يعرف أين ينام فيضمن سلامة نفسه. حيث إنه كان يخشى فى كل ليلة أن يدفن بين أنقاض القسم المتبقى من مسكنه. و لذلك بعث يطلب الزورق الباقى لدى المقيمية لعله يستطيع الهرب به من المدينة، لكن نوتيته لم يكن قد بقى منهم على قيد الحياة سوى رجل واحد، و حتى الباشا لم يستطع تأمين الرجال اللازمين لتشغيله. و يقول المستر غروفز فى هذا الشأن «إن الخوف منه لم يعد له أثر بين الناس، و لم يعد لمحبته وجود». فكان حتى فى قصره مجردا عن السلطة، لأن الموت كان يعمل جاهدا فيه كما كان يعمل فى أى مكان آخر، و تضاءلت السلطة التى كانت مطلقة فى أيام الحكم البشرى حتى أصبحت فى حكم العدم تجاه تأثيرات القدرة الإلهية. فمن مجموع المئة گرجى الذين كانوا يقفون فى خدمته لم يبق على قيد الحياة سوى أربعة فقط. و جل ما كان يمكن عمله هو أن يرمى الموتى من الشبابيك إلى النهر لئلا تسرى

عدواهم إلى الأحياء و ليحال دون التأثير على نفسيتهم. ثم تهدمت اصطبلات القصر كما تهدم القصر نفسه، فصارت خيول الباشا جميعها تهيم على وجهها فى الشوارع حيث كان بوسع كل أحد أن يقبض عليها، فبيعت معظمها إلى الأعراب. و لذلك علق المستر غروفز على وضع الباشا يقول «إذا كان الباشا على مثل هذا الحرمان من العون و المساعدة فأى بؤس و شقاء كان لا بد أن يرزح تحتهما الجهمور الأعظم من الناس الذين تركوا ليصارعوا الموت وحدهم».

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۰۶

و فى أثناء هذا الصراع الرهيب مع الموت كانت المناظر المحيطة ببيت المستر غروفز و أسرته على مقدار كبير من الكآبة و العسر، مع كل ما حبتهم به العناية الإلهية من تحاشى المرض الحقيقى و أخطاره. فمن الدربونة الصغيرة المقابلة لهم كانوا قد شهدوا بأم رأسهم خمسة و عشرين جثة تحمل إلى الخارج، و كانوا على علم بوجود عدة أشخاص مرضى فيها. و فى إحدى الدور التى كانت تحتوى على ثمانى أنفس لم يبق سوى شخص واحد على قيد الحياة، و على الشاكلة نفسها لم يبق من الثلاثة عشر شخصا الذين كانت تضمهم دار أخرى بقربها سوى نفر واحد. و لم تكن هذه حوادث فريدة فى بابها بأى حال من الأحوال. فمن مجموع الثمانية عشر خادما و سپاهيا الذين كان الكولونيل تايلور قد تركهم لرعاية المقيمية لم يبق فى نهاية الشهر غير أربعة، و حتى هؤلاء أصيب اثنان منهم بعد ذلك ففارقا الحياة. و كان فى المؤسسة التابعة للمستر غروفز خمسة معلمين للغتين العربية و الأرمنية، فأتى الموت على كل واحد منهم و أزالهم من الوجود. و مع كل هذا السيل الجارف من الموت الذى كان يكتسح الناس زرافات و وحدانا، لم يقلل المرض من ضراوته و لم يتناقص عدد الوفيات اليومية. فقد تجمع السكان الباقون فى بقع أضيق فأضيق من المدينة بتأثير الغرق الذى داهم الكثير من محلاتها، فهيأ ذلك لسهام الطاعون و نباله أهدافا أوضح و مقاتل أسهل نيلا. و لا غرو فإن تدفق السكان من المناطق المغمورة بالماء على البيوت الملوثة من قبل قد هيأ للوباء ضحايا جديدة، فبقيت جثث الموتى و هى تنفث سمومها فى جميع باحات البيوت و فسح المدينة، و تملأ الشوارع فتربك الحالة فيها.

و لم يكن هذا القضاء المخيف على الأرواح البشرية مقتصرا على المدينة وحدها، فإن قافلة كبيرة إلى دمشق كانت قد غادرت بغداد فى بداية أمر الطاعون، لكنها أخذت العدوى المميتة معها و صادفت فى طريقها بالإضافة إلى ذلك عدوا آخر لا يقل عن الطاعون قدرة على الفتك و الدمار، و هو الفيضان. فالتجأت إلى بقعة من الأرض مرتفعة ارتفاعا نسبيا و بقيت محاصرة هناك لمدة أسابيع ثلاثة كان الماء خلالها يضيق الخناق عليها باستمرار و يقلل

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۰۷

عدد أفرادها يوميا، فكان رئيس القافلة «قافلة باشى» فى عداد الموتى منهم.

و قد حاول الكثيرون أن يعودوا فيجربوا حظهم فيعيشوا فى بيوتهم من جديد لكن الزوارق كان يندر الحصول عليها، كما كان القليل الذى يمكن الحصول عليه منها يسام غاليا بحيث لا يستطيع الاستفادة منه إلا القليل منهم.

و على الشاكلة نفسها، خرجت قافلة من بغداد متوجهة إلى همذان فى إيران و هى تتألف من ألفى شخص. فحملت الوباء معها و أدى ذلك إلى موت نصفهم فى الطريق. فكانت هذه القافلة تترك فى كل منزل تنزل به من ستين إلى سبعين جثة ملقاة على الأرض، كما كان عدد غير يسير يموت فى أثناء المسير على ظهور الخيل و البغال أو يقع من فوقها حينما يمرض فيترك ليموت على قارعة الطريق، و تسلب لوازمه من قبل الذين لم تمتد إليهم يد الموت.

و الأنكى حتى من كل ذلك ما كانت عليه حالة الألوف الذين تأخروا بالفرار من الطاعون فأحاطت بهم المياه الفائضة و قضت عليهم. فقد اضطروا إلى التراجع إلى البقع المرتفعة إلى الارض، و ظلوا يرقبون المياه و هى تطغى و ترتفع من حولهم حتى صعدت إلى ارتفاع نصف ياردة فى كل خيمة. و لم يتيسر لهم الطعام و لا الوسائل اللازمة لإشعال أى نوع من النار. و لذلك لم يكن بوسع المريض و لا المعافى أن ينام أو يستلقى، و الأسوأ من هذا أنهم لم يكن لديهم من الوسائل ما يستطيعون به أن يدفنوا الموتى الذين

كانوا يزدادون بينهم. و قد حاول البعض و هو نصف مخبول من اليأس أن يعود فيموت فى بيته، لكن المياه لم تترك له أى سبيل و تعذر الحصول على الزوارق بأى ثمن.

و مما كان يزيد فى حراجة الموقف الذى كان يقف فيه هؤلاء اللاجئون أن الذين كانوا يتوفقون فى الإفلات من حصار الماء كانوا على يقين بأنهم لا بد أن يقعوا فى أيدى اللصوص من الأعراب الذين كانوا يسلبون جميع من يصادفونه، نساء و رجالا، من دون تمييز. و فى أثناء تراكم هذا المقدار الكثير من التعاسة و الشقاء البشرى لم يكن هناك أروع من الهدوء الشبيه بهدوء الموت الذى كان يخيّم على المدينة فى جميع أرجائها. فقد كف الملالى عن الأذان للصلاة، و تخلّى النادبون عن ندب

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۰۸

الموتى. و وصف المستر غروفز ذلك بقوله: «إن البلية ألجمت الناس بحيث كان المرض يستولى على اللب حينما كان يفكر المرء به». و قد كانت أول لمحة من لمحات الفرج فى مضاعفات الألم هذه و معاناته تنطوى فى هبوط مستوى المياه الذى حصل فى بداية أيار. و بعد ذلك بمدة و جيزة جيء بشيء من الرز من الجانب الآخر. و كان محتكرو الحطب الذين استغلوا احتياج السكان المساكين و عوزهم قد وقعوا فرائس للوباء فأصبح الحصول على ما كان عندهم من وقود شيئا ممكنا. ثم تسنى للمساكين التعساء الذين لم يتذوّقوا طعاما مفيدا مدة طويلة من الزمن أن يطبخوا طعاما مناسبا.

و بعد قليل، أى فى الرابع من أيار، ظهرت بوادر التخفيف من وطأة الطاعون نفسه. إذ كانت الأيام التى سبقت ذلك جميلة و سماؤها صافية الأديم، و بشّر ارتفاع الحرارة بالحد من ضراوته. و فى ذلك اليوم نفسه قل عدد الحالات المرضية الجديدة و هبط عدد الوفيات أيضا، بينما تطاولت قائمة المتماثلين إلى الشفاء. «و قد سرّت أنظارنا» على حد قول المستر غروفز «حينما رأينا ثلاثة أو أربعة من السقائين يعودون للعمل و هو أول منظر نشاهده من هذا القبيل خلال عشرة أيام. كما شوهد المزيد من الناس يمرون بالأزقة و الشوارع، و فى هذه الليلة سمعت لأول مرة منذ ثلاثة أسابيع الملالى يؤذنون للصلاة».

و منذ هذا الوقت فصاعدا كانت أخبار المدينة تتحسن بالتدريج. غير أن ما يؤسف له أن المرض الذى لم يتعرّض لبيت المستر غروفز حتى الآن ظهر فيه فى اليوم السابع من أيار، و كما هو معروف تمام المعرفة كان على ذلك الرجل الممتاز و المسيحى المتفانى أن يتحمل المصاب المؤلم بفقد زوجته و طفله. ثم أصيب شخصان آخران هناك فماتا كذلك، و قد كان أحدهما المعلم الذى سبق له أن فقد على هذه الوتيرة من قبل أربعين قريبا من مجموع أربعة و أربعين.

هذا و بوسعنا ان نستمر فى سرد حوادث الموت الكاسحة التى عرف بها سير الطاعون فى هذه الفترة و نتمادى فى ذلك من دون توقف. فقد محيت مئات الأسر عن آخرها، و لم يبق من كثير من الأسر الأخرى التى كان يبلغ

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۰۹

عددها عشرين أو ثلاثين شخصا سوى شخص واحد أو شخصين فقط على قيد الحياة. و ذكر أحد الأرمن للمستر غروفز أن سكان المئة و الثلاثين دارا التى كانت تتكوّن منها محلته لم يبق منهم حيّ سوى سبعة و عشرين شخصا فقط.

كما أخبر ابن الملا المتصل بالمستر غروفز أن المحلة التى يقيم فيها هو لم يبق فيها حيّ و لا شخص واحد، فقد ماتوا كلهم. أما السيد إبراهيم، الخادم الوحيد الذى بقى على قيد الحياة من خدام الكولونيل تايلور، فلم يسلم من أسرته البالغ عددها أربعة عشر شخصا سواه هو وحده. و من حوادث الوفيات الفريدة فى بابها، التى حصلت فى جهات الباشوية الأخرى، يمكن أن أذكر أن الحلة لم يكد يبقى فيها أحد من الناس بسبب الطاعون، بعد أن كان عدد نفوسها قبل الطاعون يناهز العشرة آلاف نسمة. و يبدو مما استطعت أن أحصل عليه من الأخبار، و مما يرتأيه المستر غروفز، أنه من المحتمل جدا أن يكون الطاعون قد أتى على ثلثى السكان كلهم فى بغداد، و أن عدد الذين وقعوا فريسة لهذا المرض لم يكن أقل من مئة ألف نسمة إذا لم يكن أكثر. و لا شك أن عدد الوفيات قد ازداد بصدفة الفيضان المؤسفة، فقد وقع أولا- فى الريف فحال دون هروب الناس من الطاعون و حاصر القسم الأعظم منهم ما بين الأسوار. ثم

تسرّبت المياه إلى المدينة نفسها و عند ذلك لم تغرق الألوف من الناس أو تدفن فى خرائب البيوت فقط و إنما احتشد من بقى على قيد الحياة

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۱۰

منهم فى مساحة ضيقة فوق البقع الجافة من الأرض، و اضطروا على اللجوء إلى البيوت الملوثة بجماعات يتراوح عدد أفراد كل منها بين العشرين و الثلاثين، و هم محاطون بالفساد و التفسخ، و محرومون من الملابس و المؤونة، أو وسائل إشعال النار. و قد كان تراكم الجثث غير المدفونة كذلك مؤديا إلى تفاقم التأثيرات الناجمة عن تفشى الطاعون، بتلويث الجو و جعله أشد إيذاء و إهلاكا للنفوس .

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۱۱

و مع هذا، فحتى فى حالة عدم وجود مثل هذا الاتفاق فى الأسباب

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۱۲

المؤسفة كان لا بد لوباء مثل هذا أن يحدث فى أية مدينة شرقية أخرى تأثيره المعروف الذى لا يمكن أن يحصل فى المدن الأوربية، فى أيامنا هذه على الأقل، بوجود قوة نظامية من الشرطة. فإن فائدة حجر الناس و عزل البيوت عن العدوى أصبحت حقيقة لا جدال فيها. إذ من النادر أن يصاب أحد من الأوربيين فى استانبول أو غيرها حينما تتخذ مثل هذه الحيطة. و لو كان من الممكن إقناع الأهلين هنا باتخاذ تدابير و إجراءات مماثلة لكان من الميسور لتأثيرات هذا المرض المميتة، و ربما لمدة بقائه أيضا، أن تتناقص على وجه التأكيد.

و قد تكلمت بإسهاب عن الطاعون فى بغداد على الأخص، لأن تأثيراته ازداد وقعها فيها أكثر من أى مكان آخر نظرا لما شاهدته بنفسى منها. غير أنه من النادر أن تجد مدينة من المدن الإيرانية لم يحصل فيها مثل ما حصل هنا، باستثناء ما حصل من الغرق و فيضان المياه. فقد فقدت كرمنشاه و همذان و كردستان كلها نسبة أكبر من سكانها، و كذلك فعلت مازندران و أستراباد. كما هبط عدد النفوس فى منطقة گيلان كلها إلى خمس العدد الأصلى- و يدّعى الأهلون أن هذا الهبوط فى عدد النفوس وصل إلى حد العشر فيها و أقفرت رشت فخلت من سكانها بالكلية، و كذلك فعلت لاهيجان و فومن و تيريگورام و ما أشبه. تصوّروا هذا الاكتساح الرهيب للحياة البشرية، و هذا المقدار الهائل من العذاب و المعاناة، أنه يعزى فى الدرجة الأولى إلى الجهل و سوء الإدارة! و فكروا بنعم المدينة و بركاتها- فبجهاز حكومى منتظم، و إجراءات مستمدة من الإدراك و الخبرة، يمكن بعون اللّه و تقديره التخفيف من وطأة هذا الوباء المخيف وحدته، إذا لم يمكن تحاشيه بالكلية.

أما بالنسبة لبغداد نفسها، فقد فر الطاعون منها فى الأخير أمام حرارة

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۱۳

الصيف المتزايدة. فبحلول اليوم السادس و العشرين من الشهر انقطع ظهور الإصابات فيها. ففتح المستر غروفز بيته بعد ذلك فى الحال، و خرج القلائل من السكان الباقين على قيد الحياة من البيوت ليتفرجوا على حطام مدينتهم المهيضة الجناح. و قد كان المنظر يبعث فى النفس قدرا كبيرا من الكآبة و انقباض النفس. فلم يبق قائما من بنايات بغداد كلها سوى مجموعة صغيرة على ضفاف النهر حيث كان مستوى الأرض مرتفعا، و جامع واحد أو جامعين كانت جدرانهما و أسسهما قد شيّدت بمزيد من المتانة منذ البداية. و حتى البنايات التى بقيت قائمة بعد كل ما حدث يندر أن توجد واحدة منها لم يحصل فيها شىء من التصدع أو التخريب. و قد استمر سقوط الدور و تداعى الجدران حتى بعد هبوط منسوب المياه فى النهر، بالتأثير الذى أحدثه الماء فى مواد البناء و الانخساف الذى أخذ يحصل فى الأرض. و فيما وراء هذه المجموعة من الأبنية كان يمتد إلى جميع الجهات فضاء خال يصل إلى الأسوار نفسها، و يتسم ببقايا الجدران المهدمة و خرائب الدور التى يتكون منها ما يزيد على ثلثى المدينة. و كانت توجد هنا و هناك بحيرات كبيرة تخلفت فى البقع المنخفضة من الأرض بعد انحسار المياه الفائضة. و من بين خطوط الأسواق الطويلة، أصاب الخراب العام عددا غير يسير منها، و

قد مرت مدة طويلة قبل عودة الأسواق التى بقيت غير مهدمة إلى الامتلاء، و الدكاكين إلى فتح أبوابها من جديد بمقدار يعتد به. فإن معظم التجار، و جميع الصناع و أرباب الحرف تقريبا، قد أتى عليهم الموت فأزالهم من الوجود. و إنك فى هذا اليوم لو أردت أن تحصل على بعض الحاجيات المصنوعة، التى كانت تشتهر بصناعتها هذه البلاد، يقال لك «آه»، إن ذلك لا يمكن الحصول عليه الآن لأن جميع من كانوا مختصين بصنعه قد ماتوا». و لذلك فقد انمحت من هنا صنعات معروفة بأكملها، و مر وقت غير يسير قبل أن يصبح من الميسور للسكان الباقين على قيد الحياة الحصول على ضروریاتهم الاعتيادية، كالأغذية و الملابس.

و بعد ذلك جاءت المجاعة الشريرة تكشر عن أنيابها فقضت على قسم من الأحياء الذين بقوا فى المدينة بعد الطاعون، لكننى سوف لا أتطرق إليها بشيء. على أن خراب القرى المحيطة بالمدينة، و تأثيرات الحرب و ما سببه

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۱۴

الجشع الإنسانى من حمل سكان المناطق المجاورة على الالتجاء إلى البلدة، كان من شأنه أن يكسو هيكل بغداد الخاوى بمقدار من السكان الذين كانوا، على قلة عددهم بالنسبة لما كانوا عليه من قبل، كافين ليصبحوا أهدافا جديدة لهجمتين جديدتين من هجمات الطاعون و يقدموا لهما خمسة آلاف ضحية فى الأولى و سبعة آلاف فى الثانية . و كان السبب فى وافدة الطاعون الأخيرة التى انتهى أمرها فى شهر أيار الأخير طمع حاكمها الحالى الذى بدلا من أن يمنع كل اتصال ممكن مع كرمنشاه لتفشى الطاعون فيها فى مثل هذا الوقت، عرّض المدينة لوافدة و بائية كان يمكن أن تضاهى وافدة ۱۸۳۱ م بفظاعتها، برغم تحذير المقيم البريطانى و تذكيره بالعواقب الوخيمة، لأنه كان يطمع بالإتاوة التى يقبضها من الزوار الإيرانيين. و سواء أكانت طبيعة الوباء نفسها على جانب أقل من الضراوة فى هذه المرة، أم كان الغذاء المتوافر لها قد تناقص مقداره، لأن التربة التى ينهكها الحاصل الزراعى يندر أن تغل فى أعقابه حاصلا وفيرا آخر، فقد كانت الوفيات فى هذه المرة أقل من وفيات الطاعون الأول بكثير. و من أسباب هذا الفرق المقترن بالحظ تيسر الحرية للناس فى الهرب إلى الخارج هذه المرة عند أول ظهور المرض. لأنهم لم يصادفوا أية معارضة لا من الإنسان و لا من المياه الفائضة عند خروجهم، فاستغلوا هذه الحرية إلى أقصى حدودها. و لذلك هربت مناطق و جماعات بأسرها إلى الخارج، مع جميع متاعها، عند أول ظهور المرض. فخرج اليهود كلهم على الأخص، و كان من نصيب الخارجين جميعهم أن شملتهم العناية الإلهية برعايتها فلم يمسسهم ضرر. أما فى حادثة الطاعون الأولى فإن الباشا نفسه كان قد تدخل فى الأمر و منع الناس من الحركة بأمل الحيلولة دون ما حصل من انتشار الذعر و الهلع بين جميع طبقات الناس عند أول ظهور الوباء فى المدينة، ثم جاء الفيضان بعد ذلك فحاصرهم حصارا تاما. و قد بذلت نفس المحاولة فى البصرة كذلك، حيث أغلقت أبواب المدينة فكانت عواقب ذلك شيئا على

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۱۵

أشد ما يكون من الرزء و النكبة. لأن الخوف و الهلع قد أديا إلى اشتداد أمر الوباء على السكان المحاصرين فى الداخل، فتجاوزت الوفيات ما حصل منها ببغداد نسبيا. و كان من بين الضحايا الحاكم المخطىء نفسه الذى ذاق جزاء ما صنعت يداه.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۱۷

(۶) [الرسالة السادسة]

عواقب الطاعون السياسية- سخط الباب العالى على الباشا- القبوجيون و الفرامين- قتل صادق أفندى بأمر من الباشا- تخوّف الباشا- تعيين على باشا لبغداد- محاصرة المدينة- الباشا يسلّم نفسه- تسليم المدينة بطريقة الخيانة- ارسال داود إلى استانبول- الإجراءات التى اتخذها على باشا- قتل المماليك الكرج- طبيعة حكومة على باشا.

لم تكن عواقب الوباء السياسية أقل أهمية من تأثيراته المهلكة على السكان، و من الممكن أن يقال إنها كانت شيئا قاضيا على پاشوية بغداد. فقد ذكرت قبل هذا أن داود باشا قد أصيب بكراهية الباب العالى له. لأن روحية الاستقلال الخطرة و التشامخ اللذين كان

يبديهما قد أيقظا فى السلطان الخشية و الحسد منذ أمد طويل، فحملاه على أن يعتزم القضاء على داود عند سنوح أول فرصة مناسبة لذلك. لكن الذنب المباشر الذى أثار السخط عليه فى هذا الوقت بالذات لم يكن سوى قتل الموظف الملكى الذى كان قد أوفد من الباب العالى بمهمة رسمية إلى الباشا. و لا ينكر أن الغرض من هذه المهمة كان تدميره هو- و ربما موته، لكن العمل الذى اقترفه كان شيئا لا يقل عن القتل و الخيانة إزاء سيده السلطان. لأن الأصول الرسمية فى تركيا كانت تقضى أن يقابل الرسول، الذى يبعث به جلالته لتقديم الخلعة أو تدبير القتل، بنفس الاحترام و التقدير و كان من واجبات الوظيفة كذلك أن يحنى الموظف رأسه بنفس المقدار من التقبل فى كلتا الحالتين.

على أن هذا الإتقان للخضوع لا يمكن أن يتم ما لم يكن للرئيس الأعلى القدم المعلى فى السلطة، و لا بد أن ينقطع حينما تكون سلطته قد تضاءلت و قل شأنها. و هذا ما حدث بالذات للسلاطين فى هذه الأيام التى اختلت فيها

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۱۸

الأمور، فقد أصبح من أسلوب الباشوات أن تهمل حتى أبسط أوامر السلطان و أسهلها تقبلا و أن تعامل بمقت و ازدراء على الرغم من مظاهر الاحترام التى تقابل بها. و مع هذا فقد كانت العادة أن يحافظ الجميع على المظاهر، لأنه كان لا يزال هناك فى أنحاء الامبراطورية كلها شعور مستديم بتوقير اسم السلطان و سلطته، حينما يذكر على الملأ، بحيث يندر أن يجرؤ أى رئيس أو باشا مهما كان قويا على انتهاك حرمته. و على هذا فحينما كان يعلم أن قبوچيا أو رسولا قد توجه لأداء إحدى المهمات تتخذ الإجراءات لاستقباله تبعا لطبيعة مهمته التى يخبر الباشا بالغرض منها قبل أن يصل الوفد بمدة طويلة، من قبل صديق أجير موجود فى الباب العالى عادة. و حينما تكون المهمة فى صالحه يكون استقبال الرسول وديا مفعما بالتكريم، أما إذا كان الأمر على العكس من ذلك فتتخذ التدابير عادة لتأخير وصوله حتى تسنح الفرصة المناسبة لتنحيته عن مهمته- فيدبر أمر وقوع حادث عرضى له فى الغالب، و لا يعد هذا شيئا صعبا فى بلاد تكثر فيها العصابات و العشائر السلابة.

و إذ يكون القبوچيون أنفسهم على علم تام بالخطر الذى يتعرضون له من جراء مهماتهم، يعمدون إلى اتخاذ الاستعدادات الخاصة بهم فينشأ عن ذلك كله عرض منتظم للمناورات التى تصدر من الطرفين. فيحاول الباشا تحاشى النزال و التصادم، بينما يبذل القبوچى كل جهد للوصول إلى مجلس الباشا.

لأنه ما إن يكون هناك حتى يكون الاحترام لفرمان السلطان، الذى لا يزال التمسك به قويّا كما ذكرت من قبل، و يستطيع تقديم أوراق اعتماده إلى الباشا حتى إذا كان محاطا بحرسه، فإن الحرس أنفسهم سيساعدونه على تنفيذ ما جاء من أجله. لكن هذه المحاولة تكون محفوفة بالخطر لأن الفشل فيها يؤدى فى الغالب إلى هلاك القبوچى الذى يعد بناء على هذا نوعين من الفرامين عادة.

فإذا وجد الباشا قويا بحيث يصعب تحديه، و خطره عظيما بمقتضى ذلك،

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۱۹

يصدر أمرا بالتنصيب و الخلعة على سبيل الحيلة حتى تسنح فرصة ملائمة لتنفيذ إرادة سيده الأصلية.

و كان داود باشا قد تمتع بالوزارة مدة سبع عشرة سنة ، و استخدم وقته ذلك كله بكد و اجتهاد فى توطيد سطوته و ترسيخ أقدامه. فكان عنده جيش كامل قوامه ثلاثون ألف خيال و راجل، و كان خمسة أو ستة آلاف منهم على درجة غير يسيرة من الضبط و الانتظام و مجهزين بمدفعية فعالة. كما كانت وارداته من الباشوية كثيرة جدا على ما يعرف، و مع ذلك فإنه خلال هذا الوقت كله لم يقدم إلا القليل منها إلى خزينة السلطان. و لذلك كانت حكومة استانبول بطبيعة الحال تعتبر ان داود باشا كان يتبع خطوات محمد على باشا فى مصر، و يستهدف جعل نفسه مستقلا عنها. فقررت خلعه، و أوفدت رسولا يسمى دانش أفندى ليحاول تنفيذ هذا القرار، بينما نجحت دسائس على الذى كان يشغل باشوية حلب يومذاك فى أن يحصل لنفسه على الترشيح للشاغر المؤمل حصوله ببغداد.

و مهما كانت الشكوك التى كانت تساور داود باشا، و ضروب التحوط السرية التى اتخذها، يبدو أنه لم يكن مستعدا تمام الاستعداد

للضربة المنتظرة حينما حان أوانها. فقد نجح دانش أفندى فى الوصول إلى بغداد، و كانت الترتيبات التى أعدها للباشا ترتيبات استطاعت تضليله بالنسبة لطبيعة ما كان عنده من تعليمات و أوامر. غير أن القبوجى، لما كان شاعرا بالخطر الذى كان يكتنف موقفه فى بغداد، و نظرا أنه كان عديم الثقة بأحد كما هو شأن الغدارين جميعهم، رفض أن تكون إقامته فى السراى لاعتقاده بأنه سيصبح تحت رحمة الباشا فيه. و لذلك جعلت إقامته فى دار موظف من الموظفين الذين كانوا يتمتعون بثقة الباشا التامة يسمى محمد أفندى، و يعرف أو يشتهر بلقب «مصرف».

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۲۰

ثم أخذ فى الوقت نفسه يفتش من حوله عن آلات مسخرة يستعين بها على تنفيذ مهمته الخطرة، فوقع اختياره على موظف آخر من الموظفين الذين يضع فيهم الباشا جل اعتماده و هو المير آخور أو «رئيس الخلية»- فكان هذا رجلا يتحلّى بمواهب غير قليلة. فأفضى إليه بأمر السلطان، و عرض عليه فى الوقت نفسه أن ينصبه هو فى الباشوية بشرط أن يكون ملزما بمساعدته فى قتل سيّده الباشا، لكن المير آخور، على كونه من أصحاب المواهب و القابليات، لم تحمل أعصابه تلك المهمة الخطرة التى كلّف بها بهذه الطريقة. على أننا دعنا نأمل كذلك أن تكون للتقدير الخالص لسيد لطيف متسامح حصة فى تعيين الموقف الذى اتخذه. فأخبر السيد «المصرف» بالأمر، و ذهبا معا إلى الباشا فأخبراه بالطبيعة الأصلية للمهمة التى جاء بها القبوجى .

أما الباشا الذى كانت شجاعته الأدبية على ما يبدو لا تساوى قابلياته الأخرى، فقد ارتبك للخبر و تبين أنه غير قادر على اتخاذ قرار ما حول السبيل الذى كان يترتب عليه أن يسلكه. لكن الأمر كان أخطر من أن يقابل بالتلكؤ و التباطؤ. و ما كان من مشاوريه المذكورين إلا أن يقولا له «لا بد أن نقضى على القبوجى، و إلا فسيقضى هو علينا و علينا. و إذا كنت تشك فى مهمته فإنك مقضىّ عليك لا محالة. إن هذا هو وقتك فاغتنم الفرصة فيه» .. و إذا

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۲۱

كان الباشا مرتبكا و متحيرا بالكلية، و غير قادر على إيجاد طريق يسلكه، فقد حمل على أن يصادق على الإجراء الذى اقترحه عليه محمد مصرف و المير آخور بدلا من أن يأمر به من عنده. فترك هذان الرجلان حضرته و توجها لتوّهما إلى حيث كان يقيم القبوجى بعد أن اصطحبا معهما «چاووشا» ضخم الجثة. أما الرجل، الذى كان قد أوى إلى مضجعه لينام، فقد تخوّف بطبيعة الحال من الطريقة الخالية من المجاملة التى أوقظ بها من نومه، و بصوت يعبر تعبيرا كافيا عما كان يساوره من خوف و فزع سألهما عما يريدانه. ثم أضاف قائلا إنه يرجو أن لا تكون زيارتهما له فى مثل ذلك الوقت منطوية على شىء من الأذى. فرد عليه السيد المصرف بقوله «إن هذا ما ستعرفه فى الحال، و إن اللّه جة التى وجدت من المناسب أن تقابلنى بها يوم أمس ، سوف ترد عليك هذه الليلة». و إذ كان البائس المسكين قد استولى عليه الخوف تمام الاستيلاء، فقد التجأ على ما يقال إلى أخس أنواع التضرع و التوسل، لكن السيد المصرف دعا إلى الدخول «الچاووش» الضخم الذى كان يحل الشال من محزمه بهدوء فألقى بلفة من شاله هذا حول عنق القبوچى و قضى بسرعة على حياته و توسلاته معا .

و مما يدل على أن الذين اقترفوا جريمة القتل النكراء هذه كانوا أبعد ما

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۲۲

يكون عن الارتياح من النتائج التى ستترتب عليها أنهم، لأجل أن يزيلوا الشك و يسكنوا ضجة الناس التى أثيرت بهذه المناسبة، أطافوا بشخص أريد به أن يمثل القبوجى مرة أو مرتين فى الشوارع بعد أن ألبس ملابسه الخاصة. لكن إشاعات اغتياله تمادى الناس فى تصديقها حتى وصلت إلى مسامع المقيم الكولونيل تايلور، الذى ألقى تبعة الجريمة على عاتق الباشا نفسه و صور له عواقبها المحتملة بألوان بارزة. على أن الباشا حاول أن يورى و يورّب بادىء ذى بدء، لكن زمجرة العاصفة من بعيد التى كانت تتجمع غيومها فى استانبول سرعان ما أدت ليس إلى اعتراف سموه فقط بل إلى طلب المشورة و المساعدة بصورة جدية أيضا. و لاعتبارت سياسية، و

قناعة بأن الباشا كان مجبرا على اقتراف جريمة يشيع اقترافها فى البلاطات الشرقية أو فوجىء باقترافها من قبل فاعليها الأصليين، اقتنع المقيم بأن يعرض الأمر على المسؤولين فى استانبول بصورة يدافع فيها عنه. و هناك قليل من الشك بأن القضية كانت، مع شىء من التنازل من جانب الباشا، ستنتهى فى صالحه هو- و عند ذاك كان المقيم سيحصل على نفوذ ممتاز لدى الباشا و مفيد جدا للباشوية نفسها- لو لا أن تحل بالبلاد النكبة التى أتيت على وصفها من قبل فتؤدى إلى حصول تبدل سياسى و طبيعى فى شكل الأشياء العامة كلها، و حدوث ثورة كلية فى مصائر الباشوية و تبديل حكامها.

فقد أفنى الطاعون قوة داود باشا العسكرية بالكلية. و لأجل ان يكون بوسعنا تكوين فكرة عن التدمير التام الذى أصاب جيشه العتيد يجدر بنا أن نذكر أن قطعة عسكرية عدتها ألف رجل و مدربة تدريبا عسكريّا على النسق البريطانى، لأن الكولونيل تايلور نفسه كان يقودها فى يوم من الأيام، لم يبق منها على قيد الحياة سوى رجل واحد. و قد ترك الباشا بالفعل لوحده فى دار

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۲۳

كان قد اضطر للالتجاء إليها حينما تهدم قصره، و من هناك، كما سيتبين فيما بعد، تسلمه رجل يدعى صالح بك كان يمت بصلة الدم إلى بعض الباشوات السابقين، و تخامره فكرة الحصول على الباشوية لنفسه يومذاك.

و ما إن خفت و طأة الطاعون و أدبر شره حتى تقدم أنصار على باشا نحو بغداد لانتزاع باشويتها له. و كان على باشا حلب، قد نصبه الباب العالى لها و أمّن على مساعدة باشا الموصل قاسم أغا له كما يعتقد. و كان الأنصار يتألفون من الشيخ صفوك شيخ شمر الجربا، و سليمان غنام الرجل المغامر المتصف ببعض القابليات، الذى استطاع أن يجمع لفيفا من الغوغاء و يجعلهم من أتباعه. غير أن سكان المدينة، على ما يظهر، لم يكونوا ميالين للترحيب به فرابط الحلفاء حول المدينة التى حاولوا كسبها بالقتال من جهة و المفاوضة من جهة أخرى، و بالخيانة كما تبين فيما بعد من جهة ثالثة. و قد تبين كذلك أن البعض من هؤلاء المتحالفين على الأقل كان يلعب أدوارا مزدوجة، يدس فيها مع داود و ربما مع صالح بك أيضا بينما يتظاهر بكونه يتفانى من أجل على.

و بهذه الاتجاهات المتضاربة دخل الأشخاص الثلاثة، الذين ذكرت أسماؤهم، إلى المدينة التى ادّعى قاسم باشا فيها أنه كهية على باشا. غير أن السكان وقفوا فى وجههم و أجبر الشيخ صفوك و سليمان غنام على أن يلوذا بالفرار، و كان فرار الشيخ صفوك من دار تقع على النهر الذى عبره سباحة إلى الجانب الآخر.

ثم قبض على الآخرين، و حينما تخلى عن قاسم باشم حرسه الخاص اقتاده أحمد أغا التفنگچى باشى العائد لداود إلى بئر قريبة و ألقاه فيها .

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۲۴

على أن هذه الإجراءات المتصفة بالعنف كان من شأنها أن تعزز صداقة صفوك و سليمان غنام لعلى. فحاصروا المدينة لمدة ثلاثة أشهر، و صار مدفع الباشا الجديد الذى وصل إلى معسكره فى هذه الأثناء يقصف المدينة من جميع الجهات. و أخيرا، نفد صبر الأهلين و بادر شخص من التجار كان يدعى الحاج خليل إلى الاتصال بعلى الذى سمح لقواته فى إحدى الليالى بالدخول إلى المدينة عن طريق الباب الجنوبية.

و فى أثناء هذه الإجراءات كلها كان داود المنكود الحظ، و هو يعانى ما يعانى من تأثيرات الطاعون الذى أصيب به فنجا منه بأعجوبة، بعد أن تخلى عنه جميع من بقى من أهله و رجاله و حتى نسائه عدا اثنتين منهن تمسكتا به إلى النهاية- يقبع مختفيا فى دار رجل بغدادى يعرف بلقب قره بيبر و كان قد فرّ ملتجئا إليها بعد أن تهدم قصره كما تمت الإشارة إليه من قبل. و قد كان قبل

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۲۵

ذلك الوقت يعيش فى الدرجة الأولى على خدمات رجل يدعى سيد هندى، كان فى يوم من الأيام من أصحاب الزوارق (بلام) لكنه أصبح فى الأيام الأخيرة من اللائذين المفيدين بالمقيمية البريطانية. إذ كان هذا الرجل يجلب يوما إلى سمو الباشا و جبة واحدة من

الرز و يأخذ لقاءها قطعة من النقود عادة.

و هكذا كان سيد الثلاثين ألف جندى السابق يعتاش فى أيام محنته و إهماله على يد رجل فقير من أصحاب الزوارق، و أصبح الآن مدينا بحياته و القيام بأوده خلال العذاب و المرض لشخص متواضع من أصحاب الدكاكين.

على أن مكان اختفاء داود قد أصبح معروفا لدى صالح بك، الذى شاع فى بغداد أنه كان يطمح بكرسى الوزارة نفسه، فبعث أناسا يأتون بالباشا المعزول إلى حضرته، غير أن صاحب البيت و النساء اقترحوا على الباشا، و هم يتخوفون من عواقب تسليمه، أن يفر هاربا من باب فى الدار تطل على شارع آخر و عرضوا عليه مساعدتهم فى هذا الشأن كذلك. لكن الحياة و قد طالت مرارتها عليه بتأثير المعاناة الشخصية و الشعور بالخسارة الجسيمة و ضرورة التخفى المستمر، قد أصبحت فى نظر داود المنحوس الطالع عديمة القيمة بحيث لا تستحق أى مقدار آخر من النضال و المقاومة. فرد المقترح بقوله:

«كلا، إن المقاومة أو الهرب قد فات أوانهما، و سأذهب إلى أى مكان أدعى إليه و إلى أى مصير يكون». فأركب على حصان لأنه لم يكن يقوى على السير، و أخذ إلى دار صالح بك التى يشغلها الآن المقيم البريطانى و أقيم فيها أنا

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۲۶

ضيفا عليه فى الوقت الحاضر. و هناك استقبل باحترام و تقدير لكن مضيفه، أو بالأحرى آسره، سرعان ما أطلعه على محاولته التى يقصد بها أخذ الباشوية إليه هو نفسه و طلب منه أن يساعده فى ذلك. و بهذا يستطيع القارىء أن يحصل على فكرة حسنة عن عقلية داود و ملكته فى الإقناع، حيث إن المؤتمر الذى بدأ بشكل يهدد مصلحة الباشا السابق و يعمل ضدها قد انتهى بترتيب يوافق فيه صالح بك على إعادة داود إلى الوزارة و قيامه هو بإشغال منصب الكهية فى معيته.

لكن هذه الترتيبات كلها قضت عليها خيانة الحاج خليل. فقد أصبح على الآن سيد المدينة. إذ احتلها جنده لكنه لم يجد من يعتمد عليه فيها. و لذلك بعث بإحضار داود باشا إليه فى الحال، و استقبله بكل ما يمكن من المجاملة قائلا له بأن يأمن على حياته، لكنه طلب إليه أن يشد الرحال إلى استانبول التى ستكون حياته مضمونة فيها كذلك. ثم أخبر الباشا الهابط من عليائه بأنه حر فى أن يأخذ ما يريد من ثروته و ممتلكاته، و يقابل من يشاء ممن بقى على قيد الحياة من أسرته. و مما لا شك فيه إن هذا الرفق تجاه خصمه الأخير كان متفقا مع الأوامر التى تلقاها على باشا فى استانبول، لكننا علينا أن لا ننكر ما له من الفضل فى هذا الشأن. فقد كان بوسعه ان ينفذ هذه الأوامر بشىء أقل من المجاملة- و كان بوسعه كذلك، حتى من دون أن يورط نفسه بشىء، أن يجعل تلك الأوامر غير نافذة المفعول، إلا فيما يختص بحياة داود نفسها. لكنه أبدى

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۲۷

كل ما كان عنده من رفق فحمل داود معه بلا شك مقدارا غير يسير من ثروته التى كان من الممكن لعلى أن يستولى عليها لنفسه باتباع طريقة أخرى. على أنها كانت شيئا قليلا من الناحية النسبية، و ربما كانت تضحية سياسية منه. فإن اللعبة التى كان عليه أن يلعبها يومذاك كانت تنطوى بالتأكيد على المصالحة و التساهل- لأن المصادرات التى أجراها من بعد ذلك كانت تكفى لتعويضه عما فاته فى هذا الشأن.

و لما تربع على دست الحكم بهذه الطريقة اتخذ على لنفسه أسلوب المصالحة و التوفيق كما قلت، لكن غرضه الأول كان ينطوى على تنحية جميع المعروفين من أنصار الباشا الأخير عن الميدان. فالتجأ فى تنفيذ ذلك من دون تورع إلى الطريقة الشرقية الاعتيادية، و هى طريقة الغدر و الاغتيال الناجحة باستمرار على ما فيها من اختلاف و تفاوت فى الشكل و التطبيق، و برغم كل الخبرة التى تنطوى عليها و الحسد الذى تثيره الاستعانة بها. و كان عدد من الكرج، الذين ظلوا على قيد الحياة و عملوا فى قوة الحرس، أو كانوا ضباطا و موظفين فى معية داود باشا، قد توقعوا هبوب العاصفة التى استهدفت رفاقهم بعد ذلك ففروا هاربين من المدينة. لكن عددا يناهز الثمانية عشر أو العشرين منهم ظل مقيما فى مكانه، و من جملتهم صالح بك الطامع الأخير بالباشوية.

فدعى هؤلاء فى يوم من الأيام معا بحجة الاستماع لقراءة الفرمان الصادر بإعفائهم الذى وصل مؤخرا من استانبول على ما قيل. و قد حضر كلهم تقريبا إلى ديوان الباشا، ما عدا صالح بك نفسه الذى كان إما مريضا أو مرتابا من الدعوة فابتعد عن الحضور. فقوبلوا بأقصى ما يمكن من المجاملة، و تناولوا

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۲۸

القهوة و الچبوق، و بينما كان الفرمان على و شك أن يقرأ دعى الباشا لتناول الفطور فى الخارج، فكان ذلك بمثابة إشارة للبدء بالمجزرة. إذ قام رجل يدعى على أغا و دعا لفيفا من الأرناؤوط الذين كانوا قد أعدّوا لهذا العمل.

على ان هؤلاء ظلوا ساكنين مترددين، لأنهم كانوا حسب ما يظهر غير راغبين فى هذا العمل أو أن طبيعة هذه الخدمة قد أفزعتهم. فصرخ بهم على أغا يقول: «ما بالكم؟»، «لماذا تترددون؟ اضربوا- فإما أن تقتلوهم أو تقتلون أنتم»، ثم انتضى سيفه هو نفسه فضرب الگرجى الذى كان يجلس بجانبه.

و حينما كان المساكين يهمون بالوقوف و يسلون سيوفهم، بعد أن أدركوا فى وقت متأخر طبيعة الدعوة و الأمر، ألقى على أغا بنفسه على الرجل الذى كان قد جرحه قبل أن يتمكن من سل سلاحه، و بادر الأرناؤوط فى اللحظة نفسها إلى اطلاق النار من مسدساتهم و انقضوا على الذين لم تصبهم الطلقات. و قد كان النزال قصير الأمد، فقتل الگرج كلهم، و منهم من قتل فى مكانه و منهم من قتل فى أثناء هروبه بعد أن أبدوا مقاومة عنيفة. و هكذا تخلّص على باشا من آخر غلمان داود.

و يكاد يبدو من الغريب الذى لا يصدق تقريبا أن رجالا فى مثل منزلتهم لا يستطيعون أن يتكهنوا بوقوع محاولة مثل هذه، فيبادروا إلى الفرار و النجاة بأنفسهم كلهم. لكننا يجب أن نتذكر أولا أن الهرب إلى بلاد بعيدة معادية له أخطاره و محاذيره، و يبدو من الوجهة الثانية ان تدابير غير اعتيادية كثيرة قد اتخذت لتضليل الضحايا فى هذا الشأن. و من الممكن ان يذكر هنا، على سبيل الحكم على مقدار الغدر و الخيانة المنطويين فى هذا العمل، إن أول شخص ضرب فى مشهد الدم هذا هو رجل كان قد هرب من خدمة داود و التحق بعلى باشا فى حلب ثم رافقه من هناك بصفة كونه كهية للباشا الجديد، و قد حضر إلى ديوان الباشا بهذه الصفة- هذه هى أمانة العثمانيين، و جزاء الخدمة فى تركيا!

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۲۹

و لم يستقم هرب صالح بك مدة طويلة من الزمن. فإنه بطريقة مماثلة قد جرى تضليله بسيل من الألطاف و الإنعامات، فكان يمشى فى حلم من الأمانة الوهمية الخداعة حتى حدث ذات يوم، بينما كان يمر فى طريقه من مكتب الكهية إلى غرفة الباشا الذى دعى للمثول بين يديه، أن قبض عليه فجأة فى الممر الضيق و سحب جانبا فأزهقت روحه خنقا .

و من الغضاضة أن أعمد هنا إلى أن آتى بالتفصيل على وصف السلسلة المتلاحقة من أعمال الغدر و الجريمة و الجشع التى أعقبت هذه الحوادث، و لا أريد أن أطالب بشرف تدوين تاريخ على باشا. لكننى أود أن أقول إنه ما كادت تنقضى الفترة التى كانت تسمح بمرورها الفطنة و يحتمها الحذر حتى صودرت جميع ممتلكات الذين كان لهم أدنى اتصال بالباشا السابق، رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط ؛ ص ۱۳۰

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۳۰

باب المعظم من الداخل فى بداية هذا القرن

و استمر وضع اليد عليها حتى يومنا هذا. و ليست هذه سوى حوادث اعتيادية لا بد أن تحدث عند تبدل الحكام، و لا تلفت النظر إليها كثيرا إلا من جانب الفرقاء الذين يهمهم الأمر. كما لم يكن هذا أسوأ ما حدث. فقد فرضت رسوم باهظة على التجارة، و ترك الفلاحون ليكونوا تحت رحمة التعسف الذى كان يمارسه خدام الباشا، و وصلت التأثيرات السيئة لسوء إدارته العامة إلى درجة

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۳۱

أصبحت فيها البلاد يبابا قفرا، تغشاه القبائل العربية فى كل مكان، و تعبث فيه إلى حد أبواب المدينة نفسها. أما ماليته و وارداته فقد هبطت إلى حد العدم نسبيا من حيث اعتمادها على الزراعة، بينما كان الرعب و المقت لشخصه و حكومته يتخللان طبقات الناس كلها باستثناء المخلوقات التى كانت تحيط به.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۳۳

(۷) [الرسالة السابعة]

اشارة

مظهر المدينة من داخل الأسوار و خارجها- سياسة على باشا- شمر جربا- محاصرتهم بغداد- دعوة قبائل عنزة- صرفهم دون أصول- رفضهم الانصراف- محاصرتهم للمدينة- اشتباك جند الباشا و حلفائه من العرب مع عنزة- اندحار جند الباشا و ذبح شيخ الجربا- التجاء سكان المناطق المجاورة إلى بغداد- الحمير البيض (المطايا) و العبيد السود- مخادع النساء و عاداتهن- المجوهرات- أشغالهن- زياراتهن- أصواتهن- سلوكهن العام.

ليس بوسعك أن تحسبى، بالنسبة للظروف التى أتيت على وصفها فى رسالتى السابقة، أن تكون بغداد متشحة بحلل الازدهار القشيبة حينما دخلت إليها. فقد فضحت أول ركبة ركبتها للتجوال فيها الحالة التعسة التى كانت عليها، و كشفت للأنظار الآثار العميقة التى خلفها ذلك الفيض من الكوارث الذى غمرها فى السنين الأخيرة. ففى ما وراء المجموعة الصغيرة من الأبنية، التى بقيت قائمة بعد الفيضان و الطاعون مباشرة، تمتد بقايا الخراب المتسع، و تقوم فجأة من وسط الأنقاض هنا و هناك بعض الدور الجديدة كما تقوم الأشباح من بين السكان المقبورين. و من الغريب أن فسحا كبيرة من الأرض قد انخسفت بتأثير الماء المتراكم و ضغطه فكونت تجاويف و أوجار عميقة ما بين البساتين التى تملأ مساحة غير يسيرة من القسم الجنوبى من المدينة.

و لذلك فإنى أقدر أن ما يقرب من ثلثى المساحة التى يتكوّن منها الجانب الشرقى من النهر قد جرد هذا التجريد من الأبنية القابلة للسكن. و قد أخذت حتى الأبنية التى ظلت قائمة تظهر عليها الآن التأثيرات التى أثر فيها الماء على أساساتها بوجود الكثير من الشقوق الخطرة. بينما تكون الجبهة المواجهة للنهر، على منظرها الحسن المؤثر فى النفوس الذى تبدو فيه من بعيد، فى حالة شديدة من التضعضع و التصدع فى الحقيقة. فقد استولى الخراب بالكلية

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۳۴

على قصر داود باشا الذى كان يشغل موقعا فسيحا يمتد إلى ضفة النهر. و قد بدأ الباشا الذى يسكن الآن فى دار كان يشغلها ابن من أبناء الباشوات المتأخرين، فى الأيام الأخيرة، بإعادة تشييد السور العائد لقصر داود ليجعل منه على ما علمت ثكنة لجنوده.

و ليس المنظر فى الجانب الآخر من النهر مما يبعث على شىء أكثر من هذا بهجة و انتعاشا. فإن الجزء الذى يشغله الآن الأعراب فى الدرجة الأولى، بعد أن كان يحتوى فى السابق على دور الكثيرين من الأتراك الموسرين، لا يزال أكثر تهدما و خرابا من الجانب الشرقى. إذ لا- يمر الراكب هناك إلا- من بين جدران متهدمة أو مائلة للانهدام، و أنقاض كان فى يوم من الأيام كتلة كثيفة من المساكن. أما سور المدينة فى كلا- الجانبين فهو متهدم كذلك و متداع، و لا- تزال تظهر فيه الثغرات الكبيرة التى دخل منها ماء الفيضان إلى البلدة على نفس الحالة التى تركها فيها الماء المتدفق يومذاك.

و يعد المنظر خارج الأسوار فى حالة فريدة من الوحشة و الاكتئاب- فهو يعد فى الحقيقة نموذجا لما تكون عليه الحالة الحاضرة فى أنحاء الباشوية كلها. ففيما عدا ضفاف النهر التى تنتشر فيها بساتين النخيل إلى امتداد أميال ثلاثة من كل جهة، يمتد سهل أجرد من جميع الجهات حتى يصل إلى أبواب السور نفسها من دون أن يحده شىء سوى الأفق البعيد. و لا ينكر أن هذه البادية تنبعث فيها

الحياة فى الوقت الحاضر بوجود خيام الأعراب و منازلهم، و قطعان الأغنام و الماشية، و جماعات الإبل، و حركة الذهاب و الإياب لكثير من الخيالة و الراجلين. و لكن حتى مظهر الحياة الوقتى هذا و الضجيج الحاصل بنتيجة ذلك يعزى إلى الضغط الخاص الذى تفرضه الظروف الخارجية على المدينة.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۳۵

فقد كنت ذكرت عند وصولى إلى المدينة لأول مرة أنى علمت بأن قبيلة من القبائل العربية المعادية كانت تخيم بالقرب منها. على أننى لم أكن أعرف يومذاك كم كنا قريبين من مشاهدة موقعة تحتدم بين الأعراب أنفسهم. فإن فتح سياسة على باشا، المبنية مثل سياسة أسلافه و الكثيرين من الحكام فى الشرق و الغرب على قاعدة «فرق تسد» الخطرة على الدوام، قد انهارت فى هذه الحالة و تركته فى وضع حرج جدا. فقد كان يفعل كما أسلافه، الذين كان البعض منهم على جانب من القوة بحيث يستطيع أن يسيطر جماعيا على القبائل العربية العديدة المحيطة به، أن يزرعوا بذور الشقاق بينها، و يحركوا قبيلة على أخرى حينما كانت تهددهم إحداها أو تضغط بشدة عليهم. و هذه فى رأيى سياسة خطرة ما لم تساندها قوة تكفى فى الوقت الحرج لجعل السياسى المهيمن فى معزل عن الحوادث الفجائية المؤسفة و مسيطرا عليها. و إذا لم تكن فى يده قوة فإنه من المحتمل جدا أن يأخذ كل فريق بالاعتداء و التجاوز على غيره، كما هى الحالة فى وضع على باشا اليوم، و يلعب دور الصديق و العدو بصورة دورية حتى ينقلب من كونه خادما و حليفا إلى سيد مسيطر.

إذ كانت قبيلة الجربا قد جيء بها إلى القسم الشمالى من الباشوية

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۳۶

لتساعد الباشا الأخير على طرد عشيرة أخرى من عشائر اللصوص و قطاع الطرق. و كانت الخدمات التى قدمها الشيخ صفوگ لعلى باشا قد أهّلته، على ما يرى هو، لأن يحظى بالمزيد من التسامح و الامتيازات. لكن عليا كان يفكر تفكيرا يختلف عما كان يفكر به رفيقه السابق فى هذا الشأن، فرفض مطاليب صفوگ و هدده بالسخط عليه. و على أثر ذلك تراجع أولا إلى القسم الشمالى من بلاد ما بين النهرين، و أخذ يقطع الطرق و ينهب القوافل و يسلب السياح و المسافرين. و لأجل أن يعرض على سيده السابق نموذجا من قوته و سطوته، جاء بعد ذلك بقبيلته كلها و أحدق ببغداد نفسها .

فظلت المدينة محاصرة ثلاثة أشهر، و صارت القرى المجاورة تنهب متى شاء و أراد هذا اللص الجلد، من دون أن تبدر أية معارضة له من جانب الباشا- و الحقيقة أن الباشا لم يكن يملك الوسائل اللازمة لذلك. و فى نهاية تلك المدة قوّض الأعراب خيامهم على حين غرة و اختفوا عن الأنظار، و ليس بوسع أحد أن يعلم ما إذا كان السبب فى ذلك تناقص العلف و قلة السلب المتيسر، أم ظهور عوامل أخرى فى الأفق. و بذلك وجدت بغداد نفسها فى صباح يوم من أيامها الجميلة متحررة من زوارها المزعجين. و تراجع صفوگ إلى منازله فى شمال العراق. لكنه وعد بأن يعيد الزيارة فى السنة التالية، فأخاف الباشا بهذا التهديد بحيث إنه بعث يطلب مساعدة عنزة. و هذه عشيرة

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۳۷

أخرى قوية جدا، و قد وعدها الباشا بتسليم أراضى الجربا لها إذا عملت على طردها منها. و لم يعتمد على هذه الوسيلة وحدها بل حاول أن يحدث انقساما فى قبيلة الجربا نفسها. و باستعمال السلطة التى كان يدعى بها أسلافه، مهما كانت اسميتها فى حالته هو، فى خلق من يقع اختياره عليه و تنصيبه للمشيخة أقدم على ترشيح شاب اسمه شلاش لمنصب شيخ عشيرة الجربا. على أن عددا قليلا من أفراد العشيرة فقط اهتموا لهذا الترشيح، بينما تمسك القسم الأكبر و الأهم منهم بشيخهم القديم صفوگ. لكن عنزة، و قد أسال لعابها فى الوقت نفسه مطمح التمتع بمراعى الجربا الممرعة، جاءت ملبية النداء بما لا يقل عن خمسة و ثلاثين ألف محارب ليضمنوا القضاء على خصومهم. و ما حل هذا الوقت حتى كانت مخاوف الباشا و محميه شلاش قد زالت بتراجع صفوگ لسبب أو آخر إلى مسافة

أبعد. فأرسل سموه من يخبر حلفاءه الجدد بأن خدماتهم لم تبق لها حاجة و لا أظنك تعجبين إذا علمت أن عنزة، التى انتعشت فيها الآمال القديمة و جاءت من مناطق بعيدة فى البادية يشح فيها الخير و العشب، قد أغضبتها هذه المعاملة التى عوملت بها. فقد رفضوا مغادرة مكانهم رفضا باتا حتى يكون الباشا قد نفذ من جانبه الالتزام الذى تلزمه به الاتفاقية، لأنهم قد قاموا من جانبهم بما كان يترتب عليهم أن يفعلوه. و احتلوا موقعا فى جوار المدينة يؤدى إلى أضيق مسافة من الجزيرة التى تحجز بين دجلة و الفرات تأكيدا على ما قر رأيهم عليه.

و حينما استثيرت مخاوف الباشا بهذا العمل من جديد دعا محميه شلاشا لمساعدته فى الدفاع عن بغداد و طرد عنزة عنها. بينما قام هو من جانبه بتحشيد جيشه المؤلف من بضع مئات من الخيالة الألبانيين، و الجند النظامى، و ساقه مع المدفعية ليستعرض أمام عنزة. ثم أطاع شلاش الأوامر و جاء بفريق العشيرة التابع له إلى ما يقرب من بغداد. و بالشعور الذى يتميز به العرب عادة عمد حتى الشيخ صفوگ نفسه، الشيخ المعادى له، إلى إنفاذ مفرزة تتألف من ألفى رجل لمساعدته فى هذه المناسبة. و كتب إلى شلاش يقول: «أنا و أنت عدوان متخاصمان، و يمكننا ان نسوّى النزاع بيننا فى موسم مناسب. لكن شرف العشيرة فى الوقت الحاضر قد تعرض للخطر، و لا أستطيع السكوت عن ذلك

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۳۸

ما لم أقدم معونتى للمحافظة عليه». على أن المساعدة كان إنفاذها عبثا، لأن عنزة كانت أقوى من أن تستطيع الجربا مهاجمتها بنجاح حتى لو كانت العشيرة كلها قد عبئت لهذا الغرض. فقد وقعت مناوشات طفيفة بادىء ذى بدء من دون أن يكون لها تأثير مهم فى كلا الفريقين، و لكن فى اليوم الذى سبق وصولى إلى بغداد نفسه أدت مناوشة من هذه المناوشات إلى وقوع اشتباك عام- على حد التعابير التى يستعملها العرب على الأقل- فاندحر الباشا و حلفاؤه فى هذا الاشتباك اندحارا تاما، وقعت فيه حتى المدافع لمدة ما فى أيدى عنزة. لكن ثقل الحرب و الخسارة وقع كله على عاتق الجربا التى قطّع شلاش شيخها الجديد إربا إربا فيها و خسرت من الرجال، على ما يقال، أكثر مما وقع فى أية حرب عربية منذ عدة سنين خلت. و بدافع من بعض الاحترام الباقى لسلطة السلطان استبقت عنزة جند الباشا و التفتت بانتقامها إلى أعدائها من العرب.

و قد كان مضمون الهوسات المتعالية فى الموقعة «خل النظام و اقتل الجربا» و هذا ما فعلوه فى الحقيقة و الواقع. أما المدافع فإن بدو البادية الجهال لم يكونوا يفهمون على ما يبدو أى الاشياء كانت هى، و على كل حال فقد كانوا يجهلون كيفية استعمالها. و لذلك تركت فى ميدان المعركة حتى استعادها جند الباشا، الذى شجعه رفق العدو به، من دون معارضة و تقهقر راجعا بسرعة إلى حيث صار يحتمى بسور المدينة.

فعلى مثل هذا كانت الحالة العامة فى بغداد حينما وصلت إليها. و إن الخوف من عنزة قد دفع كل قروى و بستانى، و جميع القبائل العربية الصغيرة التى كانت متعودة على النزول فى الريف المحيط ببغداد، إلى داخل الأسوار.

و اضطر جميع من كان يملك قطعانا من الأغنام أو الماشية أو الجمال فى المناطق المجاورة إلى أن يلتجىء إلى داخل السور أيضا فيشغل الفسح الوسيعة التى خلفها الفيضان. و هذا من شأنه ان يضيف بالتأكيد إلى تكاثر الناس و تدفق الحياة فى الداخل، لكنه أيضا يزيد بصورة مزعجة فى الضوضاء و الفوضى المستحكمة فى الشوارع. و هذه القطعان من الحيوانات هى التى كنت من قبل قد ألمحت إلى مرورها فى رواحها و غدوها من تحت شباكى فى كل صباح.

و حينما كنا نحاول فى الصباح الباكر أن نمر من بعض الشوارع أو نخرج من

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۳۹

أبواب المدينة كنا نحسد أنفسنا على الصبر و التحمل الذى كنا نبديه قبل أن نستطيع المرور. أليست هذه صورة جميلة لولاية كان يجب أن تكون من أعظم الولايات ازدهارا و إنتاجا فى الامبراطورية التركية جميعها؟

۲۰ تشرين الثانى

لقد ركبنا و تجولنا كثيرا منذ أن دونت آخر تاريخ يومى إليكم، فقد مررنا بجميع المحلات المسكونة فى بغداد، وزرنا معظم المشاهد التى تستحق الزيارة و الالتفات. و كان من بين الأماكن التى زرناها مرقد السيدة الظريفة، سريعة الخاطر، زبيدة زوجة هارون الرشيد. على أننى ليس عندى ما أعلق به على هذا المرقد سوى أنه يتألف من برج مستدق فريد فى شكله يشبه المسلة، و يحمل على قاعدة طويلة بشعة جدا، و يحتوى الجزء السفلى منها على مكان القبر. لكننى لم أدخل إلى الداخل لأرى ما يوجد فيه. فإنهم هنا يبدون اعتراضات كنت أرغب فى تحاشيها، خاصة و قد كانت رغبتى فى استطلاع المراقد الإسلامية قد حيل دونها فى مناسبات كثيرة من قبل. و سوف لا أعمد إلى تسليتكم بالأفكار و المشاعر التى ربما تكون قد خطرت فى فكرى عند زيارتى لقبر هذه الحسناء الشهيرة، التى نقرن كلنا باسمها بعض ذكريات الشباب المفرحة، مع أن الأيام التى كانت تجلس فيها زبيدة و تسلى نفسها بالاستماع إلى القصص و المغامرات كما كان يفعل زوجها و سيدها لم أستطع تخيلها أمامى. لكن قصر الخليفة قد اختفى من الوجود، و أصبح حتى موقعه

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۴۰

مجهولا. و رحل المجد عن هذه الأرض، فاختفت الروحية التى كانت توحى لأبنائها و بناتها العزم و القوة لتهيم فى مجالات أخرى، و على هذا فلنترك تربة زبيدة و نلتفت إلى مناظر أخرى.

و من الأشياء التى لا بد ان تلفت نظر الغريب فى تجوالاته ببغداد، إلى جانب العدد الكبير من الأعراب الذين يلوحون له على الفطرة، كثرة الحمير البيض (المطايا) و العبيد السود القبحاء الذين تعج بهم الشوارع و الأسواق جميعها. فإن الناس يقبلون هنا إقبالا شديدا على الحمير البيض و لا يستبدلون هذا بأى لون آخر. و لذلك فمن النادر أن تجد شخصا له منزلة محترمة، رجلا كان أو امرأة، و هو يركب غير هذا الحيوان الأبيض- عدا الطبقات العسكرية التى تحتقر أى شىء يقل عن الجواد العربى الأصيل. و يفضل المثقفون و رجال الدين هذا الحيوان الذى تكثر فيه الوداعة، و كذلك تفعل السيدات كلهن.

و لذلك فإن عدد الحمير التى تسخر للركوب هنا كبير جدا. و لما كان نساء الطبقات الرفيعة فى المجتمع نادرا ما يتحركن من دون أن يصحبهن عدد كبير من نساء الحاشية اللواتى يركبن على الشاكلة نفسها، فإنهن حينما يقمن بزيارة البيوت المجاورة يصبح صوت الجوقة النهيقية شيئا غير محتمل. و هذا النوع من الحمير ينتمى إلى عرق أصيل خاص، و يباع بأثمان عالية جدا- فلا يعد مبلغ الأربعين أو الخمسين پاونا استرلينيا ثمنا غير شائع بالنسبة لحيوان من هذا النوع كبير الحجم، أصيل العرق، دقيق الخطى، و ترخّت هذه الحيوانات ترخيتا بديعا، و يشق منخر كل منها، كما يصنعون فى إيران أيضا، لأجل ان يصبح أطول نفسا فى العادة- أن نفس هذه الحيوانات يعلم اللّه على جانب كاف من الطول حينما تأخذ بالنهيق!

و يشيع الولع بالعبيد السود هنا بقدر الولع باقتناء الحمير البيض، و إذا ما أردنا أن نحكم بالمظاهر نجد أن قيمة هؤلاء تزداد بازدياد القبح الذى يتحلون به

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۴۱

كما هى الحالة فى كلاب التريز(Terrier) التى ينطوى حسنها فى قبحها الخاص المعروف. و يأتى أولئك الحسان السود، الأنثى و الذكر منهم، من مدغشقر و زنجبار غالبا، حيث يجهزهم فى الأعم الأغلب أمام مسقط- و هو حليف أمين معتبر من حلفائنا يقبض فى يده على جميع الطرق التجارية تقريبا. و كلهم ذوو شفاه غليظة، و وجوه عريضة، و عظام بارزة فى الوجه، و أنوف فطس للغاية، و ذقون صغيرة مستدقة، و عيون بيضاء محدقة، و جلود سوداء طمطمانية. و إنى و إن كنت أبعد ما يكون عن الدعوة إلى اعتبار العبيد بوجه عام عنصرا منحطا عن البيض فى الذكاء لوجود بعض الفروق التشريحية الطفيفة بين الفريقين، لكننى أقول إذا كان هؤلاء قد

حباهم اللّه بالكثير من الذكاء فإن العناية الإلهية لم يكن يسرها مطلقا ان تودع ملكات الذكاء فى هيكل أقل إغراء من هذا. على أنك تجدهم هنا مفضلين جدا على غيرهم من الخدام فى الحرم و الأماكن الأخرى. فالشوارع تعج بهم، و جلودهم الصقيلة، و أوجههم الضخمة اللماعة، و ملابسهم الزاهية، تقود إلى الاستنتاج فى الحال بأنهم ينعمون فى حال ميسرة. على أن هذا فيه ما يدعو إلى الاستغراب إذا ما أخذ فى ضوء ما يعرف عن الأتراك و معظم الشرقيين من فوقية تجاه عبيدهم. كما ان التبختر الوقح، و اللغة السليطة التى تصدر من أولئك السفهاء السود حينما يمرون بك فى الشوارع، لا تدع مجالا للشك فى كونهم محاسيب مدللين لبعض السادة المتطرفين فى التساهل. على أن التمتع بهذا النوع من الترف يقتصر على المسلمين فقط، لأن أى مسيحى أو كافر من أى طبقة كانت لا يسمح له القانون بامتلاك أى نوع من العبيد. و ليس هذا هو المنع الوحيد الذى يميز به المسلمون على غيرهم هنا، فإن المسيحى و اليهودى يمنع قانونا من الركوب فى الشوارع. و لذلك لم يجرأ اليهود و لا- النصارى فى أيام داود باشا على الظهور و هم يركبون الخيل أو البغال أو الحمير، غير أن هذه القواعد أخذت تكسر أحيانا فى عهد على باشا الذى يسود فيه التراخى. و لا أرانى

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۴۲

بحاجة إلى أن أضيف على ذلك فأقول إن الإنكليز، و الإفرنج بوجه عام، يعفون من هذه القيود و يستطيعون الركوب بحرية كما يشتهون.

و الخصيصة الأخرى التى يتميز بها الجمهور الذى يغشى الأسواق عادة الأشباح، المتشحة باللون الأزرق الغامق و المقنعة بالأقنعة السوداء، التى تمر محتذية أحذية صفراء صغيرة خاصة، فيقال لك إنهن نساء. و هن يعلم اللّه، حين يظهرن متنكرات بهذا الشكل، أشبه بأى شىء آخر عدا الجنس اللطيف من المخلوقات. فإن لفافاتهن الزرقاء الغامقة، أو القماش الأزرق و الأبيض الذى يلفهن من الرأس إلى القدم يخفى الشكل و اللباس إخفاء فعالا، بينما يقوم البرقع الأسود (الپيچة) المصنوع من شعر الخيل المنسوج نسجا خفيفا يحجب الوجه عن أعين المارة حجبا تاما، و لكن المرأة المحجبة به تستطيع فى الوقت نفسه أن ترى جميع ما يمر أمامها على الوجه الأكمل. و قد ضحكت مرة حينما رفع أحد هذه البراقع الداكنة بالصدفة و بان من ورائه وجه أشد سوادا من القناع نفسه. لكنه قد يحدث فى بعض الأحيان كذلك أن يتوارى وراء الحجاب الضنين وجه جميل من أوجه الفتيات الگرجيات ، و قد شعرت ذات يوم بدافع قوى يدفعنى إلى مديد دنسة أحول بها لحظة من الزمن دون انكساف منظر من أجمل المناظر، من النادر أن يوجد فى هذه الجهات- منظر جمال أنثوى أخاذ- و الحقيقة أن أحدا لم يستطع فى يوم من الأيام أن يخترع أقبح و أوحش من الأكفان الفظيعة التى اخترعها الحسد الشرقى ليلتف بها النساء فيشوهن بها أنفسهن عند ما يظهرن فى الخارج، بغية إفزاع العيون المتلصصة و الحيلولة دون روحية الخلاعة و الفساد. فبها يظهر الشباب

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۴۳

و الشيخوخة، و الجمال و التشويه، بنفس المظهر المضلل، و الفكرة التى توحيها كل امرأة تتزيا بهذا الشكل فكرة تنم عن عجوز شمطاء مخيفة، متسربلة بلباس الفقر و الضعة.

و مع هذا، فهل يحمى هذا المظهر المنفّر فى الحقيقة الثمرة المحرمة عن العيون المشتاقة يا ترى؟ وا أسفاه! إن قصص الحب و المكر التى لا ينضب معينها، و الكوارث المفجعة التى تنتهى بها مآسى الحب و الجريمة هذه، تحدثنا عن قصة تختلف تمام الاختلاف عن هذه و تثبت بكل تأكيد أن القوة المجننة و العواقب التى تنطوى عليها العواطف المكبوتة فى هذه البلاد و جميع البلاد الأخرى هى شىء واحد. فمن المعروف تمام المعرفة أن هذه البراقع الواقية فى الحقيقة تحجب عن الأنظار فى بعض الأحيان أجمل حسناوات الحريم- نساء شابات جميلات، و سواء أكن جميلات أم لم يكن فهن يرتدين أفخر و أبدع ما يمكن أن تسمح به ثروة الوالد أو الزوج. فالتركى يصرف ثروته التى يحاذر التظاهر بها فى الخارج على نسائه و بيته، و يكون صرفه هذا سخيا.

فقد تكون غرفة استقباله حقيرة، و قد يكون سجاده قديما متهرئا، و وسائده بالية، و قد يكون الشال الذى يلف به رأسه أو محزمه رثا

أو من غير النوع الكشـميرى الأصلى، لكن غرف الأماكن التى يمنع الدخول إليها لاتكون مؤثثة تأثيثا مريحا حسب بل مترفا أيضا. و لو تيسـر لـك الـدخول لوجـدتها مفروشـة بسـجاد هراة و كرمنشـاه، و يانـات قـايين و تفت، و لرأيت فيهـا الچيت من الهنـد و إنكلترة، و الشـراشف من يوركشـاير و غلوستر شاير، و الحرائر من الصـين أو يزد أو كاشان، تزين غرف نسائه و تجعلها جميلـة مريحـة. و سـتجد كـذلك رؤوسـهن مكللـة بالشال الكشـميرى أو بأغلى كفافى ليون المطرزة، و أجسامهن تكتسـى بأبهى أنواع القطيفـة و تتـدثر بأغلى الفراء. و سـتلاحظ كـذلك آذانهن و جبـاههن و أعنـاقهن تتـألق بالجواهر، و شـعورهن مضـفورة باللآلىء، و أصابعهن مغطاة بالخواتم المتلألئة، و مظهرهن كله مع كل شىء من حولهن يدل على الثراء و الترف.

و ليس هناك فى الحقيقة أكثر زهاء و بهاء فى اللون و المادة من لباس

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۴۴

السـيدات التركيات فى بغـداد. لكننى أخشـى أن أكون عاجزا عن أن أنقل إليكم فكرة صادقـة عن أزيائهن من دون رسوم متقنـة. فإن المرأة التركية على ما اسـتطعت التوصل إليه ترتدى أولا قميصا يصـنع من نسـيج حريرى رقيق ذى ألوان مختلفة، و يفتح من الأمام إلى مـا يقرب من المحزم لكنه يضم حول العنق بحليـة من الحلى عـادة. و يكون هـذا القميص مطرزا تطريزا جميلا حول العنق و على طول الصـدر، كمـا تكون الأـردان الطويلـة الفضـفاضة الـتى تبـدو معلقـة من خنقـتى اليـد المفتوحتين فى السترة معمولـة بالـذهب و الفضـة (الكلبدون) و الحرير الملون بألوان مختلفة. و يرتدى البعض منهن فوق هذا نوعا من الصدار المزين بزينة جميلة جذابة، تمتد من العنق إلى الوسط. لكننى أعتقـد أن هـذه القطعـة من الملابس تسـتعمل فى الدرجـة الأولى لستر عيب من العيوب فى اللباس الـذى تغطيه. و تلبس فوق القميص صدريـة ذات ذيـل طويل تتلبس فى الجسم تلبسا تاما يظهر شـكله إلى حـد الوسط، مع أردان ضـيقة تبقى مفتوحة حتى المرفق تقريبا.

و تصـنع هـذه من جميع أنواع الأقمشـة الغالية كالحرائر المشـجرة أو السادة، و الأقمشة الموشاة، و الشال، و القطيفة و ما أشـبه، و تزين بالوشـى أو التطريز من جميع الأنواع تبعا لذوق اللبّاسة. و يرتدى بعضـهن سترة قصـيرة من قماش مماثل، مبطنة بشىء من الفرو الناعم، فرو السمور أو القاقم، و موشاة بالكلبدون كذلك. لكن الشائع الآن كما علمت استعمال الكورك، أو رداء الفرو الطويل. أما السراويل الطويلة الواسـعة التى تكاد تختفى تحت سائر الألبسة فهى تخاط بالحرير الملون الزاهى. لكن السيدات التركيات يبدين تذوقهن للأناقة و الصـرف فى لباس الرأس و المجوهرات عادة. فلباس الرأس الذى يسـمى هنا «باشـلك» يتكون اعتياديا من منديل واحد أو منديلين، أو شـال، تلف حول الفيس (الطربوش) الأـحمر الـذى يعتـبر غطـاء الرأس الوطنى الـذى يلبسه الأـتراك جميعهم و النصـارى و اليهود، رجالا و نساء، الداخلون فى حكم السـلطان. و هو يصـنع من اللباد أو القماش الأحمر، و تكون له عذبة أو شرّابة (پسكولة) من الخيوط الزرق. و يطرز الفيس الذى تلبسه السيدات تطريزا باللؤلؤ ينطوى على الكثير من الذوق. و يبدل فى بعض الأحيان لون الشرّابة و الفيس بحيث يلائم رغبة

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۴۵

اللابسـة. و يلف الشال أو المنـديل حول هـذا بأشـكال تفوق فى لفها أى شـىء رأيته من هـذا القبيل فى قبعات أو عمائم السـيدات فى بلادنـا نحن. و أعتقـد أن أحسن مـا يسـتعمل من المناديـل يصـنع فى أنوال ليون، مع أن هنـاك مناديـل مطرزة جميلـة جـدا من صـنع اسـتانبول. لكننى ليس بوسـعى أن أصف لكم أو أبالغ فى وصف الـذوق النفيس و الرقـة المنطويـة فى القماش. فإنها تنطوى فى جميع ألوان القمـاش و درجـات الألوان، و تطرز أكاليل الأوراد فوقها، تطريزا كله ذوق و أناقـة، بكل درجـة من درجات الألوان الرقيقـة التى تختلط بكلبـدون الـذهب و الفضة. و حينما تلف المناديل الجميلة هذه حول الرأس يلاحظ فى ذلك تعريض هذه الزينة و التطريز إلى الخـارج بأجمل شـكل، على أن تبقى نهايتها مـدلاة بشـكل رشـيق خاص. و يكون الشال المسـتعمل على الـدوام من أفخر أنواع الشال الكشـميرى الـذى تطرز حواشـيه بكلبـدون الـذهب و الفضـة، أو باللؤلؤ و سائر المجوهرات. و حينما يلبس لباس الرأس هذا يضـفر مع

الشعر فى العمامة ليكون زينة قائمة بذاتها، و تتدلى من ذلك ضفيرة أو ضفيرتان إلى الخلف تنتهى كل منهما بشرّابة من نقود الذهب أو المجوهرات. و يعلق ملفوفا بالشعر، من جهة واحدة تحت اللفة أو العمامة، حبل من خيوط اللؤلؤ يعقد بالأحجار الكريمة. و كذلك يعلق مقدار من اللؤلؤ بأشكال مختلفة بجنبه تبعا لذوق السيدة و رغبتها. أما المجوهرات التى يشيع استعمالها و لبسها، فإننى لا أدرى كيف أصفها من حيث شكلها المختلف و مكانها و لونها. فهناك «الجيكة» و هى حلية صنوبرية الشكل توضع فى جهة واحدة و «التيته» فى الجهة الأخرى، و «عين الگونى» فى الأمام متدلية على الجبهة، و تكون هذه الحلى جميعها من الماس، و الياقوت، و الزمرد. و هناك بعد ذلك ألف شىء من الأشياء الأصغر كالفراشات و البكلات و الدبابيس و الأعلاق، مما لا يمكن تعدادها أو وصفها. و الخلاصة، أن لباس رأس السيدة التركية بكامل زينته من المجوهرات يكوّن كلّا غنيا مذهلا، و يبدو لك فى الحال شيئا بهيا جميلا يمتلىء بالذوق و يتحدى الوصف.

و تزيّن الأذنان بالأقراط، كما تحاط العنق بعدد من قلائد الماس و الزمرد و اللؤلؤ و السلاسل الذهب. و تشد أنواع «البازبند» على الذراع بين الكتف

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۴۶

و المرفق، و هى ذات قيمة كبيرة. و كذلك تتلألأ المعاصم على الشاكلة نفسها بأساور لا يمكن أن توصف من حيث عددها و تنوعها. كما يحاط المحزم بمنطقة من القطيفة تشد بإبزيم من الذهب المزين بالأحجار الكريمة، و يثبت بالمنطقة نفسها عدد من قطع الماس. أما الفقراء فيكتفون بأحجار أرخص و شغل الذهب الدقيق. و فى النهاية، تغطى الأصابع بعدد لا يحصى من الخواتم و الحلق المرصع بأحجار فى أدق الحجوم و أندر البريق، و حتى أصابع القدمين تكون لها زينتها من الأحجار. و هكذا تصبح السيدة التركية أثناء وقوفها أو تحركها كتلة من النور الباهر و الرونق الأخاذ.

و قد نسيت أن أذكر، بين الحلى التى تزين بها الأيدى و الأقدام، نوعا غريبا من الحلق يلبس بالإبهام و أصبع القدم و هو أشبه بنصف كشتبان، يلبس و جانبه العريض يتجه إلى الأعلى، و يرصع بالزينة اللماعة و المجوهرات.

و هناك، عفوا، البوابيج الجميلة التى تحتمل أى نوع من الزينة الملائمة لذوق الحسناء و قابليتها على الصرف. و هذه لا تكاد تحفظ أقدامها الجميلة من السجاد الثمين الذى تمشى عليه، و لكنها لما كانت تستعمل فى التنقل من غرفة إلى أخرى فقط فإن خفتها لا تحول دون الاستفادة منها.

و ستدركون من هذا بلا شك أن لباس السيدة التركية ليس زاهيا جدا فحسب بل إن ثمنه أيضا يمكن أن يزداد إلى ما لا نهاية تبعا لإيراد صاحبتها، لأن طراز زينتها يمكن أن يتغير وفقا لذوقها. و قد كنت أتمنى أن أقول علاوة على هذا إن عقول اللابسات الحسناوات تزدان بحلى الفكر و المعرفة كما تزدان أجسامهن بالألبسة. غير أننى بالنسبة لجميع ما استطعت التوصل إليه من معلومات يمكن أن أقول إن هذا بعيد جد البعد عن الحقيقة و الواقع. فالحقيقة أن جهل، و سخافة، و سماجة نساء الطبقة الراقية فى بغداد أشياء تلفت النظر بصورة مؤلمة. و ليس من الصعب علينا أن ندرك كيف لا يكنّ على غير هذه الحالة. فأى فرص للتحسن يمكن أن تتوفر لهن فى محيطهن، عن طريق القدوة أو الفرض؟ و أى نماذج تتيسر لهن فى مكانهن فيقلدانها و يحسّن من و ضعهن على منوالها؟ فهن و قد دربن على تسلية سيد يكون فى كثير من

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۴۷

الأحيان شيئا أحسن من الوحش بقليل، و على أن يلبسن و يتزوقن و يبتسمن و يقيّدن أنفسهن بحيث يتلاء من مع مزاج سيدهن الذى لا يستطيع، و لا يريد، أن يقدر إبداء أى مقدار من الذكاء و النشاط العقلى فى مملوكته المتزوجة- كيف ينتظر منهن أن لا يكنّ فى الأعم الأغلب سوى دمى خالية من الروح و العقل؟

و ليست لديهن فى البيت، على قدر ما استطعت التأكد منه، أشغال تشغلهن سوى اللبس و ترتيب الملابس و المجوهرات، و التدخين،

و تناول القهوة، أو القشب و الثرثرة مع الخدم و النساء اليهوديات اللواتى يأتين إلى البيوت لبيع الأقمشة و اللعب و المجوهرات (الدلالات). و قد يلعبن مع أطفالهن إذا كان لديهن أحد منهم، لكنهن ليست لديهن أية فكرة عن تربيتهم و تثقيفهم الذى يترك أمره عادة إلى «الدايات» و المربيات. و من أعظم وسائل اللّه و و التسلية عندهن التزاور بينهن، و تنطبع زيارتهن هذه بطابع خاص بها. إذ يندر أن تذهب إحداهن فى زيارة مثل هذه لوحدها أو تكتفى حتى بأخذ واحد أو اثنتين من الحاشية معها. و لذلك تجد فى هذه المناسبات أن بيتا بكامله يتحرك مرة واحدة كأنه مستعمرة صغيرة، أو رتل صغير من أرتال الجراد، فيحط فى بيت صديق من الأصدقاء أو جار من الجيران. و قد يتألف البيت المتحرك من زوجتين أو ثلاث زوجات، مع الأخوات، و العمات و الخالات، و بنات العم، و بنات البيت نفسه، و المملوكات، و الخدم، و الأطفال و المربيات. و على المضيفة أن تعد العدة فتضيّف القطيع كله- و ليس هذا بالواجب السهل، و خاصة عندما تكون المضيفة على غير علم بقدوم الضيوف أو حينما تكون الضيفة ذات منزلة رفيعة. و لذلك يحصل شىء غير قليل من الهرج و المرج و الجرى إلى الأسواق و الجيران للحصول على الوسائل المطلوبة و المواد للقيام بواجب الضيافة. و كثيرا ما يبلغ عدد الزائرات فى زيارة مثل هذه أربعين إلى خمسين شخصا من أولئك الأشخاص المرحين.

و فى مناسبات مثل هذه لا بد أن تتوقف جميع الأعمال مهما كان نوعها- فعلى المضيفة أو المضيفات و مملوكاتهن أن يعطلن كل عمل و يعلنّ حول عطلة عامة فى البيت. و بعد ذلك تبدأ قعقعة الألسنة، و تتعالى الضحكات، و تنطلق

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۴۸

من جوامع بغداد فى ۱۸۲۷ م

الثرثرة. فلا بد للحسناوات التركيات، و قد خرجن من سآمة بيوتهن و ضجرها أو من التقيد بحضور أزواجهن، أن يكن مرحات بمقدار كاف على الأقل.

و حينما يكن مرحات لا يوجد أشد صخبا و لغطا منهم فى العالم. و لا أريد فى الحقيقة أن أكون غير منصف، أو قاسيا فى حكمى، و لا أن أقول غير الصدق.

لكن أصوات النساء هنا كلها من وزن واحد على ما يبدو، و هو وزن الصراخ الذى يصدر من بعض الناس هنا حينما يكلم أحدهم صديقه الجالس فى طرف آخر من سوق مزدحم. فهن كلهن يزعقن و يصرخن بصوت عال، و حينما يتكلمن كلهن على هذه الشاكلة فى وقت واحد، كما هى الحالة عادة، فإن تأثير ذلك يكاد يتفوق على النهيق الذى يصدر من مطاياهن المربوطة فى الأسفل و ليس هذا بقليل. و لا أقول هذا استنادا إلى معلومات نقلت إلىّ، لأننى حينما مررت ذات يوم فى أحد الشوارع بدار كانت قد تشرفت بإقامة حفلة نسوية خاصة تسمعت لأصوات الطرفين فيها. لكنهن لا يكتفين بصوتهن فقط،

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۴۹

ساحة الميدان و القلعة قبل مئة عام

و لا بمباهج أحاديثهن و إنما يستنجدون بالمغنيات و الراقصات كذلك. و حينما تكون الحفلة فى أوجها و تنطلق أصوات المغنيات و الراقصات ثم تتصاعد قرقعات التصفيق من الحاضرات كلهن يصل الضجيج و الضوضاء إلى القمة.

و قد كنت أتمنى أن يكون تحدث الحسناوات فى بغداد بالصوت العالى الذى أتيت على وصفه العيب الوحيد فيهن. و لكنهن، و هن المعروفات بالجهل، ينفّرن الأشخاص المتفوقين عليهن من حيث التهذيب بسماجتهن، و دناءتهن، و فضولهن. و من الخطر أن يطلق لفيف منهن بين أشياء منتقاة غريبة، لأنهن يتهافتن عليها بالمخلب و الناب فيشوشن ترتيبها بالكلية، أو يقطعنها و يفككنها. إذ يتقن لها، بل و يطالبن بها بخشونة بالغة أحيانا- و قد يحصلن على ما يعجبن به حتى عن طريق السرقة أيضا. أما طريقة حديثهن و تخاطبهن فتتميز بكل شىء عدا التحفظ و الرقة، و لا يمكن أن يرتفعن بطبيعة الحال إلى أعلى من نطاق تعلمهن المحدود و مجال عقولهن. على أنهن قد يتحلين فى بعض الأحيان بسلوك السيدات المحترمات على ما يقال، و كثير

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۵۰

منهن يكن لطيفات الطويـة حسـنات الخلق. و إنى أتصور أن هذه الصـفات هى التى يتكون منها جماع فضائلهن الاجتماعية، عدا بعض الاسـتثناءات الفرديـة التى يمكن أن توجـد بطبيعـة الحال. و قـد تكون جرثومـة الصـفات الحميـدة الأخرى قـد ولدت معهن، لكنها قد وهنت بالإهمـال، أو قضـى عليها تفاقم الرياء، و الاسـتهتار بالقيم الـذى يشـجعه وضع المجتمع الـذى ينحصـرن فيه بشـقاء و اكتئاب. و لـذلك فإنى أهنىء النساء الأوربيات، و الإنكليزيات منهن على الأخص لأن العنايـة الإلهيـة الرحيمـة قـد حفظتهن من مثل هـذه الحالة المنحطة.

و لم أتطرق حتى الآن إلى ذكر شـىء عن طبقات النساء الدنيا لأنهن يكدن يكن الكادحات المسترقات اللواتى يخلفن العوز فى جميع البلاد، و بارتقائهن فى سلم الثروة و الرفاه يقلـدن المتفوقات عليهن. فإنك تجـدين النساء العربيات يطفن فى الشوارع غير محجبات و بملابـس رخيصـة جـدا، و هن يتغطين بالعبـاءة الأبديـة، و قـد وشـمت جلودهن بعلامـات لاـ عـد لهـا من الوشم. أما المتزوجات منهن فيحملن فى أحـد منخريهن خزامـة من الـذهب أو الفضـة كأنهـا زر كبير من أزرار التخريم، و يتزين بخلاخيـل و أسـاور من الفضـة أو النحاس الأصفر تبعا لإيرادهن و حالتهن المالية. و أعتقد أن الأرمنيات و الكاثوليكيات يلبسن كالنساء التركيات تقريبا. لكن اليهوديات لهن زى مختلف لا أعرف شـيئا عنه، كما أن أرمنيات الأماكن الأخرى لهن أزياؤهن الخاصـة كـذلك. و قـد قيل لى إن جميع الأزياء النسائية فى بغداد تختلف اختلافا غير يسير عن الأزياء فى استانبول.

و بعـد هذه النبذة الطويلة عن أزياء النساء و ملابسـهن فإنكم قد تعذرونني لعدم دخولى فى تفصـيلات خاصة عن ملابس الرجال. فإن الزيين السائـدين فى هذا الشأن هما الزى التركى و الزى العربى. إذ يرتدى التركى صدارا متسـعا يشد حول المحزم بشال، و يلقى فوقه رداء من القماش العريض الـذى يكون مطرزا فى العادة. و فى الطقس البارد يرتـدى سترة مبطنـة بالفرو، و عمامـة كبيرة من الموسـلين الأبيض أو الشال على رأسه. أما اللباس العربى فقد أتيت عليه من قبل، و ليس عندى ما أضـيفه هنا سوى أن أقول إن خليط الملابس و الألوان و بريق الأسلحة و النياشين يتكوّن منه منظر بهيج تنبض فيه الحياة لدرجة غير يسيرة.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۵۱

(۸) [الرسالة الثامنة]

زيارة الباشا- مظهره و أخلاقه- دهاليز الاغتيال- الكهيـة و ضـباطه- صـخب الخـدم و مطالبتهم بالبخشـيش- شـره الباشا و تشـبثه بقلب المعادن إلى ذهب- تجربـة ناجحة- الدراويش- طبقاتهم الثلاث- دراويش التكايا- الدراويش المتوطنون- و المتسولون- قصة مأمون المصـطفى- زيـارة للـدراويش- حيلهم و ادعـاءاتهم- زيارة للشـيخ عبـد القادر- النقيب- التربـة و الجامع- كنيسـة الروم الكاثوليك و رئيسها.

فاتنى أن أذكر لكم أننى بعد وصولى إلى بغداد بيوم أو يومين ذهبت لزيارة الباشا ، الذى كنت قد جلبت له كتابا من شيخ الإسلام فى تبريز. و قد استقبلت بما يكفى من المجاملة، لكننى يمكن أن أقول بالتأكيد إنه ليس هناك شىء يمكن تصوره ليكون أقل تعبيرا عن فخامة المقام و أبهته من مقام سموه، و لا أقل اعتبارا من خلقه و مظهره.

فقد كان الدخول إلى مسـكنه، الذى يصـعب أن يسـمى قصـرا، على أقل ما يمكن أن يكون، و كان القائمون على خدمته يتناسبون مع المكـان الـذى يعملون فيه تناسـبا تامـا- إذ كـان هنـاك عـدد من الألبـانيين الرثين فى مظهرهم، و قليـل من الأـتراك المنصـرفين إلى التدخين، و جماعة من الموظفين سيئى الهيئة و الهندام. و لم يكن الشخص الذى أدخلنا للمثول بين يديه على حال أحسن بكثير منهم. فقـد وجـدنا هنـاك رجلاـ بـدينا يناهز الخمسين من عمره، عليه رداء من الفرو، و فى رأسه طربوش، يجلس فى جناح خارجى مؤثث تأثيثا اعتياديا، و مفتوح على الساحة بكليته. و كانت هناك على الأرض سجادة لا بأس بها،

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۵۲

و كان المسند و الأفرشة التى جلسنا علينا مغطى بقماش من الحرير القرمزى.

و كـان الباشـا، على مـا ذكرت، رجلا- بـدينا فيه شـىء كـثير من سـحنة التتر، و لكن بشـكل مقبول. و قـد تحـدث إلىّ كثيرا، رادا على فارسيتى باللغة التركية.

فكان حـديثه على وجه العموم شـيقا بالنسـبة لمقام الباشوية الذى يشـغله. غير أن المجلس كان فيه عدد كبير من الأشـخاص لا يسـمح للباشا بأن يفتح لى قبله بحضورهم، كما كان من المؤمل أن يفعل لو كان لوحده على ما روى لى عنه.

فقـد كـانت الغرفـة ملأى بأناس كانوا يرتـدون ملابس تركيـة و عربيـة و إيرانيـة و كرديـة، و لم يكن يخلو المجلس من المحـدثين و المتكلمين. و لما كانت الفائـدة من مثل هـذا التحدث قليلة نهضت بأقرب ما كانت تسـمح به اللياقة و الحشـمة، و بعد أن ترخصت من فخامته ذهبت لزيارة الكهيـة الـذى كان يجلس فى غرفـة مظلمة تقع فى ممر يبدو على درجة كبيرة من الكآبة. و فى مثل هذه الدهاليز المظلمة من سـرايات الأمراء و الباشوات تقترف حوادث القتل و الاغتيال الكثيرة عادة. فإن الضحية المسكينة التى يراد الإجهاز عليها ما إن يمر منها و هو خلى البال مما يهـدد سـلامته حتى يجـد نفسه و قـد لفّ شال حول عنقه من الخلف قبل أن يصـرخ بكلمـة «اللّه»، أو يخرج إليه من باب جانبى ألبانى جلواز فيفرغ النار من قربينـة (بندقيـة صـغيرة) فى بطنه، أو يطلق خرطوشـة مسـدس فى دماغه، فينتهى أمره و سرعان ما يشاهد جذعه الخالى من الرأس معروضا فى «الميدان». و قد حدث شىء من هذا القبيل قبل مدة قصيرة فى هذا الممر بالـذات، على ما روى لى، على أنى اجتزته سالما و الحمد لله فوجدت الكهية، الذى كان على رأس الجيش المنكسـر جالسا فى زاويته و بـالقرب منه عقيـد فى الجيش النظـامى، و ضابـط من ضـباط الخيالـة الألبانيين، و عـدد من أناس غير معروفين، مسـطرين فى جوانب الغرفة الثلاثة و قد جاءوا يهنئونه على

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۵۳

مآثره الأخيرة على ما أحسب. لأنهم على ما يقولون قد قاموا بأعمال باهرة برغم هزيمتهم المنكرة! فقد أقسم قائد المدفعية أيمانا مغلظة بأنه أطلق خمسـمئة قذيفة من مدافعه، فقتلت كل قذيفة خمسة عشـر رجلا من رجال العدو. و هو لا يذكر رقما «أكبر» من هذا لأنه يود أن يبقى فى ضـمن الحـدود المعقولـة القابلـة للتصديق! و مع كل هذا فقد أجبروا على التقهقر بطريقة من الطرق، إنه يعترف بهذا على كل حال.

و قـد اكتفينا هنا بزيارة قصـيرة: إذ تناولنا القهوة و دخّنا شـطبا أو شـطبين - هـذا ما فعلوه هم على الأقل- ثم عدت من السـراى محفوفا بلفيف من خـدام فخـامته و هم يطالبوننى، و ليس يرجوننى، بالهـدايا مطالبـة ملأى باللجاجـة و الإلحاف. و هـذا إزعاج ممجوج للغاية تشاهـده هنا و فى اسـتانبول، لكنه أشـد إزعاجا هنا. فإن «جميع» الخـدم الـذين يقفون فى خدمـة أى رجل كبير تزوره هنا ينتظرون من الغريب أن يطعمهم أو يقـدم لهم هديـة من الهـدايا، و قد أصـبحت هذه العادة الممقوتة جزءا من الوضع العام بحيث إن الخدم يعدون هـذه الإكراميات قسـما من أجورهم أو رواتبهم، و لذلك لا يمكن لأى شـخص أن يتحاشـى الإذعان لها. فكل فرد أو مراجع لا بد ان يسـتفيد من المراجعـة فيـدفع لهم تبعا للفائدة التى يحصل عليها. إذ يدفع الموظفون و المسـتخدمون هذه «الرسوم» لخدام الرجل الكبير من أجل تكوين أصدقاء فى الديوان، بينما يدفع لهم هم بدورهم من يروّجون له أشغاله. و هكذا أصبح هذا التعامل عادة شائعة بحيث إن المرء لا- يمكنه القيام حتى بزيارة اعتياديـة بسـيطة دون أن يـدفع شـيئا للجميع. و قـد أصـبحت هـذه فى السـراى على الأخص عادة ممقوتـة للغاية، إذ يحدق الأتباع و الخدام الذين لا حصـر لهم بالمرء كاللصوص، و ينفذ الاجبار على الدفع إلى حد قيام الجنود الذين يقفون للتحية بمد بنادقهم لقطع الطريق عليك حتى تدفع «الرسم» المطلوب.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۵۴

و لا- أدرى إذا كان لا بـد لى أن أعود إلى موضوع الباشا نفسه، على أن رسم صورة تقريبيـة لبغـداد لا يمكن أن يتم من دون تكريس

عدد من جرات القلم لوصف سيدها الحالى. فقد سبق لى أن أتيت على وصف على باشا و مظهره الخارجى. أما عقله فليس أكثر جاذبية من الوعاء الذى يحل فيه. فهو ضعيف الرأى، واهن العزيمة، متردد فى العمل، فظ فى قابلياته و شهواته، أنانى جشع. و المقول عنه إنه غير ميال فى طبيعته إلى القسوة أو الظلم و لكنه يكره ازعاج نفسه بالإجهاد من أى نوع كان بحيث إنه يفضل تعذيب الآخرين من دون رحمة على الخضوع لمثل هذا الإزعاج و لو أدى به الأمر إلى ارتكاب أفظع الجرائم. و لذلك استغل خدامه نقطة ضعفه هذه، و الطمع الذى يساوره، فى الجور على الناس لأنهم مطمئنون بأنه لا يمكن أن يشاجر أحدا يأتى له بالمال و لا يعمل على إقلاق راحته. و هو على ما يقال دمث الأخلاق، مطلع على شىء غير يسير من الأدب التركى، و قد سمعت من مصدر ثقة أن أبيات الشعر التى ينظمها بالتركية لا بأس بها. لكنه بمجموعه رجل ذو ميول خسيسة، و غير لائق أبدا للمنصب العالى الذى يشغله بمسؤوليته الكبيرة .

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۵۵

و للباشا ولع شديد بالكيمياء القديمة (السيمياء) من بين جميع الصنعات الأخرى، و هو يصرف على ما يقال مبالغ غير قليلة على الدراويش و القلندرية و المغامرين الذى يدعون المهارة بها. و لو أردنا تصديق الأخبار التى ترددها الأفواه نجد أن هذا المال لا يصرف كله عبثا، إن هناك الآن رجل فى هذه المدينة قد نجح بالفعل، كما يؤكد البعض، فى قلب النحاس الأصفر إلى ذهب و الرصاص إلى فضة. و يمكنكم بأن تطمئنوا هذا الخبر كان كافيا ليوقظ فىّ حب الاستطلاع، فقررت أن أرى إن أمكن هذا الكيميائى أو بعض الناس الذين شاهدوا بأنفسهم هذه العملية على الأقل. فتبين بعد البحث أن التجربة قد أجريت بحضور الباشا نفسه و رجل إيطالى يدعى المسيو دى ماركى ، كان يشرف فى زمن الباشا السابق (أى داود) على المسلح (دار الأسلحة) و دار سك النقود (السكة خانة) معا، و استمر على ذلك حتى الوقت الحاضر. و هو فوق هذا كله رجل بارع. و قد حصلت منه على قصة هذه التجربة كلها، و هى إذا لم تؤيد بالتمام جميع ما أخبرت به فى هذا الشأن فإنها على الأقل تثبت أن الباشا كان يتعامل مع رجل غير دجال. فقد أعلن هذا الرجل، و هو عربى، فى الأخير انه على استعداد ليجرب فنه بعد أن ظل عدة شهور يشتغل فى مختبره فى تحضير أكاسيره و مركباته، و تسلم كثيرا من المال لمتابعة العمل. و إذ كان المسيو دى ماركى مشككا فى الموضوع و غير مؤمن بدجل هذا الفنان الماهر، فقد قرر أن يراقب العملية بدقة ليكتشف الادعاء الفارغ، و يزن بيديه هو نفسه النحاس الأصفر، الذى جاء به هو أيضا ليقلب إلى ذهب، و يضعه فى البودقة.

و قد أجريت العملية فى مختبر «السكة خانة» و استعملت أجهزته فيها. و فى

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۵۶

أثناء العملية طلب الرجل شيئا قليلا جدا من الزرنيخ الأبيض و الأصفر، و لأجل أن يحول المسيو ماركى دون استخدام أية حيلة بعث يجلب هذا المركب من مخزن كان بوسعه أن يعتمد عليه فى كونه يبيع أشياء أصلية غير مغشوشة. و قد وضع هو بنفسه حتى الزرنيخ فى البودقة، و لم يتقرب الكيميائى الممتحن منه مطلقا سوى لإضافة كمية قليلة جدا من مسحوق معين أخرجه بملعقة صغيرة من احدى العلب. و سكب المسيو دى ماركى بنفسه المعدن المتميع حينما أصبح جاهزا من البودقة و حفظه عنده. فوجد عند ما فحصه أن قسما منه قد استحال إلى ذهب بالفعل، و حينما وزن الكتلة كلها وجدها أثقل قليلا من النحاس الذى كان قد وضعه فى البودقة. فاستفسر من الكيميائى العربى كيف يمكنه أن يعلل هذا الفرق فى الوزن، فذكّره هذا فى الحال بالزرنيخ المضاف الذى يؤلف بمجموعه نفس المقدار إذا ما أضيف إليه النحاس. و قد أجرى المسيو دى ماركى بعد ذلك التجربة نفسها فوجد النتيجة على مثل ما قال عنها رجل الكيمياء الماهر.

ثم عمد المسيو دى ماركى بعد ذلك إلى مفاعلة الكتلة كلها مع ماء الفضة (حامض النتريك) فأذاب ما تبقى من النحاس الأصفر و ترك الذهب و كأن لم يمسسه شىء، و حينما وزن هذا تبين أنه يقدر بثلث الكتلة كلها.

و عند ما طلب إليه أن يبين لم لم ينقلب النحاس كله إلى ذهب أجاب إن العملية كلها عبارة عن عملية تجريبية و هى لا بد أن تكون

غير تامة من جميع النواحى، أى أنها كانت على ما أعتقد ثانى تجربة أجراها مع هذه المواد. و قد فحص الذهب و أخضع لتأثير حجر الحك (محك الذهب) فى السوق فوجد أنه على أحسن ما يكون، و أنه ذهب يمكن تسويقه.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۵۷

و لم يكن المسيو ماركى سخيفا بحيث يمكن أن يتواطأ فى عملية تزييف يمكن أن تصدر من هذا الرجل العربى، و لذلك أجد نفسى ملزما بتصديق قصته و معتقدا بها ضمنيا. و قد كان المسيو دى ماركى حذرا فى إعطاء رأى ثابت فى الموضوع، و إنما أعلن فقط عن عزمه على مراقبة حركات الرجل و خاصة خلال قيامه بإجراء تجربة أكبر من التجربة السابقة فى خلال الأيام القليلة التالية. فأبديت رغبة قوية فى الحضور أثناء القيام بإجرائها، غير أن المحاولة صرف النظر عنها، لأنها لم يكن من الممكن إجراؤها من دون المجازفة باستثارة حسد الباشا فى أمر يكون شديد الحساسية فيه على الأخص.

و قد علمت بعد ذلك أن المحاولة قد تمت فكان الإخفاق حليفها، و طلب الرجل السماح له بالذهاب إلى جبال كردستان على ما أعتقد ليجمع منها بعض ما كان يحتاجه من المواد. لكن الباشا رفض أن يسمح له بمغادرة المدينة خوفا من عدم عودته بطبيعة الحال. فما أغرب هذا الخليط المتكون من الإيمان بالشىء و عدم الثقة به فى الوقت نفسه!! فالباشا يؤمل و يعتقد اعتقادا جازما بنجاح محاولات هذا الرجل، و مع ذلك فهو على تغاضيه عن نفس الأشياء التى يجب أن تفتح له عينيه و تقضى على آماله يتمسك بها برغم ما تدل عليه قدرته فى التمييز و الحكم على الأشياء. و قد ذهبنا ذات يوم لزيارة الكيميائى المذكور فى معمله، فكان رجلا اعتيادى المظهر ميالا إلى البدانة، من دون أن تبدو عليه أمارات العبقرية و الجرأة فى الحديث. و كان عند دخولنا قد أخرج لتوه من الفرن شيئا مسخنا إلى حد البياض، و هو جرعة لأمير المناطق الجنوبية ذات رائحة كريهة. و قد كان الرجل و قتذاك فى حالة أشبه بحالة الاعتقال المبجل، و إنى أرى أنه إذا لم يعمل فى الحال على اعادة شىء من مال الباشا بشكل سبائك ذهب فما عليه إلا أن ينصرف إلى البحث عن اكتشاف يجعله منيعا ضد الشنق أو الإعدام، لأن تطاول صبر الباشا و انتظاره سيؤديان به إلى الموت إذا امتد إلى أكثر مما امتد إليه حتى الآن.

و قد أخبرنا دى ماركى بأن عدة أشخاص من مثل هذا الرجل قد أقنعتهم سلامة نية الباشا الممزوجة بالطمع إلى محاولة هذه العملية. و من هؤلاء أناس وقعوا فى الشرك الذى كانوا قد نصبوه لفخامته، بينما نجح آخرون فى غشه

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۵۸

و ابتزاز مبالغ غير يسيرة منه. فرثى لسلامة النية الموجودة عنده، بينما كان يستنكر الضعف المؤدى إليها. و كان من الواضح أنه كان يعتقد بأن المغامر الذى كنت أسهب فى التحدث عنه لا بد أن يظهر دجله فى النهاية، و يكتشف احتياله، كذلك.

أما الدراويش و الفقراء و القلندرية و المتسولون و المتشردون من جميع الأنواع فليسوا قلة فى بغداد، إنها فى الحقيقة موطنهم الملائم. و مع أنهم لا يدعون كلهم بقدرتهم على صنع الذهب فإنهم يجدون الوسائل المناسبة للتمتع بعيش مريح بكفاية من تصدق المسلمين عليهم و اعتقادهم بالخرافة هنا. فهناك عدا الإخوان المتولين عدة تكيات لهؤلاء الناس هنا، كما فى استانبول، و هى تنعم بمقدار غير يسير من الخيرات و الهبات. و لا يقوم أعضاء هذه الربط بالاستجداء بصخب و علانية، لكنهم لا يردون هبات الميالين إلى التصدق من الناس و هداياتهم. و يحصلون على المال بوسائل مختلفة، و خاصة وسيلة القيام بمعجزات مزعومة. فلا يعطون الرقى و التعاويذ ضد المرض و الجروح و الشرور من جميع الأنواع فقط، و إنما يوجد أيضا صنف منهم يزعمون أنهم لا يؤثر فيهم الحديد و لا يمكن حرقهم بالنار. و يجتمع هؤلاء فى أيام الجمع حول قبر من قبور الأولياء الذين ينتمون إلى صنفهم و يعرضون معجزاتهم على الناس المندهشين الذين يأتون للتفرج على حلقاتهم القدسية. لكننى قبل أن أروى لكم قصة زيارة قمت بها لهؤلاء المتعصبين أرانى ميالا إلى أن أسجل لغرض تثقيفكم بعض التفصيلات المختصة بدراويش بغداد، التى اقتبستها من أوراق أحد الأصدقاء حول الموضوع.

فهناك على ما يبدو فى بغداد ثلاث طبقات كبيرة من الدراويش:

أولا- دراويش التكايا الموقوف لهم، و ثانيا المتسولون المتفرقون الذين يمكن أن نسميهم بالمتوطنين، و ثالثا القلندرية أو الأولياء المتجوّلون.

و يعيش دراويش التكايا من واردات خاصة يحترمها حتى أسوأ الحكام.

و الحقيقة أن بعضهم رجال منصرفون إلى الدراسة و التأمل، و بعضهم الآخر متعصب متحمس، و العدد الأكبر منهم ينهمك فى الشهوات و يدمن على

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۵۹

المسكرات و هؤلاء مجانين غريبو الأطوار. و هم يلبسون فى رأسهم قبعة مخروطية الشكل تصنع من اللباد أو القطن المنسوج و تزين حاشيتها أحيانا بالمرجان أو شغل الابرة المشغول بخيوط ملونة، كما يلبسون سترة غامقة اللون و يحتذون نعلا خفيفا. و يحملون أحيانا صولجانا من الحديد أو بلطة خاصة، و إناء أسود مجوفا يصنع من ثمر بعض النخيل و يعلقونه بسير من الجلد فى أيديهم. و تعلم أجسامهم بعلامات خاصة تدل على طبقة الواحد منهم و مرتبته.

و على دراويش التكايا المختلفة أن يجتمعوا مساء كل جمعة بحلقة كبيرة و بين يديهم شيخهم المريد، فى مكان معرض للمتعبدين العديدين و المتفرجين المستطلعين من المدينة. فتوضع فى الوسط مناقل من الفحم المشغول مع السيوف و الخناجر و حربات الحديد الطويلة الحادة المثبتة فى قبضات خشبية سميكة مزودة بعدد كبير من حلق الحديد المتحرك الذى يحدث جلجلة خاصة عند التحريك. ثم ينبرى أخ من إخوان الحلقة إلى ترنيم بعض الأدوار بنغمة محزنة فى ذكر اللّه و تمجيده، و تعابير إلهية بعيدة الفهم، أو إلقاء مرثاة عن وفاة شهيد من الشهداء و معاناته، تصحبه فى ذلك و تسيطر على نغماته نقرات طبلة يقوم بالنقر عليها شخص آخر منها. و بعد أن يخيم السكون و الخشوع على كل شىء مدة من الزمن ينهض فى الأخير أخ أو أكثر من الإخوان ببطء، و إذ يأخذ بالاهتزاز القليل طردا و عكسا يشرع بترديد الكلمات «حق، حق، هو، هو، هو الحق» و يتأمل بكلمات الذات الإلهية فى الوقت نفسه. و فى هذه الأثناء تزداد حركاته سرعة و استمرارا فتنقلب إلى دوران و تدويم بالتدريج و تصبح شفتاه بفعل حركاته و سرعة ترديده للكلمات مغمورتين بالزبد، و عيناه مسدودتين جاحظتين، و تشكل خصل شعره الطويلة شيئا أشبه بالهالة من حول رأسه، و يزرق من الإجهاد، فيسقط فى النهاية منهكا لا حراك له و هو يسبح فى عرقه.

و إذ يستفز هذا المنظر إخوانه الآخرين يحذون حذوه فى هذا العشق الإلهى حتى يهجم المشاهدون الدنيويون، و قد سيطر عليهم الهياج لحد الجنون، إلى استنشاق النفس و التمتع ببركات شيخ الحلقة. ثم يأخذون

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۶۰

السيوف و الخناجر و الحربات الباردة أو المسخنة فوق النار و بعربدة و حركات تشبه عربدة السكارى و حركاتهم يضربون أنفسهم بالأسلحة، أو يضعون الحدائد المشتعلة فوق وجوههم، و هم يقدمون التضرعات و الابتهالات لولى من الأولياء أو شهيد من الشهداء، أو يصرخون بكلمة هو! و أخيرا يسقطون على الأرض و منهم من هو جريح مضرج بالدماء، أو سالم من الأذى لكنه يتمرغ على الأرض كالمأخوذ، أو هامد الجثة لا حراك فيه. و المعروف أن الذى يجرح فى معركة المكر و الخداع هذه مع الحماسة و التورع يكون قد أدى حسابا عن ذنوب قديمة لم يكفر عنها من قبل، بينما يخرج الظاهر منها سالما من دون أذى تحميه بركات الشيخ و أنفاسه. و قد تنشأ حوادث خطيرة عن مثل هذه الاستعراضات المؤلمة، التى تعاد برغبة أى سيد مغرض من السادة فى أى وقت يختاره لتجربة أتباعه و الوقوف على مقدار إخلاصهم و ورعهم، أو لنشر نفوذه و سلطته الروحية.

و يندر الاستجداء بين هذه الطبقة من الدراويش، و لكنهم جميعا حينما يتنزلون لالتماس الصدقة و الإحسان يرددون كلمة «حق» أو «هو» بنغمة عميقة و صوت جهورى طنان، و قليل من الناس من يرفض مثل هذا الطلب المتصف بالقدسية لأن المفروض أن مثل هذا الرفض لا بد أن تعقبه إصابة أحد أفراد الأسرة بمصيبة أو نكبة. و هم وحدهم يستطيعون الدخول إلى أى ديوان أو بيت من دون أن

يحاذروا من شيء و بصرف النظر عن أى عائق، و لهذا السبب يكون هؤلاء قادرين على أخذ ما يريدون و على استحصال المعلومات التى تبدو من قبيل المعجزة فى بعض الأحيان. و قد شذ بعض المنتمين لهذه الطبقة شذوذا كليّا بدافع من خيالهم البعيد، و انتحالهم المتكرر للقيام بالأعمال الخارقة، بحيث صاروا ينتحلون الألوهية نفسها و يرددون على الدوام «أنا الحق». لكن هذه القحة، على استعصاء أمرها، كانت السلطات الزمنية فى الإسلام تعاقب عليها بالموت على الدوام. و الملاحظ أن هذه النقاط تشمل أنواعا عدة من دراويش التكايا- أى الدراويش الراقصون و الدواموا الذين يطلق عليهم أحيانا «الدراويش المولولون» فى استانبول حيث يوجد منهم عدد غير يسير كذلك،

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۶۱

و الدراويش الذين يدعون بعدم تأثير النار فيهم ممن ألمعت إليهم آنفا.

أما الصنف الثانى من الدراويش الذين أطلق عليهم اسم المتوطنين- أى المنتشرين بين الناس بكثرة فهم موجودون فى معظم المدن الشرقية. و هؤلاء يظهرون بمختلف المظاهر و الألبسة التى تناسب زيهم، و أحوالهم، و طلاقتهم فى الكلام، و حركاتهم التى تتطلبها الأغراض المختلفة التى يحصلون على الصدقة و الإحسان بواسطتها. و لذلك يختلف مظهرهم، و الهيئة التى يظهرون بها، اختلافا كبيرا على قدر الإمكان. فقد يكون أحدهم مثلا رجلا أنيقا نحيل الجسم، ذا بشرة سمراء داكنة، و لحية سوداء، و شاربين مشذبين بترتيب و لطف، يلبس فى رأسه عمة قطنية بيضاء، و سترة من الوبر البنى اللون، حافى القدمين، يتوكأ على عكاز فى يده، و له عينان لا تريان النور لكنهما غائرتان فى وجه لا يزال معبرا، يتقدّم بطلعة منتصبة و مشية حذرة، و بصوت عذب يرتل قائلا «أنتم أيها المدينون لله! أعطونى من نعمته يفك لكم ديونكم! أنتم أيها المثقلون بالغم و الكدر أدخلوا السرور على عبده يخفف اللّه من أحزانكم».

فيخلط مستمعوه صدقاتهم بالهزء و السخرية، و يتسلمها الدرويش بصبر و تحمل و يعود بها إلى زاويته الخاصة فى المسجد التى تعد مكانه و مأواه الذى يجرى فيه تأملاته و يؤدى صلواته، و يستعيد استعمال عينيه حتى تستدعى الضرورة من جديد أن يستدر عطف المسلمين عليه.

و قد يكون الثانى رجلا بدينا قصير القامة مرتب الهندام، له لحية كثة قصيرة قد تطرق الشيب إليها، و وجه ممتلىء، و عينان صغيرتان رماديتان زائغتان يحجبهما حاجبان كثان، و فم بشفتين ضخمتين، و أنياب كبيرة عارية تصلح لأكل الأشياء جميعها. و يرتدى ملابس قطنية بيضاء تغطيها عباءة عربية من الصوف الأبيض، فيقف على دار يبدو عليها أثر النعمة و الثراء فينفخ من رئتيه العميقتين أقوالا فى مدح النبى تختلط بوصايا تأمر بالبر و الإحسان و التصدّق على العارى و الجائع و المحتاج. فلا يخطىء المرمى، إذ يخف إلى الباب اثنان من العبيد السود، ذكر و أنثى، لغرضين مختلفين- أولهما لطرد المتطفل و إبعاده عن الباب و ثانيهما لتقديم المساعدة اللازمة إليه، فيختلط

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۶۲

صخب العبدين المتنازعين بولولة المتسوّل، لكن الأنثى سرعان ما تتغلب فتنهال على الشحاذ القوى صدقات أهل البيت.

و قد يكون الثالث شخصا نحيلا غامضا، ذا أطراف مرتخية قليلة العضلات- أى عبارة عن هيكل كامل يدل على مقدار تقرب الأحياء من الموتى. و بهذه الدرجة من الهزال ربما يكون عديم الأسنان و الشعر، كليل العينين، يكتسى مجموعة من الأسمال البالية، و لا يحمل عكازا تتوكأ عليه أطرافه المرتجفة فيسحب هيكله نصف الحى من باب إلى أخرى. و حينما يتمدد على الأرض يعرض مناظر من جسمه تستدر الرحمة و العطف عليه. و بعد أن يرق له الناس فيتصدقون عليه يحمل فى زنبيل و يبعث إلى مخبئه ليعود فى اليوم الثانى إلى وضعه السابق، فيستدر عطف الناس من جديد.

و يتألف الصنف الثالث، أى صنف القلندرية، بوجه عام من خيار الدراويش و أنشطهم، و أصغرهم سنا. و هؤلاء هم المشتغلون بالكيمياء القديمة و المنجمون و العرافون و المنشقون فى عالم الصعاليك. و يكون توفيق هؤلاء وجدهم فى تبدل مستمر، لكن حضور

ذهنهم يكون مساويا على الدوام للحالات المفاجئة التى يجدون أنفسهم قد تورطت فيها. و هم بوجه عام صوفيون فى ديانتهم، أصحاب مرونة فى سلوكهم و تصرفهم، سريعو الإدراك، حاضرو البديهة، شديد و العزم، أقوياء البنية. و قد تعودوا أن يلقوا على أكتافهم بجلود الأسود أو الفهود أو الوعول غير المدبوغة. و يسمحون لخصل شعرهم بأن تنمو حسب الإرادة، أو يضفرونها بأشكال مختلفة غريبة. و قلما يوجدون و هم من دون سلاح، و إذ يكونون معتمدين دائما على استعداد المسلمين المتعصبين للاعتقاد بالأشياء الخارقة، فهم دوما مزودون تزويدا حسنا بالوسائل التى يستخدمونها فى صنع بعض الظاهرات الكيميائية التى تلفت النظر، و بمعاجين العشق و أشربة المحبة و الرقى و التعاويذ و مختلف وسائل فتح البخت و علم الغيب لتساعد انتحالهم للمهارة فى شؤون الكهانة و العرافة.

و يقدم لنا تأريخ السيد مأمون المصطفى، و هو رجل شاب ولد فى واد من أودية آشور، نموذجا حسنا لروحية هذه الطبقة من الدراويش. فهو حينما

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۶۳

كان يمر فى دور الدراسة و التعلم ليتبوأ مكانا مناسبا فى عالم الملالى استولت عليه الرغبة فى السفر و التطويح فى أرض اللّه الواسعة، فترك بيته و أهله برغم توسلاتهم فى العدول عن ذلك. و قد كان شابا طويل القامة قوى البنية جميل المحيا، ذا بشرة بيضاء و عينين سوداوين، فشرع فى رحلاته مؤملا نفسه بالآمال المعسولة و المستقبل المملوء بالمسرات و العجائب. و بعد تجوالات طويلة أجراها بين المغاربة، سحرة العالم الإسلامى المعروفين، و بينما كان فى طريقه إلى بلاد الجوغى و البراهميين فى الهند، دخل بغداد فنزل فى المستنصرية، و هناك حضر المحاضرات الدينية التى كانت تلقى بوجه خاص على طلاب المذاهب المختلفة، على أن عقله ظل غير مكتف و ذهنه غير مقتنع.

و قد شعر فى قرارة نفسه بأنه متفوق على من كان يحيط به من الناس، و أخيرا تراجع و هو قلق لا هدف له إلا الاعتكاف فى مسجد مجاور كان يقضى فيه أياما عديدة متوالية من دون أن يتذوق طعم الأكل أو يتناول شيئا منه.

فحاول إمام المسجد، و هو متأثر بهذا التدين الفريد، أن يحثه على الخروج و السعى وراء القوت الذى يقوم به أوده. لكن نتيجة المقابلة أدت به إلى الاعتقاد بأنه أمام ولى من أولياء اللّه، و أعلن نفسه من أتباع هذا الناسك المتعبد الذى عمل على تزويده بالقوت و الطعام، و اجتذاب الناس إليه.

و قد دبر مأمون أمر الحفاظ على خداع الناس بطبيعة وجوده المحاط بالمعجزات، بتناول شىء قليل جدا من الذخائر الوفيرة التى صارت تتيسر له، فكانت شهرته تزداد يوما بعد يوم. و أخذ النساء العقيمات يتوسلن ببركاته و تعاويذه، و صار العميان يقصدونه ليرد لهم بصرهم، و العرج ليعيد إليهم قابلية استعمالهم أطرافهم. كما أخذ الكيميائى الفاشل يستجدى عونه فى الحصول على أكسير فعال مفيد، و راحت النساء المهجورات يقبلن أقدامه ليزودهن بأشربة الحب الجذابة، و صار الراكضون وراء الخوارق العجيبة ينتظرون منه المعجزات التى تعزى إلى السحر عادة، كالركوب فى الهواء، و القدرة على كشف الأشياء غير المرئية، و تنفس النار، و قلب الإنسان إلى طير أو حيوان من ذوات الأربع، و التراب إلى رمل من الذهب، و الحصى إلى نقود. لكن أغرب

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۶۴

جزء من عملية الخداع كلها كان الاعتقاد الذى يساور كل واحد من أصحاب المطالب هذه بأن ما كان يريد هو نفسه قد حصل بالفعل، فضاعت شكوك القلة المرتابة فى لجج الكثرة الكاثرة من المصدقين.

و بينما كانت الأمور تسير على هذه الحالة جاء أحد التجار يطلب مساعدة مأمون فى الكشف عن سرقة أموال تعود له و معرفة اللص الفاعل. فكان شىء من الخشية المتواضعة التى أبداها مأمون كافيا لإقناع التاجر بقدرة الرجل القديس على ذلك، و بالتعهد بتقديم هدايا كبيرة لمساعدته فى توسلاته الأصلية. لكن القديس ظل حييا متمنعا، فازدادت معروضات التاجر حتى انتهت بتسليم الدار و

المؤسسة و الطفل إلى الرجل الذى يملك مثل هذه القدسية و الحكمة الأصلية. و بعد أن أقام مأمون فى مسكن التاجر و استحكم فيه، شرع بإجراء تحقيقات دقيقة فى ظروف الأشخاص الذين يمكن أن تكون لهم علاقة بالسرقة، و أشار على التاجر بأن يجمع فى يوم معين جميع خدمه ليختبر فيهم تأثير بعض الرقى و التعزيمات التى خرج بعد ذلك لاستحضارها.

و بعد أن عزل نفسه عن الأسرة بأجمعها خلال الفترة التى أعقبت ذلك ظهر فى الوقت المعين أمام الخدم الذين قرر اجراء تعزيماته عليهم، و هو يرتدى ملابس من الحرير الأسود و ينثر خصل شعره الفاحم الأشعث بحيث ينحجب وجهه وراءها، و يحمل فى إحدى يديه مبخرة ممتلئة بالنار و فى الأخرى كيسا صغيرا أسود يحتوى على التمائم و العقاقير. ثم أخذ شيئا قليلا من العقاقير و رماه بصمت و هدوء فوق النار فى المبخرة التى كان يتصاعد منها دخان كثيف و رائحة نفاذة للغاية، و بتأثير هذه الرائحة القوية و التهيج الذى كان يوحيه المنظر العام فى نفس الحضّار، الذين كانوا جالسين فى ذلك الوقت، نهضوا كلهم مرة واحدة و هم يرددون «اللّه، اللّه». و قد انحنى إلى الأمام حتى التاجر المسروق، الذى تصور المصير الرهيب الذى كان من المنتظر ان يصيب اللص المجهول، و كأنه يريد أن يوقف إن أمكن سير التعزيمة و تقدمها. و لكن الرهبة أخرسته و تمادى الساحر فى عمله.

ثم أخذ من الكيس عدة حبيبات داكنة اللون و صار يعرضها للرائحة التى

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۶۵

كانت تتصاعد من المبخرة، و قد قرأ بلهجة غائرة الابتهال و الدعاء التالى: «إلهى يا رب العالمين أجمع، يا مدبر الطبيعة و الأكوان الذى يخترق عبيره المادة كلها امنحنى الآن شيئا من طاقتك و قدرتك». و بهذه الكلمات تقدم نحو الأشخاص المشتبه بهم الذين أصبحوا فى هذه المرحلة فريسة لعاطفة جامحة. و قد كانت الاعراض البادية على كل منهم تختلف اختلافا بينا، لكنها كانت تلفت النظر.

فقد ظل أحدهم واقفا بانتصاب تام، لكن ذراعيه المتيبستين الملتصقتين بتشنج إلى جنبيه، و فمه المغلق المزموم بشدة، و عينيه الجامدتين، و جلده الناشف، و الدائرة الزرقاء المحيطة بشفتيه المضغوطتين اللتين لا لون لهما، كانت كلها تدل على نزعه العقلى المرير. و كان الآخر يتلوى كالحية، و تتحرك كل عضلة فيه بتشنج غير يسير، بينما كانت تتساقط قطرات العرق من جسمه. و كان كل طرف و نهاية فى جسم الثالث يتحرك حركة غير مسيطر عليها، فكانت شفتاه تتحركان بحركة لا إرادية و عضلات جلدة رأسه تتلوى كأنها كانت تسحب بعنف. أما الرابع فقد خر ساقطا على الأرض و الزبد يملأ فمه، و راح يتمرغ بحركات مخفية، و يبذل جهودا غير مثمرة على ما كان يبدو للتكلم بوضوح.

و قد كان من شأن النزع الذى أصيب به الفاعلون، و الشعور المسيطر على المشاهدين الآخرين، أن ينذر مأمونا بأن ينهى المشهد و يختمه. و لذلك أخذ التاجر جانبا و قال له: «الق حجابا محسنا على الجريمة التى ثبت وقوعها بمثل هذا الوضوح و عوقب مقترفوها بهذه الشدة. ودع كل رجل يرمى فى منتصف الليل ملء حجر واحد من التراب فى زاوية باحة الدار تحت النجم القطبى، و عند طلوع الشمس ابحث هناك عن المال المسروق منك».

و من المحتمل أن يكون ذلك البحث عن المال قد اقترن بالنجاح، لأن شهرة الولى القديس، و الاعتقاد بقدرة تعزيماته و تعاويذه، قد ازدادت ازديادا عظيما بحيث إن الرجال المرموقين فى حكومة الولاية كانوا فى عداد أتباعه المخلصين. و صارت أسرار السمياء، و التعاويذ ضد الجروح أو التعرض للكوارث و النكبات، أو خسارة العطف الملكى أو وظيفة من الوظائف، تطلب منه بشوق و حماسة مع الثقة التامة بتأثيرها و شدة مفعولها، و كانت تقدم له

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۶۶

مكافآت سخية من أناس آخرين للاشتراك فى مثل هذا النوع من القدرة و السيطرة. و لكن ذلك لم يكن من شأن هذا الولى المكار، فقد كان يصرح أن قدرته هذه ليست من النوع الذى يمكن البوح بأسرارها و لا يمكن أن ينالها كل أحد إلا الذين تشملهم العناية

الإلهية بعطفها و توفيقها. على أن مثل هذا الاعتذار و التملص لم يكن مقنعا للجميع، و لذلك صار بعض الناس بدافع من حسدهم و خيبة أملهم يراقبون أعماله عن كثب و يتسقطون حركاته و سكناته.

و من سوء حظه أن يجعله نجاحه المطرد على جانب أكبر من الجرأة و التجاسر، فأدى به ذلك إلى أن يمارس خدعه و أحابيله بأقل ما يمكن من الحذر. و سرعان ما ازداد الشك و كثرت الريبة، و انكشفت ظروف كانت نتيجتها شؤما على نفسه و شخصيته. و أدى به تعطشه إلى الربح و المحصول إلى أن يقترف أعمالا- تنطوى على النصب و الاحتيال لابتزاز الأموال بمقياس واسع، يساعده فى ذلك المجال المتسع الذى هيأته له الثقة المتناهية التى كان يضعها فيه مريدوه و المخدوعون به. لكن سحره قد بطل و قل تأثيره، و انكشفت أعماله فى النهاية، فأعقب ذلك بسرعة فائقة الخزى و العار و العقوبة و الدمار.

و هنا أكتفى بهذا المقدار مما كتبه صديقى فى مذكراته و أعود إلى ملاحظاتى. فقد أشرت فى السابق إلى الزيارة التى قمت بها مع بعض الأصدقاء فى المقيمية إلى مرقد يغشاه الدراويش الذين يدعون بالمناعة الخاصة ضد الأذى من أى نوع كان.

فبعد أن اجتمع عدد من الدراويش، و عدد لا بأس به من الحضار و المشاهدين جلس الدراويش بشكل دائرى و ظلوا هادئين ردحا من الزمن كأنهم يغطون فى تأمل عميق. و إذ ذاك قام أحدهم فتعرّى من ملابسه إلى حد المحزم، ثم ذهب إلى ما يقرب من القبر حيث كانت تحفظ السيوف و الخناجر و الحراب، و أخذ خنجرين منها فراح يعرض نفسه ذهابا و إيابا فى داخل الفسحة الصغيرة المحاطة بإخوانه و جمهور المتفرجين. و قد كانت حركاته بادىء ذى بدء حركات بطيئة تكاد تدل على أنه كان منغمسا فى التأمل، لكنه أخذ يسرع الخطى و الحركات بعد قليل من الوقت و يلوّح بأسلحته حتى

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۶۷

استحالت بالتدريج إلى قفزات و نطات، و ظل الخنجران يلوح بهما بسرعة فائقة تكاد تضلل النظر. على أن المتفرج كان بوسعه حينما ينظر إليهما أن يلاحظ بأنهما كانا فى كل حركة من الحركات يرفعان و ينزلان فى جسمه هو كما لو كان يقصد بها أن تجرح رأسه و كتفيه و بطنه. لكن الخنجرين كانا معقوفين بحيث إن رأسيهما لم يكونا يضربان الجسم مباشرة، و كان هو يحرك الخنجرين بخفة و مهارة بحيث يضرب جوانبه بهما من دون أن ينزلهما على المكان الذى يوجهان إليه مباشرة. يضاف إلى ذلك أن الخنجرين لم يفحصهما أحد، و هما لا بد أن يكونا غير حادين على الوجه المطلوب اعتياديا. على أن الجسم مع جميع هذه الاحتياطات لا بد أن يصاب ببعض الجروح عرضا أو بالتقصد، و حينما أمعنت النظر وجدت أحد هؤلاء الدراويش ينزف دما من ظاهر بطنه.

ثم أخذ سيفا، أو سيفين بعد ذلك فأعاد نفس الحركات الجنونية و هو يتصنع ضرب نفسه بهما فى مختلف الأماكن من جسمه. و عمد علاوة على ذلك إلى وضع حد السيف على بطنه ثم سمح لدرويش آخر أن يتقدم من خلفه فيمسك السيف من القبضة و الرأس بكلتا يديه اللتين كانتا تلتفان حول محزمه، و بعد أن ضغط على السيف و هو بهذه الوضعية و شد عليه بقوة رفعه قليلا إلى أعلى و أخذ يدور به مرات عديدة بحيث كانت قوته المركزية كلها تضغط ببطنه على مشفر السيف نفسه. و يزعم كذلك أن الدرويش فى بعض الأحيان يستلقى على الأرض فيوضع حد السيف على بطنه و هو فى تلك الحالة، ثم يأتى أحد إخوانه فيدوس على ظهر السيف بكل قوته، و مع ذلك لا يؤدى كل هذا إلى حصول أى جرح فى جسمه. لكننى لم أر هذا بنفسى. و لم أرهم كذلك يغرزون حربات الحديد، الساخنة أو الباردة، فى عيونهم و سائر المواضع الرقيقة فى أجسامهم من دون أن يصابوا بأى نوع من الأذى على ما يظهر، و لذلك لا يسعنى أن أقول كيف يجرى تدبير هذا العمل. كما أننى لم أر مطلقا معجزات المناعة ضد النار، مثل مسك الحراب حينما تكون ساخنة إلى حد الاحمرار و حكها بوجوههم و أجسامهم. لكننى شاهدت ما يكفى ليحملنى على الاعتقاد بأن القضية كلها لم تكن سوى مهزلة سليطة تعد لتؤثر فى جمهور من المشاهدين حسن النية سهل الانخداع. و أن العار الذى يصيب من يظهر بمظهر

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۶۸

غير المعتقد لا بد أن يعمل على حماية هؤلاء الغشاشين المتطفلين على القدسية من أخطار الشك بهم و التدقيق الجرىء الذى قد

يتعرضون له.

و قد زرنا فى فرصة أخرى مرقد ولى مشهور من أولياء السنة، يسمى مرقد الشيخ عبد القادر الكيلانى، الذى شيد تخليدا له هنا ضريح و جامع من أفخم الأضرحة و الجوامع الموجودة فى هذه الجهات. و يتقاطر الزوار على تربته هذه من الهند و أفغانستان و بخارى و بلاد التركستان. و لم يكن حصولنا على الرخصة اللازمة لذلك يخلو من صعوبة، أو استجواب على الأقل، و خاصة حينما طلبنا مشاهدة داخلية هذا الصرح المقدس الذى يشرف عليه موظف دينى يسمى «النقيب»، و يعتقد بأنه سليل مباشر من سلالة القديس الأصلى نفسه. لأن الوضع هنا كان على جانب أكبر من الأهمية قبل أن يحدث الغرق الكبير و يتبوأ على باشا منصب الباشوية. فقد كانت هذه المحلة قبل وقوع الحوادث المشار إليها يسكنها جميع السفلة و المتشردين الموجودين فى البلد. إذ كان الناس الذين يشعرون بخطر الوقوع حتى فى قبضة العدالة المرتخية فى بغداد، يحتمون فى ظل هذا الولى الكبير. و لذلك كان يمكن العثور هنا على جميع الصوص و المحتالين، و جميع القتلة و «البلطجية».

فكانت «ألزاشية » بغداد هذه، و سكانها المختلطون، يمارس فيها صديقنا النقيب بوجه عام شيئا لا بأس به من النفوذ و السيطرة، كما كان السكان يكافئونه على حمايته لهم بمقدار بسيط من الطاعة، و بحماية تخوم ممتلكاته ضد الفضوليين و المتطفلين. و كان قليل من الباشوات فى الحقيقة من يجرأ على التدخل فى ترتيبات عش الزعانف و الأوباش هذا و حاميهم الدينى، أو يقدم على سوق الضباط أو الجنود ضدهم. و حتى داود باشا نفسه لم يستطع فرض إرادته على المحلة مع أنه برهن فى مرات عديدة على كونه رجلا لا يستهان به فعزل النقيب و ضربها بالمدافع أحيانا للقضاء على روحية الشغب المسيطرة فيها. كما لم يجد من المناسب أن يثير روحية التعصب الدينى إلى حد بعيد باتخاذ إجراءات ذات طابع متطرف فى الشدة. و الخلاصة، أنه لم

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۶۹

يكن هناك من يجرأ على الدخول إلى المحلة إلا أولئك الذين يستطيعون جعل «الأشقياء» المقيمين فيها يرحبون به. أما بالنسبة لنا نحن الذين كنا عبارة عن لفيف من الكفار فقد كان لا بد لنا أن نتقدم ضد قطيع من الثيران الهائجة لو أردنا أن نقوم بزيارتها هذه فى ذلك العهد و الزمن.

اما المستر ريچ فالحقيقة أنه لم يقم بزيارة النقيب فقط بل سمح له أيضا بأن يدخل المقام و يزوره. لكن طريقه إلى ذلك كانت قد ذللت صعوباته بالهدايا الثمينة التى كان يقدمها إلى ذلك الرجل المرموق، و لقد طمنا نحن بأنه لم يدخل إليه منذ ذلك الوقت سوى جماعة واحدة من الافرنج. لكن ذلك المشهد قد تبدل اليوم إلى حد كبير- فقد أتى الطاعون على جميع السكان الأوباش فى هذه المحلة، و أثر الغرق فى كل بيت من بيوتها تقريبا عدا المرقد، و ملحقاتها المباشرة، الذى ازدادت شهرته و قدسيته بمناعته هذه التى تعزى بلا شك إلى عمق الأسس التى يستند عليها و متانتها- إذ لم يبق من المحلة سوى جدران متهدمة و بضعة بيوت جديدة شيدت بعد النكبة. و لم يعد أحد من المدافعين الأشقياء الذين كانوا يدافعون عنها، و لذلك تجدها اليوم مفتوحة لكل من يرغب فى زيارتها. و قد كنا الجماعة الثالثة التى أبدت رغبتها فى مشاهدة المكان، فطالب النقيب فى بادىء الأمر بالهدايا التى أثبت لنا أنه قد تسلمها من المستر ريچ.

على أننى حينما أخبرته بأننا لم نكن سوى سياح بسيطين لم نكن نعلم بأننا يجب أن ندفع مثل هذه الأجور الباهظة عن الزيارة، برغم رغبتنا فى إشباع حب الاستطلاع الذى يساورنا، أجابنا بجواب لطيف، فذهبنا إليه. و قد استقبلنا برقة المتفضل علينا فى غرفة صغيرة حقيرة كانت جدرانها مبنية من الطابوق غير

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۷۰

المبيض. و إذا كان هذا يعزى إلى الظهور بمظهر متواضع فإن ملابسه الشخصية لم تكن تؤيد ذلك. لأنه كان يرتدى ألبسة حريرية فاخرة و فروا ثمينا، و كان يضع فوق رأسه عمامة بديعة من الشال الكشميرى- التى تكاد لا تتفق مع المظهر الذى يظهر به الدراويش.

غير أن الأولياء و القديسين فى هذه الأيام يتمتعون بامتيازات غير يسيرة، و يقال إن هذا الرجل بالذات يتمتع بثراء فاحش.

و قد كان حديثه متحفظا نوعا ما، فأظهر لنا ما يعبر عن نكران للذات من العواطف التى لم تكن بالتأكيد خارجة من القلب لأنه فى قرارة نفسه كان من الخارجين المشهورين على القانون، و خاصة للمشروبات القوية التى كان يضمر إعجابا شديدا بها. فإننى أعتقد فى الحقيقة أن هذه المحلة كانت فى أيام عزها تستهلك مقدارا من الخمر و العرق يزيد على ما كان يستهلك منهما فى المدينة كلها. و كان النقيب شخصيا رجلا جسيما، طويل القامة، أبيض البشرة، له أنف أقنى و عينان زرقاوان كبيرتان، و شكل رقيق الشمائل.

و بعد تقديم الشطب للتدخين و تناول القهوة، التى لا بد أن تقدم فى كل زيارة تركية، توجهنا إلى المرقد و الجامع اللذين كانا يستحقان تحمل الإزعاج و المشقة من أجلهما. إذ يوجد القبر فى الداخل تحت قبة فى جناح مثمن الجوانب (أو مربع)، مزين كالمعتاد بالآجر القاشانى، الذى كتبت عليه آيات من القرآن الكريم، و مفروش فرشا لا بأس به بالسجاد. و يقوم من فوقه سرادق من الحرير الأخضر، كما تحيط به شبابيك عالية من الفضة الصلبة. و الغريب فى الأمر أن هذه الشبابيك كانت هدية من أحد اليهود لهذا المرقد. و قد كان هذا الشخص صرافا لأحد الباشوات، و فى أحد الأيام اصطحبه سيده فى زيارة تعبدية لهذا المرقد فأخبر هناك بأن من عادة الغرباء أن يقدموا هدية من

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۷۱

الهدايا فى أثناء الزيارة، و سئل عن الشىء الذى كان مستعدا لتقديمه. فأجاب يقول «ان العادة إذا كانت كذلك فلا بد لى أن أتقيد بها بطبيعة الحال. دعونى أفكر قليلا- إن هذه الشبابيك مصنوعة من النحاس فى الوقت الحاضر، نعم إننى مستعد للصرف على استبدالها بالفضة .. فقوبل سخاء اليهودى بالترحيب الكثير، و ربما لم يخسر كثيرا فى النهاية على كل حال.

أما الجامع فهو بناية كبيرة جدا تشغل قسما غير يسير منها شرفات و مصليات جانبية، على أنه يوجد فى وسطه تحت القبة مباشرة فسحة يشغلها جناح واسع عال جدا. و هذه الغرفة، المربعة التى يتراوح طول الضلع الواحد منها بين السبعين و الثمانين قدما، تضاء إضاءة حسنة بشبابيك موجودة فى أعلاه، و مجهزة من أجل الليل بعدد من المصابيح المدلاة من السقف. و قد زين القسم الأسفل من الجدران الجانبية و المكتب، أو مكان القراءة، بالآجر القاشانى و فرش فرشا بديعا بالسجاد بحيث يبدو الوضع العام فيه و كأنه غرفة استقبال مريحة و ليس محل عبادة عار عن كل شىء كما هى العادة فى كثير من الأحيان. و المقول ان هذا الجامع يمكن أن يتسع لثلاثة آلاف شخص فى وقت واحد فى أثناء الصلاة. و يحاط الجامع بمربع من الأجنحة التى تحتوى على حجر تشبه حجر الخانات، و هذه يمكن أن يسكن فيها الزوار القادمون من مختلف البلاد و يطعمون من واردات المؤسسة التى يقال إنها كثيرة جدا. و قد فتشت بين الهنود الذين كانوا هنا على أناس من جهات الهند التى أعرفها، و خاصة من دلهى، لكننى لم أجد غير رجل واحد فقط كان قد ترك البلاد منذ أيام أو كترلونى.

و قد قادتنا جولة أخرى من جولاتنا فى المدينة إلى ارتقاء المنارة القديمة التى ألمع إليها بكنغهام فى رحلته، فشاهدنا من قمتها منظرا عاما لسطوح البيوت فى بغداد و بعض الأسواق القريبة منا، التى كانت مكتظة بالناس. غير أنه لما كان مثل هذا المنظر العام فى بلدة شرقية لا يمكن أن يكون طريفا جدا، عدا فى الصباح الباكر أحيانا، فإننا لم نبق كثيرا فوق القمة. فذهبنا من هناك إلى دار رجل من رجال الدين الفرنسيين، و هو القسيس العام لجميع الكاثوليك

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۷۲

الموجودين فى هذا الجزء من العالم. و الحقيقة أن طائفته هنا صغيرة، لا تتجاوز فى عددها الألف نسمة فى بغداد من جميع الأنواع و الأعمار. و ليس من المحتمل على ما يظهر أن يحصل تحسن فى ظروف و أحوال كنيسة روما فى الشرق، حيث إنه يقول إنه ليس هناك من بين الأديرة الخمسة الموجودة فى أصفهان سوى دير واحد لم يتهدم، و هذا على ما أعتقد يشغله خادمان فقط.

و قد كان فى الكنيسة هنا، و هى بناية واهية جدّا، شىء واحد فقط يستحق المشاهدة و هو صورة كان قد جىء بها قبل مدة طويلة من

البصرة، و هى جميلة جدا على ما أرى. فهى تمثل العذراء و طفلا- واقفا و فى يده بعض الأزهار أو طير من الطيور كما أظن. و قد علمت أن الهولانديين جاءوا بها إلى البصرة قبل مئة سنة تقريبا.

و كان صديقنا القس على درجة كافية من اللطف، لكنه كان كثير الكلام و التحسر على نفسه لأنه بقى مدة طويلة فى هذه البلاد المتوحشة، التى لا يعمل فيها رئيسا لكنيسة روما فحسب، و إنما يتولى أيضا وكالة البابا و الحكومة الفرنسية كذلك. لكن هذه الجهات كلها لا تدفع له شيئا كافيا من المال لأنه يضطر لإعاشة نفسه بوسائل أخرى. و من أجل هذا تراه يتشدد مع أفراد طائفته، و لا يخرج أحد من الاعتراف دون أن يدفع شيئا غير يسير من المال لهذا الوكيل الأرضى. و هناك أسرة من الأسر جعل مكانها حرجا فى هذا العالم لكونه يأبى السماح لرئيسها الذى مات مؤخرا بالخروج من سجن المطهر ما لم يدفعوا له مبلغا محترما من المال- إنه يقول إن الرجل كان كثير الذنوب، و إن ضميره لا يطاوعه فى إطلاق سراح روحه المسكينة من دون تعويض أو ترضية فريدة فى بابها.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۷۳

(۹) [الرسالة التاسعة]

اشارة

محاصرة عنزة للمدينة- الحالة فى العتبات- أسبابها- تجاوزات اليرماز- وفاة شاه إيران- النزاع مع عقيل- تاريخ القبيلة- توطنهم فى بغداد- طلب الباشا إليهم مغادرة بغداد- رفضهم لذلك- عصيان القبيلة و تجمعها- قطع الجسر و بداية المعركة- رفضهم لذلك- عصيان القبيلة و تجمعها- قطع الجسر و بداية المعركة- أخبار مختلفة- استخدام زورق المقيمية- عبوره- إنزال الجند- هجوم على الجسر- النهب و الهرج- شائعات و أخبار- السلب- عقيل تغادر بغداد- خسائر الجيش- فظاعات الجند.

۱ الأربعاء: ۲۸ تشرين الثانى ۱۸۳۴ م

إن الدور الذى لعبه الشيخ صفوگ و قبيلته الجربا من قبل تقوم بدور مثله الآن قبيلة عنزة. فقد كانت بغداد منذ أن وصلنا إليها فى حالة حصار فعلى. إذ لم يكن بوسع أحد أن يخرج إلى مسافة مهما كانت قريبة من الأسوار من دون أن يتعرض إلى السلب على أغلب الاحتمال، و لا سيما فى الجانب الغربى من النهر. و قد كنت أتوق للذهاب إلى عقرقوف ، موقع الخرائب الأثرية

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۷۴

المعروف، المعاصر لخرائب بابل و الذى يعتقد الكولونيل تايلور أنه موقع أكد الوارد ذكرها فى الكتاب المقدس. لكن أصدقاءنا رجال عنزة قد جعلوه مركزا لتجمعهم، فلم نجرأ على الخروج إلى هناك. و قد مدّوا رواق سيطرتهم الآن عبر الجزيرة الواقعة ما بين دجلة و الفرات، و استولوا على طريق الحلة بحيث لا يمكن لأى أحد أن يذهب فى ذلك الاتجاه- و الحقيقة ان كل شىء غير آمن هنا، لأنهم ليسوا وحدهم، بل كل وغد من الناس و كل لص فى بغداد أو فيما حولها قد خرج للسلب باسمهم أيضا. فعاد الكثيرون من المساكين و قد سلبت حتى ملابسهم، و لم يعد بوسع أية قافلة ليست معها قوة كبيرة أن تسير فى ذلك الاتجاه. و يقال إن الپاشا يقوم بمفاوضة قبيلة عنزة، و يحاول جريا على خطته السابقة أن يزرع بذور الخلاف بين عدد من أجزاء العشيرة. و قد دعى كالمعتاد عشيرة أخرى لمساعدته كذلك، و هى عشيرة زبيد. و لا شك أن هذا يعود بالوبال عليه و على البلاد بوجه عام، و لكن هذه هى سياسته السقيمة. على أن رجال عنزة، أو الذين ينتحلون اسمهم، لا يعبأون إلا قليلا على ما يبدو بهذه المفاوضات. فقد سلب عدد من رجال الپاشا نفسه فى أماكن قريبة من أبواب المدينة، و كان من بينهم يوسف بك الذى يحمل لقب «باب العرب » أى الموظف الرسمى الذى يتوسط بين الپاشا و بينهم، بعد أن كان من مصاحبى الپاشا نفسه. فأغاظ هذا سموه بحيث صار يقول الآن إنه سوف لا يتعامل

معهم مطلقا. و قبل يومين فقط سمع كذلك صوت إطلاق النار فى الجانب الغربى من النهر، بالقرب من تربة زبيدة، فتبين أن فريقا سلابا من عنزة هاجم المنطقة إلى حد الأسوار نفسها فاستولى على جميع ما فيها من إبل و أغنام و ما أشبه.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۷۵

و يصعب هذا كله على السياح من مثلى الذين يعد التأخير بالنسبة لهم شيئا متعبا و خطرا. هو خطر على الأخص بالنسبة للعدد الكبير من الزوار الإيرانيين كذلك، الذين يأتون من بلاد بعيدة لزيارة العتبات المقدسة فى كربلاء و النجف الأشرف، فقد عاد أولئك الذين دفعتهم حماستهم منهم إلى التجاسر على سلطة الأعراب و قد سلبوا إلى حد العرى، و من دون أن يروا العتبات بأعينهم. و من الحقائق التى تدل على ضعف الحكومة التركية التام فى هذه الولاية أن جميع العتبات التى لها قدسية خاصة تقريبا قد جعلت ملاذا لشر الناس فى المجتمع و أكثرهم تفاهة، و لا تزال فى وضعها هذا حتى الآن. و من المحتمل أن يكون هذا قد نشأ عن طبيعة الحماية التى تقدمها هذه الأماكن للناس من دون تفريق بينهم، و لأن هذه الحماية يستغلها فى الدرجة الأولى أسوأ الخارجين على القانون من الناس بطبيعة الحال. لكنه على كل امتياز لا يسمح «المتولى»، و رجال الدين أو خدام الحضرة، للسلطات الزمنية أن تتعرض له. و هكذا يتجمع أصحاب السوء- و قد يدفعون الكثير من المال من أجل الحصول على الحماية- حتى يكون فى مقدورهم الهيمنة عليها كما هى الحال فى محلة الشيخ عبد القادر ببغداد نفسها. و قد حصل مثل هذا الوضع كذلك فى النجف و كربلاء معا، و لكن بمقياس أوسع و حالة أسوأ بكثير. إذ ازداد عدد المتمردين المتجمعين هناك بحيث لم يعد من الممكن لحاكم المنطقة و لا لسلطة الپاشا أن تسيطر عليهم. و هؤلاء لا يفعلون ما يريدون فحسب، بل كانوا أيضا يطلبون من الزوار الذين يأتون لزيارة العتبات المقدسة الإذعان لأوحش الطلبات و أبعدها عن المألوف و المعقول، و فى حالة عدم الانصياع كانوا ينهبون أمتعتهم و يجردونهم حتى من ألبستهم، كما يسلبونهم زوجاتهم و بناتهم فى بعض الأحايين. و قد استفحل هذا الشر لدرجة اضطر فيها داود پاشا نفسه إلى تجريد قوة ضد هؤلاء فى النجف، فنجح فى إخضاعهم للطاعة.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۷۶

و لا تزال كربلاء فى حالة ثورة . فلم يستطع اليرماز و القتلة و السفهاء الذين يكوّنون عددا كبيرا فيها، من صد الجيش الذى جرده الپاشا عليهم فقط بل أصبحوا أيضا يهيمنون هيمنة تامة على البلدة كلها بحيث لم يكن بوسع أحد أن يعصى لهم أمرا أو يتحداهم من دون أن ينال جزاءه. فقد ابتدعوا طريقة سرية للاتصال و التفاهم فيما بينهم لا- يحيط بها غير الداخلين فى زمرتهم، و بواسطتها يستطيعون أن يجمعوا فى أى مكان كان قوة غير يسيرة بأسرع ما يمكن. و لذلك كان الناس المحترمون يخشونهم بحيث لا يجرأون على بذل أى مجهود أو اتخاذ أى إجراء من الإجراءات لمعارضتهم و حتى لحماية أنفسهم منهم. فقد حدث قبل مدة غير طويلة أن غضب هؤلاء على نواب هندى كان

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۷۷

قد أقام فى كربلاء منذ عدة سنوات، فهاجموا بيته و نهبوه ثم أخذوا البيت منه و دمروا ممتلكاته من دون أن يكون بوسع أى أحد منعهم أو التصدى لهم بشىء، فاضطر النواب المسكين إلى الهزيمة و النجاة بنفسه إلى بغداد التى لم يزل يقيم فيها على ما أعلم. و هم يذهبون فى فسادهم و خلاعتهم حتى إلى حد أنهم، حينما يعلمن أن أحد الزوار يصطحب معه زوجة جميلة أو أختا حسناء، يبعثون ليأتون بها إليهم. و حينما يرفض ذلك يعمدون إلى سرقتها منه بحيلة من الحيل أو إلى اغتصابها بالقوة. و كثيرا ما كان يحدث هناك أن تفقد زوجات بعض الناس على هذه الشاكلة لمدة أسبوع أو أكثر، فيعدن إلى أهلهن بعد ذلك بحالة يرثى لها، فقد سمعت أحد الإيرانيين أنا بنفسى يتذمر من معاملة زوجته بهذه الطريقة. و بعد، أليست هذه حالة و تدعو بصراحة إلى الاقتصاص و الإصلاح؟ إنها واحدة من ألف حالة من حالات سوء الحكم و الفوضوية التى تلفت نظر أولئك الذين يمرون بالبلاد، و تدل على تعاسة سكانها و شقائهم.

۲ أول كانون الثانى

لا يزال الأعراب مرابطين فى عقرقوف و على الطريق الموصل إلى الحلة بحيث تستحيل السفرات إلى تلك الجهات الآن. غير أنه قد تأكد لدى الناس أنهم أخذوا يتنازعون فيهم بينهم، و لا أدرى إذا كان ذلك يعزى إلى تأثيرات سياسة الپاشا فيهم أو إلى قلة ما يتيسر من العنف و السلب. و مع كل هذا فإنهم ما زالوا يسيطرون على الريف من دون معارضة إلى حد أبواب المدينة نفسها.

لقد وردت رسائل من ششتر تدل على أن إيران تعانى أشد حالات الفوضى و الاضطراب فى الوقت الحاضر، و أن عدة قوافل قد نهبت حتى استحال خروج أحد فى الطريق. و تتفق الروايات الواردة من همذان و كرمنشاه مع هذه الأخبار أيضا، و لم يتأيد غير ذلك سوى وفاة الشاه فى أصفهان.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۷۸

من مقاهى الشط فى بغداد- ۱۸۲۷ م

۳ كانون الأول

يبدو من أخبار إيران الواردة إلى هنا كلها أنها تؤيد خبر توجه حسين على ميرزا على طهران و إعلان نفسه ملكا فيها، و تشير إلى أن أخاه حسن مرزا قد انضم إليه و سل سيفه بعد ذلك فقطع رؤوس عدد من الأمراء الذين كانوا قد رفضوا الاعتراف بأخيه أو كان يشك بأن لهم آراء خاصة به، و أن أمين الدولة قد انضم إليه أيضا مع بعض النبلاء الأقوياء، و استولى على القصر فى طهران مع الخزينة، و أنه لم يسمع شيئا عن ولى العهد محمد على مرزا، و أن الحالة

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۷۹

فى كرمنشاه لا تزال هادئة، لكن القبائل قد خرجت عن الطوق و أخذت تنهب يمينا و شمالا بحيث لم يعد المسافرون يأمنون على أنفسهم. و كان أحد الرسل الذين جاءوا بهذا الخبر قد التقى بالقرب من بغداد بقافلة كانت فيها بنت من بنات الشاه السابق، و هى عائدة من الزيارة فى كربلاء. فأمرت بجدع أنفه و قطع أصبع من أصابعه للأخبار السيئة التى كان يحملها، فوصل إلى بغداد بهذه الحالة.

۴ كانون الأول

لقد انقطعت و تيرة السأم و الاطراد فى هذا اليوم بحدوث حادث لم يكن من المنتظر أن يحدث- و هو حصول قتال بين الأعراب فى داخل أسوار بغداد. و لكن قبل أن آتى على وصف المعركة يجب أن أشرح الأسباب التى أدت إلى وقوعها.

جسر بغداد قبل مئة عام

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۸۰

فقد كانت الأحوال بين الپاشا و قبيلة عنزة تزداد سوءا على سوء فى كل ساعة منذ مدة غير يسيرة، و ظل إقلاق البلاد و العبث بها يزداد شدة و اتساعا بحيث إن أشخاصا محترمين قد سلبوا فى أبواب المدينة نفسها. و انقسمت العشيرة على نفسها إلى عدة جماعات، حتى صار من الممكن أن تشترك القبائل العربية الأخرى فى النزاع أيضا فتشتعل عند ذلك بلاد ما بين النهرين كلها. و قد حدث فى الأخير أن سلب عدد من ضباط الپاشا نفسه بالقرب من المدينة، و دلت التحريات على أن هذا الانتهاك قد أقدمت عليه جماعة من قبيلة عقيل، التى كانت تعيش فى القسم الغربى من المدينة، فقرر الپاشا و قد ثارت ثائرته لهذه الإهانة الصادرة منهم أن ينتقم انتقاما عاجلا من الفاعلين.

و هؤلاء الأعراب هم جزء من عشيرة كبيرة قوية تقيم فى نجد، و بنتيجة اتفاق عقد قبل ستين سنة مع سليمان پاشا احتكروا حراسة القوافل و دلالتها ما بين هذا المكان و حلب و دمشق. و لأجل أن يتسنى لهذه العشيرة أن تزود القوافل بالعدد الكافى من الأدلاء المطلوبين اعتادت أن تبقى على الدوام عددا معينا من أفرادها فى بغداد برعاية شيخ منهم، لكنهم لم يسمح لهم إلا مؤخرا بالإقامة فى داخل الأسوار. على أن نزاعا قد نشب فى هاتين السنتين أو الثلاث، بسبب خصومة قديمة كانت موجودة بينهم و بين جماعة أخرى. و إذ كان العقيل غير مكتفين بطرد خصومهم تصدوا لقافلة غنية كان خصومهم هؤلاء يشرفون على حراستها من حلب إلى ما يقرب من بغداد، و أعلنوا أنهم ما لم تلب مطاليبهم جميعا فإنهم سينهبون القافلة و يتركون البلاد. و لما كان الپاشا أضعف من أن يستطيع حماية القافلة، التى كان ينتظر وصولها إلى بغداد بصبر نافذ لأنه كان يعلم بأن الرسوم التى سوف تجبى منها فتذهب إلى جيبه تؤلف مبلغا لا يستهان به، فقد أذعن لطلباتهم جميعا. و قد كان من بين الأشياء الكثيرة التى تساهل بها معهم السماح لفريق من القبيلة بالإقامة فى بغداد بشرط أن يظلوا بالكلية مقيمين فى الجانب الغربى من النهر.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۸۱

و هكذا شرع العقيل يقيمون فى الداخل، و أصبحوا منذ ذلك الوقت سادة لا ينازعهم أحد فى ذلك النصف من بغداد. فكانوا، كاليرماز فى كربلاء و محلة الشيخ عبد القادر الكيلانى فى بغداد نفسها، يتحدون القانون فيحمون جميع المشردين و الأشرار المنبوذين الذين يلتجئون إليهم، و لم يكن بوسع أحد أن يقيم فى ذلك الجانب من النهر إلا بعد الحصول على السماح اللازم منهم .

و الخلاصة، أنهم كانوا هم حكام محلتهم و منطقتهم و ليس الپاشا بالذات. و قد ظل الپاشا ردحا من الزمن برما بعتوّهم و تجبرهم و عازما على تأديبهم و إيقافهم عند حدهم و لكن من دون أن يجرؤ على تنفيذ ما كان يريد فى هذا الشأن، حتى حصل الحادث الأخير فأثار حفيظته عليهم كما ذكرت من قبل و أقدم على استعمال سلطته بهياج و حنق. إذ بعث من يخبرهم بمغادرة المدينة فى الحال، و إلا فسيضطر إلى طردهم عنوة. غير أنه لم يكن من المعتاد فى پاشوية بغداد أن تطاع أوامر الپاشا و تنفذ مطاليبه. و لذلك رفض العقيل أن يتحركوا من مكانهم إلا بشروط لم ير الپاشا من المناسب تنفيذها. و قد حدث هذا فى صباح يوم أمس، فذهب شيخ القبيلة الذى ربما أخافه هذا الإظهار غير المعتاد للقوة فى السراى بنفسه لمعاتبة سموه و الاعتراض على أوامره. و أخذت القبيلة فى الوقت نفسه تتجمع معا، و تستعد لحدوث الأسوء، و حينما اجتمعنا فى المقيمية اليوم لتناول الفطور لاحظنا من شبابيكها درجة غير معتادة من الاضطراب و الهياج فى الجانب المقابل من النهر. إذ كان الناس يركضون هنا و هناك و يتجمعون معا على شكل جماعات صغيرة و كبيرة، و قد لاحظنا بنواظيرنا إنهم كانوا مسلحين.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۸۲

و ما إن انتهينا من تناول الفطور حتى رأينا الجسر يصبح مزدحما بالناس، و كانت القفف تعبر النهر بسرعة ذهابا و إيابا. فقد كان هناك على ما اتضح كثير من الهرج و المرج، و استبان أن بعض الأشخاص كانوا يحاولون قطع الجسر من الجانب الغربى. فتوقع الكولونيل تايلور و الدكتور روص أن تحصل معركة فى القريب العاجل. «ستراهم يبدأون هناك، على الجسر فى أغلب الاحتمال»، هذا ما قاله الكولونيل، ثم أردف يقول «لقد فعلوا مثل هذا تماما فى السنة الماضية حينما هاجم الشيخ صفوك المكان». و ما كاد ينطق بكلماته حتى انقطع الجسر و دل إطلاق رصاصة من الجانب المقابل على المعركة قد بدأت.

فأعقبت ذلك ست إطلاقات أخرى، و سرعان ما خلا الجسر من الناس عند ما أجيب على النار فى الحال من الجانب الذى نقيم فيه. و بعد ذلك خفت ثلة من المشاة النظاميين عبر القسم الباقى من الجسر، و بعد أن أخذت مواقعها فى زوارقه الكبيرة للحماية و جهت وابلا من نارها إلى مقهى فى الجهة المقابلة كان الأعراب يطلقون النار منه. و قد استمر إطلاق النار لمدة ساعتين تقريبا، لم يقع خلالها سوى ضحية واحدة أخبرنا بها و هى امرأة عجوز مسكينة أصابتها رصاصة طائشة حينما كانت تمرّ راكضة فوق الجسر بأقصى ما تستطيع من السرعة.

و قد اختلفت الروايات التى صارت تتداولها الأفواه: فقال بعضهم إن الپاشا قبض على شيخ العقيل و معه «الكمركچى» التابع له، و هو و غـد معروف، فـأمر بإعـدامهما. و ادعى آخرون أن الشيخ ما زال سالما فى بيته الواقع فى الجانب الآخر، و أن الأعراب هناك ينتظرون أن يتم تجمعهم ليهاجموا جند الحكومة بقوة كبيرة. و قد تناهى إلينا قبل الظهيرة أن الپاشا أعاد الشيخ إلى منصبه، و سوف لا يحدث شيء أكثر من هـذا سوى السلم و الصـفاء. و قد توقف إطلاق النار تقريبا، بعد أن كانت تخمد و تعود بين آونة و أخرى. و لكن بينما كان أغا ميناس ، أحد موظفى المقيمية، يخبرنا بهذه الأنباء السارة سمعت

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۸۳

إطلاقات المـدافع و هى تدوى فى الجو. فصاح الدكتور روص قائلا «آه لقد أطلقت المدافع، إنها تعلن الانتهاء السار للمناوشات» لكن القرقعـة السـريعة المنطلقـة من البنادق و اسـتمرار النار المنطلقة من المدافع فى إثر ذلك كانت تقص لنا قصة أخرى، فاندفعنا كلنا إلى سطح الدار للوقوف على الخبر اليقين.

على أن أشـجار النخيل كانت تخفى المتحاربين عن أنظارنا، مع أن دخان المـدافع و انطلاق الرصاص السـريع قد أقنعانا بأن قتالا جديّا كان يقوم على قدم و ساق.

و قـد علمنا بعـد ذلك أن القتال كان قـد بـدأ أولا على إثر خبر تناهى إلى أسـماع عقيل بأن شـيخهم قد أعدم بأمر من الپاشا. فقسـموا أنفسـهم إلى جماعتين، جاءت إحـداهما لتقطع الجسـر و تطلق النار على البلدة، بينما اندفعت الأخرى من الباب الشـمالية لتهاجم الجند الذين كانوا يرابطون هناك و تفاجيء مدفعيتهم. و فى الوقت نفسه عمد الپاشا، مهما كانت نيته بادىء ذى بدء، بعد أن أخافه الانفجار إلى الإنعـام على الشـيخ بخلعـة الشـرف و إعـادته لتهدئـة أتباعه، بينما بعث سـرّا إلى قائـد جيشه الموجود فى الجانب الغربى يأمره بأن يهاجم الأعراب من الخلف- و قد رأينا فى الحقيقة مرور الزوارق و هى تحمل الضـباط إلى المعسـكر هناك. لكن الأعراب قد توقعوا حـدوث هـذا بحيث إن الرسول حينما جاء بالأوامر وجـد الجنـد مشـتبكين فى قتال معهم. فقـد كان انـدفاعهم مفاجئا بحيث اسـتطاعوا الاستيلاء على أحـد المدافع قبل أن يعرف الجند و قائدهم ما إذا كان المتقدمون نحوهم بتلك السـرعة من الأصدقاء أم من الأعداء. و عنـد ذاك قفز الجنـد إلى سـلاحهم فردوا الأعراب على أعقابهم بفعل النار السـريعة المنطلقة من المدافع الأخرى، و من بنادق الجيش النظامى.

و دارت بعد ذلك معركة متنقلة حول الأسوار على مقربة من باب الحلة.

و كان هذا هو السبب فى تجدد إطلاق النار الذى سمعناه.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۸۴

و فى الساعـة الثانيـة بعـد الظهر، و بينما كانت هذه المعركة قائمة على قدم و ساق، و صوت المدافع يدوى فى الجو بانتظام بالقرب من باب الحلة فى الجانب الغربى، و من مدفعين كانا منصوبين فى الجانب الشـرقى لإطلاق النار على الطرف المقابل من الجسر و المقاهى الملأى بالأعراب، إذ حضـر إلى المقيمية ضابط مرسل من الپاشا ليطلب من المقيم أن يعيره يخته الكبير المصنوع فى إنكلترة، لنقل قوة نظامية منجدة و مقدارا من الذخيرة لرجاله الذين كانوا مشتبكين فى حرب مع الأعراب فى الجانب الآخر. فلم يكن هذا مطلبا مستحسنا على الإطلاق لأنه إذا ما تمت تلبيته فإنه قـد يعتبر تـدخلا فى نزاعات البلـد الداخليـة. غير أنه لما كانت عقيل فى حالـة ثورة علنية ضـد الپاشا فقـد اسـتبان من الأصوب، بصـفتنا أصـدقاء، أن نساعد السـلطات الشـرعية على قدر الإمكان. و بذلك أعد الزورق ليكون جاهزا للعمل.

و الأتراك مخلوقات بطيئة. فقـد اسـتغرقوا وقتا طويلا فى إدخال رجالهم إلى الزورق، و حينما تم ذلك وجـد أنه مرتطم بالأرض و لا يمكن تحريكه، غير أنه لما كان مرسـى الزورق يقع تحت شبابيك المقيمية مباشرة، و لما كان الأعراب قد لاحظوا تجمع الجند هناك من الجـانب المقابـل، فقـد أمطروا الساحل و البنايات المطلـة عليه بوابل شديـد من نارهم و ظلوا يطلقون النار من الجانب المقابل على

الزورق و كل شيء من حوله. و لا ينكر أن عرض النهر هنا كان يبلغ مائتين و خمسين ياردة على الأقل، غير أن القذائف كانت تأتي بخفة عبر الماء، و تقفز أحيانا، و تصيب المقيمية أحيانا أخرى. و الحقيقة أن واحدة منها قد أصابت جدارا كان يبعد عدة بوصات فقط عن رأس الكولونيل تايلور حينما كان يقف وراء الحاجز ليشاهد المعركة بمنظاره. و كذلك قتل عدة جنود أو جرحوا في الزورق. و لهذا فرحنا جدّا حينما تسنى لنا أن نحتمي وراء الأجزاء البارزة من جدار السطح. و قد كنا على كل حال غير معرضين كثيرا للخطر، لأننا كان بوسعنا ملاحظة و ميض القذيفة قبل أن ننسحب لنتقي خطرها.

و قد استمر هذا النوع من التسلية أكثر من ساعتين، إذ أمكن في الأخير

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۸۵

جسر الموصل في ۱۸۲۷ م

تطويق أو تعويم اليخت و حدره مع التيار فأنقذنا بذلك من القصف الذي كان يصبه علينا أصدقاؤنا من الجانب المقابل. و لا بد أن أشير هنا إلى أن الجنود الأتراك، على ما فيهم من خرق و غلظة بالنسبة للزورق، لم يبد عليهم أي إجفال أو تخوف حتى حينما كانت تنهال عليهم القذائف بكثرة فتصيب عددا منهم. و يمكنني أن أقول الشيء نفسه بالنسبة لما حدث فوق الجسر، فقد جرت محاولات عدة لنصب الجسر من جديد و ربط أجزائه لغرض العبور بينما كان الجند يطلق النار على الأعراب خلال النهار كله، من الزوارق التي لم تكن تحميهم حماية كافية.

و أخيرا استطاع اليخت العبور إلى الجانب المقابل، بعد أن ارتطم بالأرض عدة مرات و انحدر إلى مسافة غير يسيرة. و من الغريب أنه لم يجد أية مقاومة هناك، فنزل الجند البالغ عددهم حوالي مئة و خمسين إلى البر و اختفوا في بساتين النخيل الكائنة في ذلك الجانب بأسرع ما يمكن. غير أن اطلاق

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۸۶

النار من المدافع و البنادق، الذي كان قائما على قدم و ساق في الجانب الغربي من المدينة و من الجانب الشرقي عبر النهر، قد بدأ يخف الآن. و من المحتمل أن يكون الأعراب قد ضويقوا كثيرا من مدفع كبير في القلعة، كان قد جيء به ليكون أكثر تسلطا على مواقعهم فأصبحوا أكثر حذرا في تعريض أنفسهم.

و كانت الشمس كذلك قد مالت إلى المغيب قبل أن ينزل الجنود من اليخت إلى البر، فحصلت فترة توقف كانت تعكر سكونها فقط بعض الإطلاقات المنطلقة هنا و هناك و طبول الجند النظامي و أبواقه، على أن قرقعة إطلاق البنادق العالية و هدير المدافع قد بدأت من جديد بصورة مفاجئة- و سمع صوت عال يعلن التحاق النجدة التي عبرت بالجيش المحارب. و وصل الصوت كذلك إلى النهر، و حينما تطلعنا إلى الجسر وجدنا الجنود محتشدين فوقه أيضا. و بعد دقيقة اندفعوا إلى الأمام و هم يطلقون النار بسرعة، فقوبلوا من الجانب الآخر بنار حامية استمرت عدة دقائق فقط ثم خمد أوراها. و لكن بالنظر لأن أعمدة الجسر لم تكن على مسافة عشرين ياردة عن بعضها فإن ربطه كان لا بد أن يتطلب عملا كثيرا. و قد شاهدنا قفة صغيرة تعبر الثغرة المتبقية في الجسر فأعيد نصبه كله بعد ذلك بقليل. و لا بد أن يكون القسم الأكبر من الرجال قد عبروا على ما يتضح، لكن الظلام في ذلك الوقت كان قد خيّم بحيث لم نستطع أن نشاهد أكثر مما رأينا، و قد حلت كذلك فترة من التوقف العميق للأصوات. على أن هذه لم تدم طويلا. فقد توقف إطلاق النار، لكن صراخا وحشيا قد تعالى بدلا منه- صياح الرجال المختلط بصراخ النساء، و جميع أصوات الرعب و الفوضى و اليأس. و في خلال دقيقة أخرى تغطى وجه الماء بعدد كبير من القفف التي كانت قد التجأت إلى الساحل في بداية المعركة. فكان من الواضح أن الجند قد استولوا على البلدة في الجانب الثاني و أخذوا ينهبون و يسلبون في جميع الجهات. و قد استمر إطلاق النار، لكن هذا لم يكن سوى إطلاق عابث كان يطلقه الجنود المعربدون لفتح باب مقفلة، أو قتل يائس كان يقاوم مقاومة غير مجدية. ثم اقترب الضجيج شيئا فشيئا نحو النهر فحسبنا في الحال أكثر من ثلاثين قفة و هي تعبر محملة باللاجئين الهاربين في كل مرة. و سرعان ما ازداد تكاثف الظلام،

لكن الصخب ظل مستمرّا ثلاث

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۸۷

ساحة الميدان و جامع الأحمدية فى منتصف القرن التاسع عشر

ساعات من دون أن ينقطع مختلطا بالصراخ. و بعد ذلك خيم الصمت على كل شىء و أصبحت المدينة هادئة، و كأن الموقعة التى شهدناها لم تحدث فتعكر عليها سكونها و هدوءها.

و قد سمعنا أن «التفكنجى باشى » هو الذى حثّ رجاله للقيام بالحركة الهجومية فوق الجسر التى كانت حرية بالجند المنتظم. و حينما وجد الأعراب عزمهم هذا تخلوا عن مكانهم فعبر الجيش. فنهب السوق الكائن بالقرب من الجسر فى الحال، و بدأت أعمال السلب و جمع الغنائم. و المقول إن الشيخ بعث شروطا للپاشا يعرض فيها أنه سيغادر المدينة فى اليوم الثانى على أن تتم حماية البعض من العرب، فوافق على ذلك كما قالوا. و يقول آخرون إنه اتصل

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۸۸

بقبيلة عنزة لتساعده على الاحتفاظ بمكانه فى البلدة، و ما أشبه هذه الحركة بسياسة المماطلة الغريبة التى اتبعها. لكننا سنرى ما يأتى به الغد.

۵ كانون الأول

كانت الشوارع فى ساعة مبكرة من هذا الصباح مكتظة باللاجئين، الذين كان الكثيرون منهم عراة تقريبا. و كان الآخرون و هم أسعد حظا من هؤلاء يحملون معهم ما استطاعوا حمله من لوازمهم عند أول وقوع الحادث. و كان النسوة يضربن بأيديهن و يولولن، كما كان الرجال و هم بين عابس مكتئب، أو صخاب سباب، يحملون بنادقهم و سائر أسلحتهم. و ازداد عدد الحيوانات و الماشية فى المدينة حتى ازدحم بها كل زقاق و درب. و قد اختلفت الروايات حول مصير عقيل، لكنه من المحتمل جدّا أنهم حينما وقع الهجوم فوق الجسر وجدوا أنفسهم بين نارين ففروا هاربين إلى جميع الجهات، و عادوا و بنادقهم بأيديهم إلى بيوتهم لحماية ممتلكاتهم. و حينما اكتشف الجنود ذلك، و هم على علم بأنه لم يعد هناك ما يمكن أن يخشوا منه، تخلوا عن تعقيب العدو و ولو وجوههم شطر الأسواق و بيوت الأغنياء التى نظفوها من كل ما كان فيها و أشعلوا النار فى الأسواق. و هكذا وقع ثقل الضربة على سكان البلدة، و لم يكن ذلك ناتجا عن سلامة نية كما يقال لأنهم جميعهم كما هو معروف تمام المعرفة قد اشتركوا مع العقيل فى أعمالهم و أطلقوا النار على جند الپاشا.

الساعة التاسعة صباحا

لا- تزال الجماعات من بابنا و هى عارية تماما، و معظمها يعول و يولول و قد ازدحمت الشوارع بالعرب اللاجئين من الجانب الآخر، رجالا- و نساء، لكننا لم يتأكد لنا ما حصل بعقيل. فيقول البعض إنهم ما زالوا فى بيوتهم و البنادق بأيديهم، بينما يستمر الجنود على نهب بيوت سكان البلدة الأصليين- و يعتقد الآخرون أنهم فروا جميعهم. و يقال كذلك إن الپاشا أصدر أوامره للجنود بالامتناع عن النهب، و أنه هو نفسه وقف فى نقطة ما على باب الجسر

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۸۹

ليمنعهم من نقل غنائمهم إلى الجانب الآخر. لكنه كان يحاول المستحيل بذلك- إنهم يضحكون عليه، فهو لا حول له و لا قوة.

الساعة الثانية بعد الظهر

سمعنا أن العقيل قد فروا بالتأكيد- إذ تركوا البلدة مع أسرهم و ممتلكاتهم، و يقال علاوة على ذلك إنهم قصدوا عنزة فى خروجهم هذا. لكن شيخهم تخلف عنهم و التجأ للاحتماء بباب حرم الپاشا، و هو ملجأ حصين لا تنتهك حرمته، فسمح له بالإقامة فى بغداد كرجل عادى بشرط أن يحافظ على الهدوء و السكينة. و قد كنا نرى خلال فترة الصباح و النهار كله أن الناس كانوا يمرون حاملين أسلابهم- فكان أحدهم يسحب خروفا وراءه، و آخر يحمل شدة من الدجاج المشدود إلى بعضه بالأرجل، و ثالث يحمل كثيرا من القدور و الأوانى و الفراش أو السجاد، و كان الرابع قد وجد طريقه إلى مخادع النساء فى البيوت المنهوبة و جاء يمسك بيده حزمة من لوازم النساء و ملابسهن. و جاء أحد جنود النظام بفرس للبيع و هو يقول إنه غنمها فى المعركة، فتعجب لا متناعنا عن شراء مثل هذه الصفقة. و كان الآخر يسوق أمامه حمارين أو ثلاثة محملة بأكياس كبيرة تحتوى على خليط من كل شىء. و لا يزال النهر مكتظّا بالقفف.

و الظاهر أن الپاشا قد جعل مقره فى المقهى الكائن فى الطرف الآخر من الجسر، الذى كان الأعراب يطلقون النار منه فى أثناء المعركة، لغرض إيقاف السلب و النهب عند حدهما على الأقل على ما قيل لنا فى الصباح. لكن هذا يعد خطأ منه على ما يقال، لأنه المزعوم الآن أنه كان يشجع الجنود على التمادى فى تجاوزاتهم بتصرفاته هذه و قوله مثلا للسكان المنهوبة بيوتهم على سبيل التقريع و هو يهز كتفيه «هل ترون ماذا فعلتم بأنفسكم؟ إنها غلطتكم و ليست غلطتى».

و ما زالت أخبار الخسائر مشوشة بحيث لا يمكن الاعتماد عليها. لكن المعركة لا بد أن تكون قد أخذت مأخذها من «النظام» و الألبانيين، لأن أحد

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۹۰

موظفى المقيمية كان فى ديوان الپاشا يوم أمس أثناء احتدام المعركة، فجاء رجل من الجانب الآخر يطالب بقماش قطنى لتكفين أربع و عشرين جثة، و هو عدد القتلى العائد لمفرزة واحدة فقط. و قد تناهى إلينا أن قائد الهجوم الجرىء على الجسر قد أصيب برأسه فقتل، كما قتل و جرح بجروح بليغة عدد من رجاله. و لا بد أن تكون الخسارة فى الجنود باهظة بالنسبة لما وقع فى باب الحلة، لأنهم وقفوا هناك معرضين لنيران الأعراب الذين كانوا يقاتلون من وراء أسوار حجرية. فلم يحاول أحد تقدير خسائرهم هذه، على أن أشد الضرر قد وقع فى البلدة نفسها. فإن فظاعات الجنود، على كونها لا يمكن أن تكون أعظم مما يقترفه الجنود الأوربيون حينما يستولون على بلدة من البلدان بهجوم صاعق، كانت مفجعة بمقدار غير يسير. فقد أسيئت معاملة النساء بشكل مرعب، و جىء فى هذا اليوم بجثة امرأة أقدم على قتلها وحش ألبانى بينما كانت تقاوم تجاوزه عليها بشدة. و قد ألقيت على عتبة مرقد الشيخ، فأمر النقيب بأن تدفن كما يدفن الشهداء. و بينما كان شرير آخر من هؤلاء الأشرار ينهب حرم أحد بيوت العرب أزعجه صراخ طفل من الأطفال فيه فحمله من مكانه و ألقى به فى البئر على ما كان يعتقد. وراح يتبجح بفعلته الشنيعة هذه فى الخارج، فوصل الخبر إلى أسماع أمه المسكينة و تجرأت على العودة إلى البيت علها تعثر على جثة طفلها. فنزحوا البئر من أجل ذلك و لكن من دون جدوى، و بينما كانوا يهمون بالخروج بعد أن يئسوا من العثور على شىء سمعوا صراخا خافتا تعقبوا أثره فى كل مكان، فعثروا على الطفل ملقى فى التنور. و الظاهر أن الوغد اللئيم قد توهم بالتنور فحسبه بئرا فألقاه فيه. فأخرج الطفل من دون أن يكون قد تضرر بشىء يذكر. و هنا يمكنكم أن تتصوروا مقدار الفرح الذى استولى على الأم المسكينة!

و ليس بوسع المرء أن يتصور مقدار النفوس التى كانت تحتشد فى الجانب الغربى خلال الأيام الاعتيادية. فإن الأسواق يكاد يستحيل المرور فيها من جراء البغال و الحمير الكثيرة التى تمر مع سائقيها محملة بالأثاث، مع أن الدكاكين ما زالت مغلقة من الرعب و الفزع المستولى على أصحابها. أما الجسر فيكوّن من أوله إلى آخره منظرا بالغ الروعة، إذ تراه مكتظّا بالناس من

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۹۱

جميع الأنواع و الأشكال و هم يستعجلون فى رواحهم و غدوهم. و قد كان ساحل الضفة الشرقية بأجمعه مغطى بجماعات الناس الذين

كانوا يصلون إليه من الجانب المقابل. و يعد الهايتة سواقا سباحين للبغال و الحمير التى تساق لتعبر النهر سباحة عند الضرورة، و لذلك نراهم الآـن و هم لاـ يزالون يسوقون هـذه الحيوانات إلى ضـفافه فى الجانب الآخر. و المنظر فى الساحل على جانبى النهر خيط عجيب غريب، إنه منظر يمكن أن يكون مضحكا إلى آخر حد لو لا الشقاء و البؤس المقترنين به. إذ يرى الرائى هنا رجلا ينقض على خروف فيأخـذه بينمـا يكون صاحب الخروف المسـكين قـد هرب مع الحمل إلى الجانب الآخر. و قـد تسـمع امرأة فى زاويـة من الزوايا و هى تمزق الهواء بصـراخها و عويلهـا من أجـل طفلها أو زوجها الـذى قتل أو أغرق فى النهر- لأن كثيرا من القفف قـد غرقت فابتلعها النهر بأحمالها. و قد تجد كذلك امرأة أخرى و هى تندب حظها بلهجة لا تقل إيلاما عن صاحبتها الأولى و تتحسـر على ضـياع ممتلكاتها و أثاث بيتها على يـد وغـد لئيم سـرق بيتها على منظر منها، و ربما يكون واقفا على مقربـة منها. و الخلاصـة، أن السـلب و الانتهاك هما اللذان يستوليان على المدينة بأجمعها الآن، و لا يعانى من ذلك إلا الضعيف فى كل مكان.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۹۳

(۱۰) [الرسالة العاشرة]

اشارة

وصول الشيخ وادى و سليمان غنام- زيارة لحومة المعركة- المنظر هناك- مخيم شيخ زبيد- اللباس- سلاح الأعراب- سرقة الخيول و عواقبها- معسكر الهايتة- رحيل عنزة- ترتيبات الباشا- شرطة بغداد و عدالتها- شيخ وادى- الكاظمية.

۶ كانون الأول

وصـل فى صـباح هـذا اليوم إلى ضواحى المدينـة وادى شـيخ زبيـد، مع لفيف من رجـال قبيلته، و سـليمان غنـام بناء على اسـتدعائهما بمناسـبة الحوادث الأخيرة. و سـليمان غنام، الـذى كنت قـد أشـرت من قبل إلى كونه حليفا من حلفاء على پاشا، وغد عربى يرجع إلى قبيلة الجربا فى أصـله. و كان قبل مدة غير يسيرة قد استخدم لحراسة القوافل و توصيلها عبر البادية إلى دمشق فى أثناء شجار حصل مع عقيل. لكن هؤلاء الذين كانوا قد ذاقوا حلاوة هذا الاحتكار

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۹۴

و فوائـده اتخـذوا الإجراء الـذى ذكرته فى الرسالـة السابقـة، و هو التصدى لقافلة كان مسؤولا عن توصـيلها هو و الاشتراط على الپاشـا بإعادة إشـرافهم على توصيل القوافل و حراستها- جريا على القاعدة القديمة، على ما أحسب، و هى «كلف اللص بالقبض على اللص». أما زبيـد فهم عشـيرة عربيـة تملك قسـما من البلاد الكائنـة فى أسـفل الطريق الـذاهب إلى الحلـة. و قـد كانوا فى يوم من الأيام أقوياء الشكيمة لكنهم أخذوا بالانحطاط و التأخر فى الوقت الحاضر لمختلف الأسباب. و لما كان كلا هذين الشيخين من خصوم العقيل فقد لبيـا عن طيب خـاطر نـداء الپاشـا الـذى صـدر إليهما جريا على السـياسة التى يتبعها فى مثل هـذه الظروف عادة- و الآن بعـد أن انتفت الحاجة إلى خدماتهما فإن الجميع باتوا ينتظرون نتيجة التدبير الذى سيتخذه فى هذا الشأن.

و قد عبرنا النهر قبل الظهر لنشاهد المنظر الذى خلفه النزاع الأخير.

فكانت التأثيرات لأول وهلة أقل ألفاتا للنظر مما كنت أتوقعه، لأن القسم الغربى من المدينة (الكرخ) كان فى الحقيقة قذرا خربا بحيث ينـدر أن يوجـد شـىء يمكن أن يجعله على أسوأ مما هو عليه. لكنك حينما تأتى إلى الأسواق و الأزقـة- المناطق المأهولة- تجد فيها العبث و الضـرر الـذى حصـل فى الحقيقـة. فقـد كسـرت كـل باب من الأبواب و فتحت، و خلعت بصورة عامـة عن مصاريعها. و كان يجلس على الكثير من هـذه الأبواب قليل من العجائز اللواتى كن يضـربن على صدورهن و هن ينظرن إلى بيوتهن المنهوبة- التى كان

منظرها المظلم الخاوى، يعلم اللّه، باعثا على ما يكفى من الانقباض فى النفس. كما كان الرجال الذين ظلوا يحومون حول بيوتهم يجلسون على جانبى الطريق من دون حركة و هم يحدقون فيها بفتور و همة خائرة. و كانت بعض المقاهى، التى أفرغت مما كان فيها، يشغلها أناس تمكنت من الحكم عليهم من مظهرهم بأنهم تجار و أصحاب دكاكاين خسروا جميع ما كانوا يملكون. و كانت البغال و الحمير المحملة لا تزال تمر فى الشوارع، يسوقها الهايتة فى الغالب، كما كانت الشوارع و الأزقة نفسها ملأى بالأثاث المتكسر، و ريش المخاد و الوسائد التى انتزعت أوجهها المطرزة، و بقطن و صوف الحشايا التى يصعب حملها، و بمقادير غير يسيرة من الحبوب و المؤونة التى رميت فى عرض الطريق.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۹۵

و كانت الأسواق تنم على أكثر أمارات العنف إيلاما و إثارة للحزن. فقد سقطت السقوف المحروقة و اختلط رمادها بالحبوب و التمور و العطاريات و الرقى و القرع و سائر الخضراوات- أى جميع الأشياء غير الثمينة التى لا تستحق الأخذ. و ديس حطام ما أتلف خلال النهب بالأقدام أو ترك مع قطع و كسر الأوانى و الأوعية التى كان يحفظ فيها فأصبح ذلك كله كتلة كريهة واحدة من الوساخة و القذارة التى كان ينبش فيها و يتسكع بينها عشرات من الأطفال العرايا تقريبا، للعثور على شىء يأكلونه بلا شك. أما الحجر و الدكاكين فقد كانت كلها مفتوحة خاوية، و قد خلعت أبوابها و شبابيكها- و من حسن حظ المدينة أن القسم الأعظم من هذه مبنى بالطين و الآجر، و لو لم يكن الأمر كذلك لأتت النار التى أضرمها الجنون الطائش على كل شىء.

ثم ذهبنا لمشاهدة الأماكن المهمة التى وقعت فيها المعارك. فكان التخريب الحاصل فى رأس الجسر أقل مما كنت أتوقعه لأن مدفعين كانا يصبان نيرانهما على تلك النقطة طوال النهار. و قد كان باب الحلة يمكن أن تشاهد فيه آثار القتال جميعها، لأن القتال معظمه كان قد حصل هنا، و هنا كذلك اختلط الحابل بالنابل و دخل الجنود فى قتال مرير مع الأعراب المتقهقرين. إذ توجد هنا فسحة مكشوفة فى داخل السور، فاتخذ الجند مواقعهم فيها مع المدافع بينما هرب الأعراب إلى المنازل و البساتين المحيطة بها، و من وراء جدرانها كانوا يمطرون الجنود بنيرانهم الحامية- و هو عمل يجيدونه تمام الإجادة. هذا فى الوقت الذى كان الجنود قد أطلقوا فيه على ما يقال من مدفعيتهم خمسمئة قذيفة على عدوهم غير المنظور. و لذلك تجد الأسوار و البيوت ملأى بآثار هذه القذائف، كما امتلأت الباب بآثار الرصاص الذى كانت تمطره عليها البنادق. لكن الجنود هم الذين كابدوا ويلات المعركة فى الغالب، و كانوا على وشك أن يتقهقروا بعد أن استنفدوا ذخيرتهم لو لا أن تصلهم فى الوقت المناسب الذخيرة التى نقلها عبر النهر زورق المقيمية مع النجدة من الرجال فزودتهم بوسائل جديدة و شجاعة متجددة.

و من منظر الخراب هذا ذهبنا لزيارة مخيم زبيد، الذى كان منظره شيئا

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۹۶

يستحق المشاهدة بالتأكيد. ففى خلال خبرتى كلها مع التركمان و الأكراد أو العشائر المتنقلة معظمها لم أجد أناسا متوحشين تبدو عليهم مثل هذه الهيئة الهمجية. إذ يتدلى شعرهم السبط الأسود منتشرا من حول أوجههم الداكنة، و النقاط الوحيدة التى يمكن أن يرتاح لها المرء فى تقاسيمهم الوحشية التى تتجهم عابسة من تحت لباس رأسهم الغريب هى العيون السود النفاذة و الأسنان البيض. و قد كان هناك فى المخيم ألف من الجياد على الأقل و مثل هذا العدد من الرجال الذين يختلطون كلهم معا لتتكون منهم كتلة هائلة، من ذوات الأربع و ذوات الرجلين، تبرز من بينها غابة كثة من الرماح. أما لباس هؤلاء الأعراب، إذا كان من الممكن أن يسمى لباسا، فقد كان لباس البدو الاعتيادى المألوف فى البادية- أى الغترة الحمراء أو الصفراء المشدودة حول قمة الرأس بحبل سميك من الوبر- و «الدشداشة» المصنوعة من الشعر الخشن أو الخيش (البشت)- و العباءة التى تكون عادة من كل جنس و نوعية. و قد كان معظمهم قذرا رثّا. و لم يكن البعض منهم يرتدى «اللباس»، و بعضهم الآخر لم يكن يملك ما يغطى به نفسه على ما يظهر سوى العباءة الخلقة المشدودة حول المحزم بقطعة من حبل الشعر و كان شعر البعض منهم سبطا منثورا على طبيعته، و شعر البعض الآخر مضفورا بضفائر

طويلة، كما كانت سيماء الجميع حادة تنم عن كثير من الشموخ. و كانوا كلهم عجفا طوالا، يبدون و كأنهم جياع للفريسة. لكنه لم يسمح لأى شيء يشتم منه رائحة هذا الاستعداد بالظهور أمامنا، مع أنهم فى لحظة واحدة تجمعوا حولنا بالمئات حالما ظهرنا بينهم.

و مع أنهم أبدوا كثيرا من حب الاستطلاع، فإن ذلك لم يكن مشوبا بالخشونة.

لا بل كان الأمر بالعكس، فحينما كان بعضهم يقترب منا اقترابا زائدا كان الآخرون يعتذرون عنه فيتراجع الجميع ليفسحوا لنا المجال بمشاهدة الشيء الذى كنا نتظاهر بالنظر إليه. و هنا كان يظهر الفرق بين عربى البلدة أو الفلاح و عربى البادية أو البدوى.

فالأول جلف فظ و الثانى «جنتلمن». و الحقيقة، انهم على جميع ما فى مظهرهم من وحشية و شراسة كان فى عملهم و تصرفهم نوع من الأدب

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۹۷

الفطرى. و لا شك أن أبرز ما فى هذه المقارنة ينشأ عن روحية الاستقلال الجموحة التى تولد نفس التأثير فى الهنود الحمر الذين يقطنون أمريكا الشمالية.

و قد تحدثنا حديثا وديّا للغاية ما بيننا لوقت ما، و سألناهم عن المعاملة التى قد يعاملوننا بها إذا ما شاءت الصدفة أن يعثروا علينا فى طريقهم، و هل يعمدون إلى سلبنا أم لا. فأظهروا أنهم قد صدموا لمجرد الفكرة نفسها، و صرحوا و هم يضعون أيديهم على رؤوسهم و أعينهم بأننا أعزاء عليهم بقدر أهمية هذه الأعضاء للإنسان.

و مع أن الجو كان باردا، و لا سيما فى الليل، فقد كان هؤلاء الرجال مخيمين كلهم على الأرض الجرداء من دون غطاء سوى العباءة التى كانوا يرتدونها. و لم تكن هناك أية خيمة سوى خيمة الشيخ، و هذه كانت صغيرة جدّا. و لذلك كان كل منهم ينام، أينما اتفق، فيبدون و كأنهم حزم من الخرق القذرة سوّدت وجه الأرض. و قد كان معظمهم مسلحا بسيوف من نوع السيوف العربية الحدباء و الخناجر المعقوفة المعلقة من المحزم. و كان عند بعضهم صوالج حديد ثقيلة، كما كانت عند الكثيرين منهم حراب يبلغ طولها خمسة أو ستة أقدام للرمى. و هناك الجريد، أو الحراب الأصغر منه، المصنوع من الحديد و المعلق بالكثير من السروج بمقدار يصل أحيانا إلى ستة فى كل جانب، و هذا يرمونه عند الحاجة بخفة و قوة عظيمة. و قد كان بعضهم يحمل مطارق صغيرة، كما كان لقليل منهم أعواد يبلغ طول الواحدة منها ياردة واحدة، و تجهز بكلاليب من الحديد، يستطيعون أن يلتقطوا بواسطتها أى شيء يقع على الأرض أو أن ينتزعوا رجلا من سرجه حينما يغيرون بسرعة تامة. و قد كان هناك أيضا عدد قليل من البنادق البالية. لكن سلاحهم الأعظم على كل حال هو الرمح الذى قلت من قبل إنه كانت توجد غابة كثيفة منه تغطى الأرض، و الذى لا يشعر أى أعرابى أنه رجل كامل بدونه. إذ كان كل منهم يغرز رمحه بالقرب من جواده بوجه عام.

أما خيولهم فقد خيبت أملى كثيرا، فإننى لم أر إلّا فى النادر جوادا ذا

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۹۸

منظر أصيل بين جميعها. و لا شك أن أحسنها كان قد ركبها أناس اصطحبهم الشيخ معه حينما ذهب فى خدمة الپاشا، لكننى كنت أتوقع أن أرى مزيدا من الخيول التى تستحق أن ينظر إليها.

فلم تكن هزيلة و صغيرة فحسب، بل كانت قبيحة الشكل و تنقصها جميع الصفات المهمة التى يتميز بها الجواد العربى. و الحقيقة أن قبيلة زبيد لم تكن على ما يبدو مشتهرة بالخيول الأصيلة. و إذا سألتهم عن سبب ذلك يردون عليك بقولهم «إننا إذا أردنا أن نحصل على الأصائل من الخيول نذهب إلى عنزة فننهب منها ما نريد». و قد فعلوا هذا فى الحقيقة ذات يوم، لكنه كاد يكلفهم وجودهم كقبيلة محترمة بين القبائل.

فقد أرادوا فى يوم من الأيام على ما يبدو أن يحصلوا على عطف مير آخور الپاشا، أو رئيس الخيلة التابع للپاشا، بأن يقدموا له هدية محترمة.

لكنهم و قد كانوا لا يملكون أنفسهم الجياد الأصيلة اللائقة، عمدوا إلى سرقة دزينة من أحسن خيول عنزة التى كانوا على وفاق تام معها فى ذلك الوقت.

على أن هؤلاء سرعان ما اكتشفوا السرقة، و لم يفتهم أن يعينوا السراق أنفسهم. فبعثوا إلى زبيد يحملونها وزر الجريمة، و هم يقولون «لقد كنا إخوانا لكم و هكذا نرغب أن نكون. و قد سرقت خيولنا و أنتم سراقها- نحن نعلم ذلك و لا يجديكم الإنكار شيئا، بل أرجعوها لتكونوا إخوانا لنا كما كنتم من قبل، و إلا فنحن أعداء لكم منذ الآن». فحلفت زبيد بكل ما هو مقدس بأنهم واهمون فيما ذهبوا إليه- و أنها لا تعلم شيئا عن الموضوع، و دعت عنزة أن تأتى فتفتش عن خيولها عندهم. و لا شك أن العرب لا يجاريهم أحد فى إخفاء الخيل المسروقة، و قد نجحوا نجاحا غير يسير فى هذا الحادث بحيث لم تستطع عنزة تمييز خيولها من بين الخيول الأخرى. لكن رجال عنزة ظلوا غير مقتنعين بالنتيجة، و قال «إن هذا لا يدل على شىء فى الحقيقة، أنتم السراق و ليس غيركم. و لما كنتم قد اخترتم أن تؤذوننا و تهينوننا و لا تلتفتون إلينا، فليكن الأمر كذلك، و نحن أعداؤكم».

و قد برت عنزة بوعدها هذا. و لما كانت على جانب أكبر من القوة

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۱۹۹

و المنعة بين القبائل فقد دبرت فى الحال أن تضايق زبيدا و تؤذيها حتى أضجرتها و نغصت عليها عيشها، فقررت أن تحسم المشكل مع عنزة بقدر الإمكان.

و لذلك بعثت زبيد إلى المير آخور ترجوه ان يعيد لها الخيول بأى شرط كان.

فتم لها ما أرادت و أعيدت إلى عنزة خيولها المسروقة مع اعتراف متواضع بالخطأ، و رجاء بإعادة الصداقة إلى ما كانت عليه من قبل بين العشيرتين.

فأبت عنزة ذلك قائلا- «كلا، لقد أثبتم أنفسكم بأنكم أناس لا عقيدة لهم- أيها الأوغاد و المساكين الذين يعد من الخزى و العار الاتصال بهم. لقد وجدتم من المناسب أن تعيدوا ما نهبتموه، لكنكم هيهات أن تستعيدوا تقديرنا لكم- سنبقى على عدائنا لكم». و الحق أن هذا النزاع مع عنزة قد عجل بالقضاء على مكانة زبيد بين العشائر.

و من مخيم زبيد العارى ذهبنا إلى معسكر الهايته الكائن على بعد غير يسير منه، فكان هذا منظر طريف آخر، فقد كان ممتلئا بالمنهوبات التى كان ناهبوها يرزمونها و يؤمنون عليها بقدر ما يمكن. إذ كانت كل خيمة ممتلئة بكميات من الحاجات و الأشياء غير المتجانسة، فالأسرة المصنوعة من جريد النخل و الأفرشة و القدور و أوانى الطبخ و الطسوت و الأباريق، و ألبسة النساء

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۰۰

و الرجال و غير ذلك، كانت كلها مكدسة فى كل زاوية و مكان و مجموعة بأكوام فى أماكن استراحة الرجال بينما كانت قطع الأشياء المكسورة تغطى الأرض. و كذلك كان عدد كبير من الحيوانات المسروقة يتمرغ فى أكداس التبن المنهوب، الذى كانت تصف إلى جانبه أكياس كبيرة من الحبوب. فلم تطعم تلك الحيوانات بمثل ما أخذت تطعم به الآن. و قد كان أحد الهايتة يسوق عددا من حمير الحمل الحردة، التى كانت على ما يبدو غير مرتاحة مطلقا لتبدل الأصحاب. و كان آخر قد استحوذ على بغلين كبيرين، و كان عدد آخر غيرهما يسحبون خيولا يركض وراءها أصحابها المساكين و هم يستعطفون سراقها بإعادتها إليهم و لكن من دون جدوى، غير أنهم كانوا محظوظين لأن الرد على توسلاتهم لم يكن مصحوبا بضربهم باليطقان.

و لم نلاحظ فى هذا المعسكر شيئا يدل على الضبط أو النظام العسكرى إلا فى النادر. فقد كان كل فرد منصرفا إلى شؤونه الخاصة، و كان الضباط على ما يبدو لا يمارسون أدنى سلطة على جنودهم. فالحقيقة أن نصفهم كانوا لا يزالون خارج المعسكر يفتشون عن المزيد من النهب، أو يقومون ببيع ما كانوا قد حصلوا عليه من قبل. و قد كان بوسع أى جماعة قوية فعالة من الأعراب أن تفاجىء هذا المعسكر فتقضى عليه كله، إذ لم يكن هناك و لا حارس واحد لا هنا و لا فى باب المدينة نفسها. و حتى فى معسكر قوات «النظام»

الذى كان يجرى تشييده، كان هناك شيء مماثل من عدم وجود أى نوع من الحراسة و التيقظ.

و فى خيمة قائد الهايثة تناولنا القهوة و دخنت الشطوب. و قد كان على ما يروى هو نفسه بطل المعركة كلها، لكن الحقيقة أن كل من تحدثنا إليه كان هو البطل الضرغام أيضا. و الظاهر أن صديقنا هذا لم يستسغ الثناء الذى أثنينا به على قوات «النظام»، و لم يكن يعترف حتى بالبسالة التى أبداها أصدقاؤه هو فى الهجوم على طول الجسر. فقد أكد لنا أن رجال «الدستة» التابعة له هم الذين اضطلعوا بالعمل جميعه، و لذلك أضاع منهم ستة عشر أو ثمانية عشر رجلا خلال المعركة. على أنه اعترف، كما اعترف كل فرد آخر، بأن الأحوال كانت

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۰۱

ستسوء جدّا لولا النجدة من الرجال و الذخيرة التى عبّرها زورق المقيمية إلى الجانب الثانى و وصولها فى الوقت المناسب. و قال لنا إن ما يقرب من مئتى شخص قد قتلوا و جرحوا من الطرفين، و لما كان هذا الرقم مع الروايات التى سمعناها من مختلف المصادر فإنه قد يكون قريبا من الحقيقة و الواقع.

۱۱ كانون الأول

لقد تأيدت هذا اليوم الأخبار التى تناهت إلينا من قبل حول انقسام عنزة على نفسها و فى جناح الجزيرة. و يقال بصورة جازمة إنهم قد رحلوا من هنا، و بعد أيام قلائل يؤمل أن تفتح الطرق المحيطة بالعاصمة و تخلو من قطاع الطرق و السلابين. و قد رتب الپاشا أموره مع قبيلة عقيل بتنصيب سليمان غنام، الرجل المغامر الذى أشير إلى تنصيبه فى المشيخة من قبل، لقيادة القوافل و حراستها. بينما منح شيخ عقيل الأصلى الرخصة اللازمة بالإقامة هنا بشرط أن يوافق على المعيشة كشخص اعتيادى لا غير. و هذا ترتيب يتفق تمام الاتفاق مع التدابير التى يتخذها الپاشا عادة. لأن سليمان غنام هذا لما كان سليلا غير شرعى لرجل من عرب شمر و أم عبدة زنجية فليس هناك عربى حقيقى يود من كل قلبه أن يرضخ لطاعته أو ينضم إليه. أضف إلى ذلك أنه، كما قلت من

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۰۲

قبل، كان قد أخفق فى مناسبة سابقة حينما أعطيت له نفس الصلاحية و المنصب. و قد كان هؤلاء العقيل أنفسهم هم الذين طردوه حينما كانت بعهدته قافلة كبيرة مهمة على مقربة من بغداد نفسها. لكن هذا كله قد لفه النسيان، و صرف النظر عن العواقب- فاللحظة الحالية وحدها هى التى تلاحظ و تؤخذ بنظر الاعتبار.

لقد قرر المستر فنلى، الذى كان نزيلنا المؤنس و رفيقى فى جميع جولاتى و ركوبى، أن ينفذ فكرة القيام برحلة عن طريق النهر بعد أن مل الانتظار إلى حين افتتاح الطريق. و بعد أن أجرى التحضيرات اللازمة استقل مركبا كان متوجها إلى البصرة. لكن المستهل الأول للرحلة كان شيئا غير مشجع، لأن المركب لم يقطع خمسة أميال حتى أوقف بحجة وجود خيول فيه لم تدفع عنها الرسوم الحكومية المطلوبة. و قد حصل بهذه المناسبة منظر تختص به هذه الجهات، حيث تبين أن الرسوم المطلوبة كانت قد دفعت و لكن ليس إلى الشخص المختص نظرا لحصول بعض التغييرات و التبدلات الرسمية. و على هذا حضر اثنان من الهايثة يمثلان الموظف المختص، و من دون سؤال أو رحمة انهالا- على بحارة المركب و الركاب بالضرب و الإهانة و أمراهم بإخراج جميع الخيول الموجودة فوق ظهر المركب. فتدخل الدكتور روص، الذى كان قد رافق المستر فنلى لمسافة فى المركب، فى قضية جواد المستر فنلى نفسه و أرجع ذينك الرجلين إلى صوابهما. و على أثر إشعار أرسل إلى المقيم أوفد رسول فى الحال إلى محل الحادث، و بكل برودة و هدوء صرف الرجلين الخبيثين من دون أى سؤال آخر. و لو لا أن تهيىء الصدفة وجود رجل إنكليزى فى المركب لنهب المركب على وجه التأكيد، و أضاع أصحاب الخيل ما يملكون، أو أجبروا على دفع مبالغ غير يسيرة لاستعادتها. هذه هى شرطة بغداد، و هذا عدلها!!

۱۷ كانون الأول

وصلت من إنكلترة هذا اليوم رزم و رسائل و أخبار إلى حد اليوم التاسع

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۰۳

عشر من تشرين الأول- و لكن لم يكن فيها شيء لى بطبيعة الحال، فمن هو الذى يستطيع أن يمسك قطرة زئبق مثلى و يعرف عنوانه؟ فأنا اليوم هنا و غدا فى مكان آخر، و مضطر إلى التأخر الآن لسوء الحظ. و مع ذلك لم أستطع أن أكبح التأثر الذى شعرت به، و الحسد الذى ساورنى، لأننى وجدت الآخرين يقرأون رسائل من أصدقائهم بينما حرمت أنا منها. على أننى تصفحت بشره قوائم الوفيات فحمدت اللّه على عدم وجود شخص أعرفه فيها.

لقد عاد المستر فنلى أدراجه لأن المركب لم يستطع السير نظرا لهبوط مستوى الماء فى النهر، الذى يتذبذب منسوبه على الدوام فى مثل هذا الوقت من السنة تبعا للأمطار التى تهطل فى الجبال. و هو قد يرافقنى أنا و الدكتور روص فى سفرتنا التى نعتزم أن نزور فيها سوق الشيوخ و واسط.

و فى هذا اليوم زرنا شيخ زبيد، الذى كنت آمل أن أحصل منه على دليل للقافلة يأخذنا فى مستهل رحلتنا على الأقل إلى المناطق العربية. فقد تأكد تنحى عنزة و انسحابهم إلى بعد كاف لا يجعل منهم مصدر خطر عاجل على الأقل و لما كانت هناك قافلة تستعد للتوجه إلى الحلة، فقد كنا نأمل أن نتحرك إلى الجزيرة بسلم و أمان. و قد وجدنا الشيخ فى بيت محمد أغا حاكم الحلة، فكان رجلا وسيم الطلعة خفيف الروح، أشد سمنة من المظهر الذى كان يظهر به العرب، و أكثر انهماكا بالمعيشة الطيبة مما يكونون عليه فى العادة. و الحقيقة أن السبب الوحيد الذى كان يحول دون التقائنا بهذا الشيخ من قبل هو عدم تمكنه من مواجهتنا نظرا لانهماكه بالفسق و المشروب. فهو فى كل ليلة ضيف على أحد الناس فى بغداد، و هناك يعب من الخمرة ما يشاء حتى يصل إلى أقصى درجات السكر، و لذلك كان يندر أن يرفع رأسه و يرى الناس قبل عصر اليوم التالى.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۰۴

و لم تصبح رذيلة السكر شيئا اعتياديّا فى بغداد فقط بل أصبحت شيئا عامّا تقريبا. فقد كانت على أيام داود پاشا شيئا مخفيّا يتكتم به الناس على الأقل، غير أن الپاشا الآن يقود طبقة السكارى بنفسه، و يرى عادة و هو لا- يكاد يقدر على السير حينما يعود مساء من حفلاته الداعرة فى البساتين. و يبدو أن شيخ زبيد قد تعود على هذا النوع من العيش، و لم يكن حديثه معى على ما تدل عليه الترجمة بيننا رقيقا حتى و لا محتشما على وجه التأكيد. على أنه وعدنا بالمساعدة و الأمان التام فى داخل ديرته هو، و بالأدلاء و الحراس إذا ما احتجنا إليهم فى المناطق الأخرى.

و قد ركبنا فى المساء إلى الكاظمية، و هى قرية تقع على بعد ثلاثة أميال تقريبا من شمالى بغداد، حيث يوجد ضريح الإمام موسى الكاظم إمام الشيعة الذى قطع هارون الرشيد رأسه على ما أعتقد. و كان قد حبس فى جب لا يزال يرى إلى يومنا هذا، و هرب منه بمعجزة على ما يقال. و يزعم آخرون أن رأسه قد قطع بأمر من الخليفة و مع هذا يمكن أن يرى فى بعض الأحيان حتى فى هذه الأيام جالسا فى مكانه القديم فى الجب . و الظاهر أن هذا المزار واسع

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۰۵

جدّا، و له قبتان مطليتان بالذهب و أربع منارات رشيقة. و قد طليت القبتان بالذهب من قبل نادر شاه، الذى يبدو انه قد التجأ إلى هذا الأسلوب فى تزيين قبور الأئمة و الأولياء تكفيرا عن شناعاته الأخرى. و هذا مزار عظيم يقصده الزوار الإيرانيون بكثرة- أى أن جميع الذين يزورون كربلاء لا بد أن يأتوا لزيارة هذا المكان أيضا. و هو مثل سائر الأماكن الشبيهة به يزدهر بما ينفقه هؤلاء الزوار فيه، و يمتلىء بالمتشردين و المنبوذين الذين يلوذون بحمايته. و لم أحاول الدخول فيه لأنى قد رأيت الكفاية من هذه الأشياء، و أريد أن أتحاشى اللغط الذى يثار حينما يحاول الغرباء زيارته أيضا.

۱۹ كانون الأول

علمنا فى هـذا اليوم أن محمود شاه قـد زحف بالتأكيد من تبريز على طهران باثنى عشـر ألـ سـرباز و عشـرين ألف جندى غير نظامى- هذه مبالغة بالأرقام دون شك. و حينما علم أمير فارس بهذا الزحف هرب من أصـفهان إلى بلاده، لكننا لم نسـمع شـيئا حتى الآن عن الادوار التى لعبها الإنكليز و الروس فى هذا النزاع- و مع هذا كم فى كل هذا من طرافة بالنسبة لنا!

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۰۷

(۱۱) [الرسالة الحادية عشر]

قبائل العرب فى ما بين النهرين- أخلاق الأعراب و أذواقهم- ضغائن الدم و الأخذ بالثأر- قصتان من قصص الثأر عند العرب

۲۲ كانون الأول ۱۸۳۴ م

و أخيرا، فقد أكملنا اسـتعداداتنا للرحلة التى نعتزم القيام بها إلى الجزيرة، أو ما بين النهرين السـفلى. و نظرا لأنك سوف تصاحبينا الآن خلال تجوالنا فى أرض تقطنها عشائر عربيـة بالكلية، فقد يسـرك ان تكونى على مزيد من الاطلاع على طبيعة هؤلاء الناس و أخلاقهم قبل أن أقدمهم لك.

فـأنت تعلمين على ما أعتقـد أن بلاد ما بين النهرين، أى البلاد الكائنـة ما بين دجلـة و الفرات، تشـغلها الآن عشائر عربيـة على كونها لا تعتبر جزءا من جزيرة العرب. و لا شك أن خصب هـذه البلاد هو الـذى أغرى هـذه العشائر بأن لا تكتسـح القسم الأعظم منها فقط بل بالاستيلاء أيضا على معظم الأراضى المنخفضة التى تقع فى الجانب الأيسر من دجلة و تمتد من سواحل الخليج حتى الموصل.

و هكـذا فـإن القسم الشـمالى من بلاد ما بين النهرين، أو الجزيرة كما يسـميها العرب، الممتـد من نهر الخابور إلى ما يقرب من بغـداد تقطنه الآن عشـيرة الجربا التى أتينا على ذكرها مرات عـدة من قبل. و تنتشـر عشـيرة الدليم فى الأماكن التى تجاور المدينة مباشـرة. أما البلاد التى تمتـد من هـذه المنطقـة إلى شط الحى، الذى يخترق الجزيرة و يوصل ما بين النهرين العظيمين، فتملكها عدة قبائل تختلف فيما بينها من حيث القوة و الاعتبار، و أبرزها و أكثرها انتشارا قبيلة زبيد.

و على الشاكلة نفسها، تشغل البلاد الممتدة من هذا الشط إلى القرنة، حيث

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۰۸

يلتقى النهران، عشـائر عديـدة أهمهـا ربيعـة، من أقـارب المنتفـك. و الحقيقـة أن جميع القبائـل الأـخرى هى من متعلقـات العشـيرتين القويتين الأخيرتين.

و فى الجـانب الأيمن من الفرات تقوم عشـيرة عنزة، و هى العشـيرة العظيمـة التى أصـبحت تعرفين الشـىء الكثير عنها بلا شك، بحكم البلاد و حمايـة عدد من القبائل الصـغيرة التى تنتشـر على طول النهر من البير إلى عانة، أو تقوم باضـطهادها تبعا لما تقتضـيه الأحوال و الظروف. و فيما بين الحلـة و السـماوة تسـتولى على منطقـة الأهوار المتكونـة من فيضان الفرات، و فى ضـمنها ما تسـمى بأهوار لملوم، عشيرة الخزاعل الكبيرة التى تستمد قوتها من طبيعة البلاد التى تقطنها. و هؤلاء أناس يمتهنون الزراعة و الرعى، و يعيشون لدرجة كبيرة على ما تنتجه قطعان الجاموس الذى تربى على أدغال الأهوار الكثة، فضـلا عن كونهم متوحشـين خاصـين و قطاع طرق غادرين. و من السـماوة إلى البحر تعود البلاد كلها من دون منازع إلى عشـيرة المنتفك العظيمة التى تمتد أحيانا إلى هيت و عانة فى الشـمال متاخمة إلى عنزة، و تحمى عـددا من القبائل الصـغيرة التى تعتمـد عليها. و جميع هـذه العشائر، عـدا عنزة، من رعايا پاشويـة بغداد بالاسم على الأقل.

و فى الجانب الأيسر من دجلة، إلى شمال بغداد، تستولى على البلاد عدة قبائل صغيرة عربية و كردية، كل أفرادها لصوص ينهبون المسافرين و يقترفون كل نوع من أنواع السلب و الإغارة. و فى جنوب بغداد، توجد قبيلة بنى لام القوية التى تصل فى تجولها من أقسام سوسيانا الجنوبية إلى الكرخة . و قد استولى عرب بنى كعب على جميع المنطقة الكائنة ما وراء

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۰۹

نهر الكرخة إلى البحر. و لا شك أن نظرة تلقينها على الخارطة تجعلك قادرة على فهم مواقع هذه القبائل المختلفة.

و جميع أفراد هذه القبائل الصغيرة، و هى تتحدر من نفس الأرومة التى يتحدر منها إخوانهم فى الجزيرة العربية، أو أى مكان آخر يوجدون فيه، يشبهون هؤلاء فى جميع النواحى الأخلاقية الأساسية. فهم جميعهم يدعون بفضيلة السخاء، و إكرام الضيف، و العدالة، و طهارة الذمة، و الوفاء بالعهد، و بالصفات الحميدة المعروفة كالشجاعة و الاستقلال و تعشق الحرية. و هم إذ يعترفون بكونهم قطّاع طرق و لصوصا لا- يجدون ضيرا فى الاستيلاء على ممتلكات الغرباء الذين ربما يكونون غير متفقين معهم على ضمان سلامتهم و أموالهم. و الحقيقة أنهم يقفون ضد أى فرد من الأفراد حتى تطلب مساعدتهم أو يشترى تسامحهم أو رفقهم. و هم يحبون التجوال و الحياة الرعوية التى ينتقلون فيها من مكان إلى آخر ضمن حدود معينة انتجاعا للكلأ الذى تحتاجه قطعانهم و حيواناتهم. على أنهم فى الأيام الأخيرة أخذوا يجدون صعوبة فى الحصول على الكفاية من الحبوب بطريقة المقايضة، و لذلك صار قسم من كل قبيلة ينصرف إلى الزراعة و حراثة قسم من أراضى العشيرة لمنفعة الباقين. على أن هؤلاء الفلاحين أو العرب المزارعين يعتبرون منحطّين فى نظر إخوانهم البدو المتجولين الذين يستخفون بمثل هذه الأعمال الحقيرة، و يعتبرونها مهينة لعنصرهم الحرّ النبيل.

و مهما كان مقدار الفضائل التى كان من الممكن أن يتصف بها العرب الأقدمون فإن قليلا منها فقط قد تحدّر إلى ذريتهم الموجودة هذه الأيام، فى الجهات التى تمكن الأوروبيون أن يصلوا إليها على الأقل. فكما أن المعلومات المكتسبة بالإثم و الجور قد فتحت عيون أسلافنا الأولين إلى عريهم و حرمانهم، كذلك أيقظ الشعور بالفقر النسبى فى مخيلة الأعرابى الاشتهاء للثروة و الغنى- و هو شعور يهدم تعاطى الضيافة أو الكرم تهديما مباشرا، لأن أسهل طريقة تمكنه من الحصول عليها، أو الطريقة الوحيدة فى الحقيقة بالنسبة لرجل فى مثل عاداته و أحواله هى طريقة القوة و الاغتصاب، أى أخذ

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۱۰

الممتلكات التى تعود للغير. و لذلك يصبح وجود هذه الفضائل شيئا نادرا نسبيّا. و يمكن أن يقال الشىء نفسه عن الصدق و طهارة الذمة. فإن الرجل الذى لا يهمه نوع الوسيلة التى يحصل بها على الغنى لا يعبأ إلا قليلا بالوعود و المواثيق. و على هذا ليس هناك أكثر شيوعا بين الأعراب من الخيانة و نكث العهود. و بذلك تصبح رابطة «الخبز و الملح» المقدسة شكلا أجوف يمكن تحاشية بسهولة. فالعهد الذى يعطيه شيخ من الشيوخ يضرب به عرض الحائط حينما يتفق ذلك مع مصلحته هو، فى شخص أخيه أو عمه الذى يعلن استقلاله عن الغير و حقه فى السلب و النهب. حتى أننا كثيرا ما نسمع أن المضيف منهم يقوم بواجب الضيافة تجاه المسافرين باعتبارهم من ضيوفه، و يوصلهم سالمين إلى نقطة متفق عليها، ثم يتصدى لهم بنفسه فيسلبهم و يجردهم من كل ما يملكون .

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۱۱

و الشجاعة، مثل كثير من الصفات الأخرى، هى بنت الظروف و الأحوال الآنيّة و لا تنمو و تترعرع إلا تبعا لما تقتضيه تلك الظروف بالذات. فإن المقاومة العنيدة التى أبدتها قبيلة بنى بو على تجاه القوة البريطانية فى رأس الخيمة، و الشجاعة الفائقة التى أظهرها العرب من الجنود المرتزقة فى الهند فى مناسبات كثيرة، و وقفات الوهابيين الجريئة يمكن أن تتخذ كلها، مع كثير مما يمكن أن يستشهد به من غير هذا، أدلة واضحة على شجاعة العرب و بسالتهم.

و مع ذلك فإن الحال تنعكس فى البلاد التى أتكلم عنها بحيث يصبح خلق الأعرابى الجبان، على عتوه، شيئا معروفا. و هناك عدة حوادث يمكن أن تروى من هذا القبيل. فقد حدث فى مناسبة معينة، حينما كان الكولونيل تايلور مسافرا بالزورق من البصرة إلى

بغداد، أن جماعة من العرب فى إحدى القرى القائمة على ضفاف دجلة أزعجها تصرف أحد الرجال الذين كانوا يعملون فى الزورق نفسه فاجتمعوا بأعداد كبيرة و أخذوا يقومون بحركات عدائية من دون أن يكون من الممكن تفريقهم بمختلف الوسائل، و لذلك ارتئى من الضرورى أن تطلق بعض الإطلاقات فوق رؤوسهم، و أن يصليهم الحرس السپاهيون من فوق الزورق بصلية واحدة فى الهواء. فكان لذلك تأثير آنى فعال، إذ وقع قسم من الرجال على الأرض و لاذ الآخرون بالفرار. أما نساء القرية، أو المخيم، فقد قوضن الخيام فى الحال و تراجعن إلى هور صغير بالقرب من الموقع.

و حينما استمر وقوع الحركات العدوانية، و عاد الناس إلى التجمع بعد أن ازداد عددهم، أنزل إلى البر فريق من الحرس السپاهى. فارتاع الأعراب لهذه التحضيرات المتخذة لمقاومتهم، برغم تفوقهم الكبير فى العدد، و أخذوا يلوحون باستعدادهم للمفاوضة. و على هذا الأساس جرت بعض التفسيرات و التوضيحات فأعيد الصفاء إلى نصابه. و قد اعترفوا بعد ذلك بأنهم كانوا يتصورون بأن زورق المقيم هو من الزوارق الأهلية التى كانوا معتادين على

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۱۲

بلصها و التحرش بها. و قد حدث الشىء نفسه حينما هاجم بعض الأعراب فى النهر صديقا لنا كان مسافرا إلى الجنوب، و طلبوا منه أن يدفع لهم رسوما اعتباطية، لكن إطلاق النار فوق رؤوسهم و إبداء الحزم و القوة تجاههم كانا كافيين لدفع الشر عنه.

و لا غرو، فإن إبداء شىء من الحزم لا بد أن يرجع أعراب ما بين النهرين إلى صوابهم فى جميع الحالات تقريبا. لكن هذا الحزم يجب أن يصدر عن حكمة و تعقل، و إلا فإنه قد يؤدى إلى ما لا تحمد عقباه. فإذا ما سفك أى مقدار من الدم، و كان الخصم متفوقا فى العدد، لا بد أن تكون العواقب و خيمة و النتيجة مهلكة. و إذا لم تحصل مقاومة فى مثل هذه الحالات فيندر أن يعمد الأعراب إلى القتل. و قد دلل على ذلك ما وقع لثلاثة من الإنكليز قبل سنوات قليلة، حينما كانوا مسافرين فى قافلة خرجت من بغداد إلى استانبول، ففى موقع بالقرب من ماردين أحيطت القافلة بفريق من الأعراب المسلحين الذين طالبوا القافلة بمبلغ من المال بصفة رسم كمركى. و قد كان من الممكن أن يسوى المشكل تسوية سريعة بدفع قسم من المبلغ المطلوب، غير أن إخواننا الثلاثة، الذين كانوا يبعدون عن القافلة بمسافة قصيرة حينما وقع الهجوم، استهجنوا فكرة الرضوخ للأعراب و سلبهم من قبلهم فتراجعوا إلى مرتفع من الأرض، و سرعان ما أحاطت بهم هناك ثلة من الأعراب المدججين بالسلاح الكامل. فأعقبت ذلك تهديدات و حركات انفعالية كثيرة، و فى خلال احتدام الغضب من الطرفين، و بقدر مؤسف انطلقت إطلاقة من مسدس أحدهم فأصابت ابن الشيخ أو قريبه. و كانت نتيجة ذلك أن شن هجوم عاجل عليهم فقطع المسافرون المنكودو الحظ إربا إربا فى لحظة واحدة.

و قد سبق أن عرفت من روايات سابقة أن هذ المعارك لا يكاد يسفك فيها دم- فكثيرا ما يتم الظفر و يحصل النصر من دون خسران و لا رجل واحد. لكنه يجب أن يلاحظ أنه، بالإضافة إلى إحجام الشخص من التعرض إلى المخاطر، هناك تقدير عام لعواقب سفك الدم و أخذ الثأر الذى يعتبر كابحا قويّا ضد أى نزوع طائش إلى العنف. على أن المعركة التى جرت مع عقيل لم تطبق فيها

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۱۳

هذه القاعدة، و مع ذلك فقد رأيت ضآلة الخسارة التى حلت بأولئك الأعراب فى هذه المناسبة، و قلة تعريض أنفسهم للخطر.

و حوادث الثأر للدم هذه، على ما تنطوى عليه من الفظاعات و الشناعات، لا تختلف إلا قليلا فى طبيعتها عما هو موجود منها لدى الأمم الأخرى، بما فيهم حتى سكان بلادنا نحن فى الأزمنة القديمة. و من الممكن أن نكتب مجلدات فى تفصيلات هذا الموضوع، لكننى أستطيع أن أقول إنك ستقتنعين بحادثة واحدة أو اثنتين، على سبيل تقديم النماذج، و هناك حادثة واحدة أرانى مدفوعا إلى سردها لأنها حدثت بمعرفة رجل من أهالى بلادنا شهد بأم رأسه دورا من أدوارها.

فقد كان فرع من فروع بنى لام على خصام مع قبيلة أخرى من العرب، لا أتذكر اسمها، و فى خلال هذه الخصومة سفك كثير من الدم بين الطرفين لإشباع الثأر الشخصى و الانتقام لشرف الباقين من الأقارب. فصادف فى يوم من الأيام أن رجلا إنكليزيّا كان يسيح

فى عربستان (خوزستان) استضيف فى خيمة شيخ القبيلة الأخيرة، فكانت مضيفته فيها ابنة الشيخ نفسه التى كانت تقوم مقام أبيها فى هذا الشأن نظرا لعدم وجود أحد غيرها من الأسرة فى ذلك الوقت. و حينما جن الليل لجأ كل فرد إلى فراشه، بما فيهم الضيف الغريب، لكنه انتبه قبيل الصبح على صوت صراخ عرف منه أنه صوت مضيفته الشابة و هى تستغيث و تقول إنها قتلت! فهمّ الجميع إلى محل الحادث، حيث وجدوا البنت المسكينة تعانى سكرات الموت، لأنها كانت قد طعنت فى صدرها بثلاث طعنات عميقة بالخنجر. و حينما كان الجميع ينظرون إلى الضحية المحتضرة و يقدمون الإسعافات الممكنة لها سمع صوت من مكان مرتفع، على مقربة من محل الحادث، ينادى قائلا «أنا التى فعلت ذلك، الحمد للّه، لقد قتلتها». فاستدارت الأنظار كلها إلى ذلك الاتجاه الذى شوهدت واقفة فيه امرأة عجوز تأتى بحركات انفعالية شديدة و حينما هجم الجميع نحوها ركضت إلى حيث كانت الخيام قد نصبت على حافة النهر، و هناك ضويقت فسقطت فيه و اختفت عن الأنظار.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۱۴

و قد تبين بعد الاستفسار و التحقيق أن الشيخ الذى فجع بابنته كان له ذات يوم ابن قتله فى معركة سابقة «پهلوان» ينتمى إلى القبيلة الأخرى. فكانت هذه حادثة تستوجب كل ما تقتضيه الضغينة و الثأر من خلاف. و بعد مدة قصيرة دخل رجل غريب إلى المخيم فقوبل بالترحيب الاعتيادى الذى تقتضيه واجبات الضيافة عند العرب. و كان من سوء الحظ أن يتعرف أحد رجال القبيلة عليه.

و يكتشف أنه نفس «الپهلوان» الذى كان قد قتل ابن الشيخ. فما الذى كان يجب أن يصنع؟ فقد كان الرجل ضيفا على القبيلة، و كانت جميع قواعد الضيافة تقتضى بالنسبة لعرف العرب أن لا يمس بسوء. و كان الشيخ نفسه غائبا فى مكان آخر، و بينما كان حسن النية و الرأفة يسودان المجتمعين دخلت البنت الشابة موضوعة البحث و راحت تعنف الرجال و تعيّرهم بالجبن و التباطؤ فى ثأر شيخهم. ثم قالت «فهل تريدون أن يكون قاتل ابن شيخكم بين أيديكم فيفلت منها؟ إن هذا يجب أن لا يقال مطلقا، اقتلوه فى الحال أو تخلوا عن اسم الرجال!» على أن الإحجام مع كل ذلك بقى مستحوذا على أيدى الرجال و أسلحتهم فمنعها عن التجاوز على قواعد الضيافة و المضيف بمثل هذه الصراحة، برغم الحنق الذى يغلى فى صدورهم. و عند ذاك أمسكت البنت، و هى منفعلة لوجود قاتل أخيها بين ظهرانى القبيلة و تصور إفلاته منها، بسيف فى يدها و بادرت إلى ضربه. فكان منظر الدم شيئا لم يستطع الرجال مقاومته، فسلت السيوف كلها فى لحظة واحدة و أغمدت فى جسم ضيفهم منكود الحظ الذى قطع إربا إربا.

و قد عاد الشيخ فتميز غيظا و غضبا لما اقترفه الفاعلون من انتهاك فاضح لواجبات الضيافة. لكنه فوّض أمره للّه بعد أن لم يكن بوسعه أن يفعل شيئا لتلافى ما وقع. فتصرمت الأيام و انقضى الزمن و نسيت القبيلة حادثة القتل هذه، كما تنسى غيرها من الحوادث. غير أن أم القتيل لم تنس ذلك مطلقا.

و إذ كانت عازمة على الانتقام لابنها ظلت تتعقب المخيم المعادى سنين عديدة و تتحين الفرص بصبر و أناة، فلم تؤاتها الفرصة إلا فى تلك الليلة المشؤومة التى كان فيها الرجل الإنكليزى، الذى يقص القصة هذه، ضيفا بطريق الصدفة فى خيمة الشيخ، و شهد تنفيذ انتقامها الوحشى.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۱۵

اما القصة التالية من قصص الثأر العربية، فهى على جانب أكبر من الهول و الفظاعة، و هى مستقاة من بعض يوميات الكولونيل تايلور عن القبائل العربية و تختص بفترة أبعد فى القدم. فإن عشيرة المنتفك، التى أشرت إلى قوتها و سطوتها من قبل، تستمد قوتها الرئيسة فى الأساس من قبيلتين رئيستين هما قبيلتا بنى مالك و الأجود. و هاتان القبيلتان، و إن كانتا متحدتين فى الوقت الحاضر، كان بينهما خصام عنيف من قبل. و قد كان سبب النزاع اختلافهما على حق المرعى فى مناطق معينة، و كان بنو مالك هم المسيطرين بينما محقت الأجود. و باستثارة بنات القبيلة و تشجيعهن، أخذ كل رجل من رجال الأجود يسلح نفسه للمعركة و يقتحم الموت فى الذب عن البقعة التى كان آباؤه يرعون فيها قطعانهم. غير أن هذا الظفر الدامى على ما كان فيه من شدة و بسالة لم يكن كافيا تجاه ما كان

يساور سليمان، رئيس بنى مالك، من تنبؤ مفعم بالحذر. فقد كان يتخوف مما قد يصيب قبيلته من اقتصاص مخيف فى المستقبل، فيما لو بقى حتى و لو شخص واحد و خاصة من الرجال على قيد الحياة من القبيلة الخاضعة. و لذلك اتخذ ترتيبات فظيعة يعمد فيها إلى قتل نساء تلك القبيلة كلهن، و بذلك يضمن القضاء على نسلها بمثل هذه الوسيلة البشعة. فنفذ هذا العمل الشيطانى، و لم يسلم من النسوة إلا واحدة ألقت بنفسها على قدمى رئيس من رؤساء بنى مالك فأنقذها بعطف منه بعد أن جازف بحياته من أجلها، لأنه جرح و كاد يتقطع جسمه بالسيوف دفاعا عن محميته.

و من هذه الامرأة الشابة، التى كانت حاملا فى يوم المجزرة، ولد عبد اللّه الذى أصبح فيما بعد مؤسسا لقبيلة استمدت اسمها من منشأ رئيسها الخاص فسميت «قبيلة اليتامى ». و قد وقعت المجزرة فى واد من الوديان الجميلة التى يمكن أن توجد بين الجبال حتى فى تجربة الجزيرة العربية الحجرية العقيمة، حيث يمكن الحصول على الماء من قرب سطح التربة فى كل مكان و تغطى الأرض فى الربيع و أوائل الصيف بعشب غزير يكوّن مرعى ممتازا.

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۱۶

و بقعة مثل هذه هى التى يود العربى الجوّال أن ينصب مخيمه فيها. فهى جميلة ممرعة إذا ما قورنت بالبادية المحيطة بها، و ليس من العجب و الحالة هذه أن يستثار العربى و يكافح من أجل الحفاظ على حقه فى التمتع بمثل هذا الملجأ و الملاذ. و يقع هذا الوادى على بعد خمسة عشر ميلا جنوبى البصرة الحديثة، و هو يحتفظ حتى يومنا هذا بالاسم الذى أطلق عليه فى تلك الواقعة المشؤومة، حيث إنه يسمى اليوم «وادى النسا».

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۱۷

فهرس الأعلام

آ آشور بانيپال ۴۸

أ إبراهيم باشا ۱۴

إبراهيم، السيد (خادم المقيمية) ۱۰۹

إبراهيم القزوينى ۱۷۶

أبو بكر (المملوك) ۱۲۸، ۱۲۹

أبو الحسن ۶۳

أبو طالب ۱۱۱

أحمد أغا (تفنگچى باشى) ۱۲۳

أحمد أغا الجيبه چى ۱۵۶

الحاج أحمد أغا (متولى المسيب) ۱۲۰

أحمد بك (أخو محمد پاشا) ۲۰، ۲۳

أحمد سوسة ۸۳

إسحاق الصراف ۱۲۰، ۱۷۰

أسعد پاشا (سعيد پاشا) ۹۵

أسعد النائب، الحاج ۱۳۰، ۱۵۲

الإسكندر المقدونى ۷۶

إسماعيل أغا ۷۰

إسماعيل پاشا ۲۷

إسماعيل الصفوى، الشاه ۲۰۵

أغا ميناس ۱۸۲

أم سالم ۱۳۵

أمين الدولة ۱۷۸

أنستاس الكرملى، الأب ۱۰۱، ۱۹۹

أوشيه أيلوى (الرحالة الفرنسى) ۱۲۲

أوغوز بك ۲۰

أوكترلونى ۱۷۱

أوليا چلبى ۱۳۴

ب باقر شريف القريشى ۲۰۴

بايزيد بك ۱۷، ۱۸، ۲۱

البدليسى ۵۳

بكر أفندى ۱۰۲

بكنغهام ۷۵، ۸۱، ۸۲، ۸۳، ۸۴، ۸۷، ۸۸، ۹۵، ۱۷۱

پير خضر شاهو ۴۶

بيرسى سايكس ۱۷۸

بيلى فريزر ۸، ۹، ۱۰، ۱۱، ۸۰، ۸۲

ت تايلور، الكولونيل ۱۷، ۷۳، ۹۶، ۹۸،

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۱۸

۹۹، ۱۰۳، ۱۰۶، ۱۰۹، ۱۲۲، ۱۷۴، ۱۸۲، ۱۸۴، ۲۱۱، ۲۱۵

تيمور خان ۲۰

ج جعفر البرمكى ۶۳

جميل روز بيانى ۵۳

جهانگير أغا ۶۳، ۶۶، ۶۷

ح حبيبة خانم ۱۲۴

حنش الحمود، الشيخ ۲۳

حسن پاشا (كوچوك) ۷۹

الحاج حسن پاشا الكبير ۱۱۰

حسن على مرزا ۱۷۸

حسين على مرزا ۱۷۸

حمدى بك المهردار ۱۳۰

خ خالد أغا ۱۲۱

الشيخ خزعل ۲۰۸

الحاج خليل ۱۲۴، ۱۲۶

د دانش أفندى ۱۱۹

داود پاشا ۹، ۳۲، ۷۵، ۷۹، ۸۱، ۸۸، ۹۵، ۹۶، ۱۰۱، ۱۰۲، ۱۱۲، ۱۱۷، ۱۱۹، ۱۲۱، ۱۲۳، ۱۲۴، ۱۲۵، ۱۲۶، ۱۲۷، ۱۲۸، ۱۳۴، ۱۴۱، ۱۵۴، ۱۵۵، ۱۶۸، ۱۶۹، ۱۷۰، ۱۷۵، ۱۷۶، ۱۹۹، ۲۰۱، ۲۰۴

درويش پاشا (الفريق) ۴۱

دوبريه ۲۰۳

دوغاما ۵

دياز ۵

دى ماركى ۱۵۵، ۱۵۶، ۱۵۷

ر رحمة اللّه أغا الجيبه چى ۱۲۶

رستم (المملوك) ۱۲۸

رستم أغا (ضابط المكرية) ۱۲۰

رستم أغا ۳۱، ۵۳، ۵۴، ۵۵، ۵۷، ۵۸، ۶۳

رسول بك ۲۰، ۲۱، ۲۴، ۲۷

رسول حاوى الكركوكى ۱۳

رشيد پاشا الگوزلگلى ۲۸

الرضا، الإمام ۲۰۴

رضا قلى مرزا ۱۱

رضوان أغا ۱۳۰

رمضان أغا ۱۲۱

روص (الطبيب) ۱۶، ۱۷، ۱۸، ۱۹، ۲۰، ۲۱، ۲۲، ۲۴، ۲۵، ۲۶، ۲۷، ۱۸۲، ۱۸۳، ۲۰۲، ۲۰۳

ريچ، كلوديوس ۸۵، ۱۶۹

ز زبيدة ۶۳، ۱۳۹، ۱۴۰

زرادشت ۱۳

الزعفرانى السيد ۱۷۶

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۱۹

زمرد خاتون ۱۳۹

س ساردانا پولس ۴۸

سعدون (المملوك) ۱۲۸

السيد سعيد (إمام مسقط) ۱۴۱

سعيد پاشا (ابن سليمان الكبير) ۱۲۵

سلطان بک ۲۳

سلمی خانم ۱۵۴

سلوقس ۷۶

سلیم أغا ۳۱، ۵۱، ۵۳، ۶۳، ۶۴

سلیم پاشا ۲۴، ۴۱، ۵۲

سلیمان (بنو مالک) ۲۱۵

سلیمان أغا (المیر آخور) ۱۲۰

سلیمان بابان ۳۱، ۳۲، ۵۴

سلیمان پاشا الصغیر ۱۵۴

سلیمان پاشا الکبیر ۸۳، ۱۱۱، ۱۲۵، ۱۷۰، ۱۸۰، ۱۸۳

سلیمان بک ۲۰، ۱۲۶

سلیمان غنام ۱۲۳، ۱۲۴، ۱۹۳، ۲۰۱

سلیمان فائق ۱۲۹، ۲۰۱

سمیرامیس ۱۹، ۴۸، ۵۵

السندی بن شاهک ۲۰۴

سی مصطفی ۸۹

سید پاشا ۲۴، ۲۷

سید هندی ۱۲۵

ش شفلح الشلال، الشیخ ۱۹۳

شلاش (شیخ الجربا) ۱۳۷، ۱۳۸

ص صادق أفندی ۱۱۷، ۱۱۹، ۱۲۰، ۱۲۱، ۱۷۰

صادق بک (ابن سلیمان الکبیر) ۱۲۵

صالح أغا (حاکم المحاویل) ۱۲۰

صالح بک (ابن سلیمان الکبیر) ۱۲۳، ۱۲۴، ۱۲۵، ۱۲۶، ۱۲۷، ۱۲۹

صفوک (شیخ شمر) ۱۲۳، ۱۲۴، ۱۳۶، ۱۳۷، ۱۷۳، ۱۸۲

صمد خان ۴۴

ظ ظاهر بک ۴۶

ظل السلطان ۱۷۷

ع عباس العزاوی ۱۳۴

عبد الحمید خان، السلطان ۱۵۴

عبد الرحمن پاشا بابان ۳۱، ۵۴

عبد العزیز (شمر) ۱۳۶

عبد الغنی جمیل ۱۳۰

عبد القادر پاشا ۱۱۵

عبد القادر الخطيب الشهربانى ۱۰۱

عبد القادر زيادة الموصلى ۱۳۰

عبد القادر الگيلانى، الشيخ ۱۵۱، ۱۶۸، ۱۷۵، ۱۸۱

عبد الكريم أغا ۵۴

عبد اللّه (الأجود) ۲۱۵

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۲۰

عبد اللّه خان ۴۴

عبد اللّه بن طاوس ۲۰۴

عثمان سيفى بك ۱۳۰

عجيل الياور ۱۳۶

عزيز أغا ۱۱۵

عشتار ۴۸

على أغا ۶۴، ۱۲۸

على أغا اليسرچى ۱۳۰

على پاشا ۱۴، ۱۸، ۲۷، ۲۸، ۲۹، ۱۱۱، ۱۱۷، ۱۱۹، ۱۲۳، ۱۲۴، ۱۴۱، ۱۶۸

على خوجة ۶۳

ملا على الخصى ۱۳۰

على رضا پاشا ۹، ۴۱، ۱۲۶، ۱۲۷، ۱۲۸، ۱۲۹، ۱۳۳، ۱۳۵، ۱۳۶، ۱۵۱، ۱۵۲، ۱۵۴، ۱۷۶، ۱۹۳، ۲۰۱

على ظريف الأعظمى ۱۱۵، ۱۲۰

عمر پاشا (من المماليك) ۱۱۰

عمر پاشا سردار أكرم ۴۷

عول خضر أغا ۴۴، ۴۶، ۴۹، ۵۲، ۵۳

غ المستر غروفز ۹۵، ۹۹، ۱۰۰، ۱۰۱، ۱۰۲، ۱۰۳، ۱۰۴، ۱۰۵، ۱۰۶، ۱۰۸، ۱۰۹، ۱۱۳

ف فتح على شاه ۳۲، ۱۷۷

فرحان پاشا (شمر) ۱۳۶

فرمان فرما ۱۷۷

الفضل بن يحيى (البرمكى) ۲۰۴

فليكس جونز، الكوماندر ۸۰، ۱۵۵

فنلى، المستر ۲۰۲، ۲۰۳

ق قاسم أغا، قاسم پاشا العمرى ۱۲۳، ۱۲۴، ۱۲۶

قرة بيبر ۱۲۴

ك كوريكالزو الأول ۱۷۳

كيخسرو بك ۴۷

ل لونگريک ۵، ۷، ۸، ۲۴، ۲۷، ۱۲۰، ۱۲۱، ۱۲۳، ۱۲۷، ۱۲۹، ۱۵۴

م ماكنيل ۳۸

مأمون المصطفى (درويش) ۱۵۱، ۱۶۲، ۱۶۳، ۱۶۴، ۱۶۵

محمد (النبى) ۳۴

محمد أغا (حاكم الحلة) ۲۰۳

محمد أغا (ملتزم الاحتساب) ۱۲۴

محمد أفندى مصرف ۱۱۹، ۱۲۰، ۱۲۱

محمد پاشا الأعور (كور) ۹، ۱۴، ۲۰، ۳۲، ۴۱

محمد خان (أغا) ۶۶

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۲۱

محمد خان (سرتيپ) ۴۱، ۴۲

محمد شاه ۱۷۶، ۱۷۸

محمد على پاشا (مصر) ۳۳، ۱۱۹

محمد على مرزا ۳۲، ۱۷۸

محمد الليلانى ۱۳۰

محمود البابانى ۳۱، ۳۲، ۵۴، ۱۲۵

محمود پاشا (بير قدار) ۲۸

محمود شاه ۲۰۵

مدحت پاشا ۱۹۹

مراد، السلطان ۱۵۵

المستضىء باللّه (الخليفة العباسى) ۱۳۹

مسرور (خادم الرشيد) ۶۳

مصطفى جواد، الدكتور ۸۳، ۱۳۹

المير مصطفى (والد مير راوندوز) ۱۶، ۱۸، ۲۰

المكتفى باللّه (الخليفة العباسى) ۸۳

موريير ۴۲

موسى پاشا ۲۴

موسى الكاظم، الإمام ۲۰۴، ۲۰۵

ن نابليون ۷

نادر شاه ۱۶، ۲۰۵

الناصر لدين اللّه (الخليفة العباسى) ۱۳۹

نجف قلى ميرزا ۱۱

نجيب پاشا ۱۷۶

نيبور (الرحالة) ۷۹، ۱۳۹

و وادى الشفلح الشلال، شيخ ۱۹۳

وودهاوسلى، اللورد ۱۱

ه هارون الرشيد (الخليفة) ۶۳، ۱۳۹، ۲۰۴

هنرى لندزى بيثون، السر ۱۷۸، ۲۰۵

ى يحيى پاشا الجليلى ۱۳۶ رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط ؛ ص۲۲۱

يى بن خالد (البرمكى) ۲۰۴

يعقوب الصراف ۱۷۰

الحاج يوسف أغا ۱۵۱

يوسف پاشا (الصدر الأعظم) ۱۵۴

يوسف بك (باب العرب) ۱۷۴

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۲۲

فهرس الأمكنة و البقاع

آ آسية ۲۹، ۷۱

آشور ۱۰، ۱۷، ۴۸، ۵۵، ۱۶۳

آلتون كوبرى ۱۸، ۲۲، ۲۷

أ إبراهيم خانچى ۳۱، ۵۰، ۵۴، ۵۵

أدين كوى ۶۳، ۶۶

أذربيجان ۱۳، ۴۵

أربيل ۱۴، ۱۵، ۱۸، ۲۰، ۲۱، ۲۲، ۲۳، ۲۴، ۲۵، ۲۷، ۳۳

أردلان ۹، ۴۰

أرضروم ۳۲

أرومية ۱۳، ۱۴

استانبول ۷، ۸، ۹، ۱۱، ۲۹، ۹۰، ۹۶، ۱۱۲، ۱۱۷، ۱۱۹، ۱۲۲، ۱۲۶، ۱۲۷، ۱۴۵، ۱۵۰، ۱۵۳، ۱۵۶، ۱۵۸، ۱۶۱، ۲۱۲

أستراباد ۱۱۲

إسكوتلاندا ۱۱

أشنو ۱۴

أصفهان ۱۷۲، ۱۷۷، ۲۰۵

الأعظمية ۱۱۱

أفغانستان ۱۶۸

ألزاشية ۱۶۸

أمريكا ۳۳، ۱۹۷

أنفريس ۱۱

إنكلتره ۱۱، ۲۵، ۳۸، ۵۶، ۱۴۳، ۱۵۶، ۱۸۴، ۲۰۲، ۲۰۳

الأهوار ۲۰۸

أورپة ۵، ۳۳، ۱۰۹

أوشنو ۲۹

إيران ۸، ۹، ۱۰، ۱۴، ۱۷، ۲۵، ۳۱، ۳۲، ۳۳، ۴۱، ۴۶، ۵۳، ۶۱، ۷۶، ۷۷، ۸۴، ۹۶، ۱۰۷، ۱۴۰، ۱۷۷، ۱۷۸، ۲۰۵، ۲۰۸

ب باب الحلة ۱۸۳، ۱۸۴، ۱۹۰، ۱۹۵

الباب السلطانی ۸۰

باب الشيخ، محلة ۱۷۵

باب المعظم ۸۰

باب الموصل ۸۰

الباب الوسطانی ۷۲

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۲۳

بابل ۵، ۱۰، ۷۶، ۸۱، ۹۳، ۱۶۹، ۱۷۳، ۱۷۴

بازيان ۴۶

باليک ۱۳

بانة ۵۴

البحر الأبيض المتوسط ۵

البحر الأسود ۱۲۳

بخاری ۱۶۸

البرتغال، البرتغاليون ۵

بردکر ۴۰

بريطانية ۷

البصرة ۵، ۹۵، ۹۸، ۹۹، ۱۱۰، ۱۱۱، ۱۱۲، ۱۱۴، ۱۱۵، ۱۷۲، ۲۰۲، ۲۱۱، ۲۱۶

بغداد ۵، ۹، ۱۰، ۱۳، ۱۴، ۱۶، ۱۷، ۱۸، ۲۲، ۲۵، ۲۷، ۲۸، ۲۹، ۳۰، ۳۱، ۳۲، ۴۰، ۴۱، ۴۲، ۴۳، ۴۷، ۵۶، ۶۳، ۶۷، ۷۱، ۷۳، ۷۵، ۷۶، ۷۷، ۷۹، ۸۰، ۸۱، ۸۲، ۸۳، ۸۴، ۸۵، ۸۷، ۸۸، ۹۰، ۹۲، ۹۳، ۹۵، ۹۶، ۹۷، ۹۹، ۱۰۱، ۱۰۶، ۱۰۹، ۱۱۰، ۱۱۱، ۱۱۲، ۱۱۴، ۱۱۵، ۱۱۷، ۱۱۹، ۱۲۱، ۱۲۳، ۱۲۴، ۱۲۵، ۱۲۶، ۱۲۷، ۱۲۹، ۱۳۰، ۱۳۳، ۱۳۴، ۱۳۵، ۱۳۶، ۱۳۷، ۱۳۸، ۱۳۹، ۱۴۰، ۱۴۴، ۱۴۶، ۱۴۹، ۱۵۰، ۱۵۱، ۱۵۴، ۱۵۵، ۱۵۸، ۱۶۳، ۱۶۸، ۱۶۹، ۱۷۱، ۱۷۲، ۱۷۳، ۱۷۴، ۱۷۵، ۱۷۹، ۱۸۰، ۱۸۱، ۱۸۲، ۱۸۹، ۱۹۳، ۲۰۱، ۲۰۲، ۲۰۳، ۲۰۴، ۲۰۷، ۲۰۸، ۲۱۱، ۲۱۲

البندقية ۵

بوشهر ۱۱۱

بومبی ۷۰، ۸۰

البير (بيره جك) ۲۰۸
بيروت ۲۰۳
بيكاديللى ۹۳
ت تبريز ۸، ۹، ۲۸، ۴۰، ۴۱، ۸۷، ۱۵۱، ۲۰۵
تربة زبيدة ۱۷۴
تركستان ۱۶۸
تركيا ۳۱، ۸۳، ۸۷
تشرينغ كروس ۹۳
تفت ۱۴۳
تفليس ۸۷
تكية المولوية ۷۹
تيريكورام ۱۱۲
ج جامع الآصفية ۷۹
جامع حسن پاشا ۷۹
جامع الخنينى ۱۸۱
جامع سوق الغزل ۸۳
جامع غنام ۱۸۱
رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۲۴
جامع القصر ۸۳
جامع مرجان ۱۷۴
جامع الوزير ۷۹
جان ريز ۵۱
جبل حمرين ۶۳، ۶۵
جبل سنجار ۱۳۵
جبلا أجا و سلمى ۱۳۵
جزيرة ابن عمر ۲۷
جزيرة العرب ۲۰۷، ۲۰۹
جسر الشهداء ۷۸
الجسر القديم ۷۸
جعفران ۴۷
چمچمال ۴۶، ۴۷
جنوة ۵
جوانرود ۴۶

جورجيا ۱۴۲

الجوغى ۱۶۳

ح حرير ۲۷

حسنكيف ۲۷

حلب ۸۷، ۱۱۹، ۱۲۳، ۱۲۸، ۱۵۱، ۱۵۴، ۱۸۰

حلبچة ۴۶

الحلة ۱۰، ۱۰۹، ۱۱۲، ۱۷۴، ۱۷۷، ۱۹۴، ۲۰۳، ۲۰۸

خ الخابور ۲۰۷

الخالص ۶۸، ۶۹، ۱۱۱، ۱۳۰

خان الأورتمة ۱۵۵

خان مرجان ۱۵۵، ۱۷۴

خانقين ۴۲، ۵۱

خرابة ۴۰

خليج البصرة ۶۵

الخليج العربى ۵، ۶، ۲۰۷

خوزستان ۲۰۸، ۲۱۳

د دجلة ۱۵، ۲۳، ۵۰، ۶۵، ۶۶، ۶۷، ۷۰، ۷۵، ۷۶، ۷۸، ۹۸، ۱۳۷، ۱۷۴، ۲۰۷، ۲۰۸، ۲۱۱

دربند ۴۱، ۴۸

دلو ۳۱، ۵۱

دلهى ۱۷۱

دلى عباس ۶۶، ۶۸

دمدم ۱۳، ۱۸، ۱۹، ۲۱

دمشق ۸۷، ۱۰۶، ۱۸۰، ۱۹۳

دهوك ۲۷

دور كوريكالزو ۱۷۳

ديار بكر ۲۸، ۱۲۳

ديالى ۱۰، ۶۶، ۱۳۵

الديوان خانة ۵۵

ر رأس الخيمة ۲۱۱

رانية ۲۷

رشت ۱۱۲

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۲۵

راوندوز ۹، ۱۳، ۱۴، ۱۶، ۱۷، ۱۸، ۱۹، ۲۰، ۲۱، ۲۲، ۲۴، ۲۶، ۲۷، ۲۹، ۳۲، ۳۳، ۴۱، ۴۲، ۵۲

روسية ۱۴، ۲۵، ۳۳

روما ۱۰۹، ۱۷۲

ريليك ۱۱

ز الزاب ۱۸، ۲۴، ۲۶

الزاب الأسفل ۲۷

الزاب الكبير ۱۹

زاخو ۲۷

زالة ۳۱، ۴۳، ۴۸، ۵۰

الزبير ۵

زنجبار ۱۴۱

زنگنه ۵۴

س سرادشت ۱۳، ۴۴، ۵۴

سگرمة ۴۷

السكة خانة ۱۵۵، ۱۵۶

سلماس ۱۳

سلوقية ۱۰، ۷۶

السليمانية ۹، ۱۳، ۱۴، ۳۰، ۳۱، ۳۲، ۳۶، ۳۸، ۴۱، ۴۳، ۴۴، ۴۶، ۴۷، ۴۹، ۵۱، ۵۲، ۵۵، ۱۱۲، ۱۲۵

السماوة ۱۱۲، ۲۰۸

سميث فيلد ۹۳

سنجار ۲۷، ۱۱۱

سوج بولاق ۳۴

سورية ۵، ۱۵۴

سوسيانا ۲۰۸

سوق البزازين ۸۰

سوق التمارة ۸۰

سوق التوتونجية ۸۰

سوق السلطان ۸۰

سوق السكة خانة ۱۵۵

سوق الشيوخ ۱۰، ۱۱۲، ۲۰۳

سوق الصفافير ۸۰، ۱۵۶

سوق الصياغ ۸۰

سوق الغزل ۸۰، ۸۳

سوق القز ۸۰

سوق اليورغانجية ۸۰

سولدوز ۱۳

سيازورس ۳۸

ش الشام ۲۰۳

شيشتر ۱۷۷

شط الحى ۲۰۷

شقلاوة ۱۴

شهرزور ۳۱، ۳۸، ۳۹، ۴۰، ۴۴، ۴۶، ۴۷

الشيروان ۲۷

شيروانة ۴۳، ۴۶

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۲۶

ص الصابونية ۱۲۰

الصلاحية ۵۱

صوب عگيل ۱۸۱

الصين ۲۵، ۱۱۰، ۱۴۳

ط طاق كسرى ۱۰، ۷۶

طسوج ۱۳

طهران ۱۷۸، ۲۰۵

طوزخرماتو ۱۲۰

ظ الظفرية ۷۲

ع عانة ۲۰۸

العراق ۵، ۷، ۸، ۹، ۱۰، ۲۴، ۴۶، ۴۷، ۹۰، ۹۵، ۱۱۰، ۱۲۲، ۱۲۵، ۱۳۵، ۱۳۶، ۱۴۲، ۱۶۹، ۱۷۶

عربت ۴۰

عربستان ۶۱، ۲۰۸، ۲۱۳

العرجة ۱۱۲

عقرة ۱۳، ۲۲، ۲۳، ۲۴، ۲۵، ۲۷

عقرقوف ۱۷۳، ۱۷۴، ۱۷۷

العمادية ۱۳، ۱۷، ۱۸، ۲۱، ۲۳، ۲۴، ۲۷، ۲۸

غ غلوستر شاير ۱۴۳

ف فارس (إيران) ۱۷۷، ۲۰۵

الفرات ۶۶، ۱۳۷، ۱۷۴، ۲۰۷، ۲۰۸

فرنسة ۷

فلورنس ۱۰۹

فومن ۱۱۲

ق قادر كرم ۵۴

قايين ۱۴۳

القرنة ۲۰۸

قره تپة ۶۳، ۶۴

القسطنطينية ۸۸

القشلة ۱۳۴

قشم ۶

القفقاس ۸۷، ۱۴۲

القلعة (فی بغداد) ۱۲۴، ۱۵۵، ۱۸۶

القلعة (فی شهرزور) ۴۰

قنبر علی (محلة) ۱۳۰

قهاوی عگيل ۱۸۱

ك كارون، نهر ۲۰۸

كاشان ۱۴۳

الكاظمية ۸۸، ۱۳۶، ۱۹۳، ۲۰۴

كربلاء ۵۳، ۸۸، ۱۱۲، ۱۷۵، ۱۷۶، ۱۷۷، ۱۷۹، ۱۸۱، ۲۰۵

كرجستان ۱۴۲

الكرخ ۷۹، ۱۳۴، ۱۵۲، ۱۸۰،

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۲۷

۱۸۱، ۱۸۳، ۱۹۴، ۲۰۱

الكرخة، نهر ۲۰۸

كردستان ۸، ۹، ۲۸، ۴۷، ۵۳، ۵۹، ۶۵، ۱۱۲، ۱۵۷

كرده لربويه ۴۷

كركوك ۱۵، ۳۳، ۴۶، ۷۲، ۸۱، ۱۱۲

كرمنشاه ۳۲، ۴۰، ۴۱، ۴۲، ۵۲، ۱۱۲، ۱۱۴، ۱۴۳، ۱۷۷، ۱۷۹

گرميان ۴۲

كفری ۳۱، ۴۳، ۴۶، ۵۰، ۵۱، ۵۴، ۶۰، ۶۱، ۶۳، ۶۴

الكوت ۱۳۵

گورديان ۶۵

كوكسبر ۹۳

گولعنبر ۴۰

كوهية ۱۴

كوى ۲۷، ۵۴

كوير ۲۳

كويسنجق ۴۱

كيخسرو بيگى ۴۶

كيلان ۱۱۲

ل لا ديابل بواتو ۸۵

لاهيجان ۱۳، ۱۴، ۱۱۲

لملوم ۲۰۸

لندن ۱۱، ۳۱، ۱۶۸، ۲۰۳

ليون ۱۴۳، ۱۴۵

م ما بين النهرين ۱۰، ۱۵، ۱۷، ۴۲، ۱۰۸، ۱۳۶، ۲۰۷، ۲۱۲

ماديرا ۷۸

ماردين ۲۷، ۲۱۲

مازندران ۱۱۲

المحاويل ۱۲۰

مدريد ۸۵

مدغشقر ۱۴۱

مراغة ۱۴

المستنصرية ۱۶۳

مسجد پير داود ۱۰۲

مسقط ۱۴۱

المسيب ۱۲۰

مشهد على ۸۸

مشهد الإمامين الكاظمين ۱۳۹

مصر ۵، ۸۸، ۱۱۹

المطهر ۱۷۲

المقيمية البريطانية ۷۳، ۹۳، ۹۸، ۱۰۳، ۱۱۲، ۱۲۵، ۱۶۶، ۱۶۹، ۱۷۳، ۱۸۱، ۱۸۲، ۱۸۴، ۱۹۰، ۱۹۵، ۲۰۱

المكرية ۱۲۰

مندلى ۱۱۰

المنصورية ۶۶

الموصل ۱۷، ۲۶، ۲۷، ۲۸، ۴۲،

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۲۸

۵۲، ۸۰، ۸۱، ۸۴، ۱۱۰، ۱۲۳، ۱۳۶، ۲۰۷

ميدان السلق ۱۱۱

ن نجد ۱۳۵، ۱۸۰

النجف ۵، ۱۷۵

نصيبين ۲۷

ه هبهب ۶۳، ۷۰

هراة ۱۴۳

هرمز، قلعة ۵، ۶

همذان ۴۰، ۱۰۷، ۱۱۲، ۱۷۷

الهند، الهنود، ۵، ۶، ۷، ۸، ۱۱، ۲۵، ۳۳، ۷۳، ۷۸، ۸۴، ۱۱۰، ۱۱۱، ۱۱۲، ۱۴۳، ۱۶۳، ۱۶۸، ۱۷۱، ۱۷۶، ۲۱۱

الهويرة ۲۳

هيت ۲۰۳، ۲۰۸

الهيمالايا، جبال ۱۱

و وادى النسا ۲۱۶

واسط ۲۰۳

ى ياسين تپه ۴۰

يزد ۱۴۳

يوركشاير ۱۴۳

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۲۹

فهرس القبائل و الشعوب و الأديان

آ الآشوريون ۴۸

آل محمد (شيوخ شمر) ۱۳۵

أ الأباظة ۸۷

الأجود ۲۰۸، ۲۱۵

الأرمن ۸۸، ۹۰، ۹۹، ۱۰۹

الأرناؤوط ۱۲۸

الإسلام ۲۹، ۴۵، ۱۰۳، ۱۴۱، ۱۶۱، ۱۶۲

الإفرنج ۵۶، ۱۰۳، ۱۶۹

الأكراد ۱۰، ۱۴، ۲۱، ۲۲، ۲۳، ۲۹، ۳۱، ۳۲، ۳۳، ۴۴، ۵۲، ۵۷، ۵۸، ۵۹، ۶۳، ۶۵، ۶۶، ۸۸، ۱۹۶

الألبانيون ۱۳۷، ۱۵۱، ۱۵۲، ۱۸۹

ألبو سلمان ۲۶

الإنكليز ۶، ۸، ۵۲، ۵۷، ۶۶، ۷۲، ۱۲۲، ۱۴۲، ۱۷۸، ۲۰۵، ۲۱۲

الأوروبيون ۷، ۱۰، ۱۹، ۳۸، ۹۶، ۹۷، ۱۹۰

الإيرانيون ۶، ۳۱، ۳۳، ۴۱، ۴۶، ۵۲، ۵۴، ۵۹، ۶۶، ۸۸، ۱۷۵، ۱۷۷، ۲۰۵

ب البابانيون ۲۰، ۲۷، ۳۱، ۴۶، ۵۱

البدرخانيون ۲۷

البدو ۸۸، ۹۰، ۹۲، ۱۹۶

البرادوست ۲۷

البرامكة ۱۹۳

البراهميون ۱۶۳

البرتغاليون ۶

البريطانيون ۶

البغداديون ۱۱۱

البلباس ۱۳، ۱۴، ۴۱

بنوكعب ۲۰۸

بنو لام ۱۳۶، ۲۰۸، ۲۱۳

بنو مالك ۲۰۸، ۲۱۵

بهرام بيكى ۴۶

البوداخى ۴۶

بيت البير قدار ۵۱

بيت الخنينى ۱۸۱

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۳۰

بيت دلة ۱۲۶

بيت سليمان الصالح ۱۸۱

بيت الكحيمى ۱۸۱

بيت اللاحم ۱۸۱

ت التتر ۱۵۲

الترك (الأتراك) ۵، ۸، ۲۲، ۶۱، ۶۶، ۷۵، ۷۷، ۸۹، ۹۰، ۱۳۴، ۱۴۱، ۱۴۴، ۱۵۱، ۱۸۴

التركمان ۵، ۵۸، ۱۹۶

ج الجاف ۳۱، ۴۳، ۴۶، ۴۷

جاف إيران ۴۶

جاف العراق ۴۶

جاف مرادى ۴۶

الجبور ۱۹۳

جربا (شمر) ۹، ۲۳، ۱۲۳، ۱۳۳، ۱۳۵، ۱۳۷، ۱۳۸، ۱۹۳، ۲۰۱، ۲۰۷

خ الخزاعل ۲۰۸

د الدليم ۱۹۳، ۲۰۷

ر ربيعة ۲۰۸

الروم الكاثوليك ۱۵۱، ۱۷۲

روان ۱۴

الروس ۴۵، ۵۲، ۸۷، ۱۷۸، ۲۰۵

الروغزادی ۴۳، ۴۶

ز زبيد ۹، ۱۰، ۱۲۵، ۱۷۴، ۱۹۳، ۱۹۴، ۱۹۵، ۱۹۸، ۱۹۹، ۲۰۳، ۲۰۴، ۲۰۷

زبيد الأصغر ۱۹۳

زبيد الأكبر ۱۹۳

زنكنة ۵۴

س سعد العشيرة ۱۹۳

ش شاطری ۴۳، ۴۶

الشراكسة (الجركس) ۸۷، ۱۲۳

شمر طوقة ۱۳۵

الشورجی ۲۷

الشيروان ۲۷

الشيعة ۲۰۴

ص صدانی ۴۶

الصفويون ۵، ۱۵۵

ط الطرخانی ۴۶

طيیء ۲۲، ۲۳، ۱۳۶

ع العبيد ۱۹۳

العثمانيون ۴۶، ۱۲۸

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۳۱

العجم ۵۴

العرب ۱۰، ۲۲، ۵۸، ۶۱، ۶۳، ۶۵، ۶۷، ۶۸، ۶۹، ۷۱، ۷۲، ۷۵، ۸۸، ۸۹، ۹۱، ۹۲، ۱۰۶، ۱۳۳، ۱۳۴، ۱۳۵، ۱۳۶، ۱۳۷، ۱۳۸، ۱۴۰، ۱۷۷، ۱۸۰، ۱۸۲، ۱۸۸، ۱۹۰، ۱۹۵، ۱۹۸، ۲۰۳، ۲۰۷، ۲۰۹، ۲۱۰، ۲۱۱، ۲۱۲، ۲۱۳، ۲۱۴

عقيل ۹، ۱۲۳، ۱۲۴، ۱۷۳، ۱۸۰، ۱۸۱، ۱۸۲، ۱۸۳، ۱۸۸، ۱۸۹، ۱۹۳، ۱۹۴، ۲۰۱، ۲۰۲، ۲۱۲

عنزة ۹، ۱۳۳، ۱۳۶، ۱۳۷، ۱۳۸، ۱۵۲، ۱۷۳، ۱۷۴، ۱۸۸، ۱۹۳، ۱۹۸، ۱۹۹، ۲۰۱، ۲۰۸

غ الغزی ۲۰۸

ف الفضول ۱۳۶

ق القحطانية ۱۹۳

قريش ۱۳۹

القصيمات ۲۰۱

ک الکرج ۸۷، ۱۱۷، ۱۲۷، ۱۲۸، ۱۴۲

کلالی ۴۶

کیخسرو بیکیه ۴۶

ل اللاز ۱۲۳

م المسیحیون (النصاری) ۸۸، ۹۹، ۱۴۱، ۱۴۴، ۲۰۴

المغول ۵

المماليک ۷، ۹، ۹۵، ۱۲۴، ۱۲۵، ۱۲۷، ۱۲۸، ۱۳۰، ۱۵۲، ۱۵۴

المنتفک ۱۰، ۲۰۱، ۲۰۸، ۲۱۵

المیکایلی ۴۶

ن النوجیة ۱۴

النجم الدینی ۴۶

ه الهارونی ۴۶

هرکیة ۱۴

الهماوند ۳۱، ۴۶، ۴۷

الهنود ۷۳، ۱۷۱

الهنود الحمر ۱۹۷

الهولانديون ۶، ۱۷۲

و ولد بیکیه ۴۶

الوهابیون ۲۱۱

ی یزدان بخشی ۴۶

الیهود ۴۴، ۸۸، ۹۰، ۱۰۴، ۱۱۴، ۱۴۱، ۱۴۴، ۱۷۰

رحلة فريزر إلى بغداد/ تعريب جعفر خياط، ص: ۲۳۲

فهرس المحتويات

مقدمة المترجم ۵

الرسالة الأولى ۱۳

الرسالة الثانية ۳۱

الرسالة الثالثة ۶۳

الرسالة الرابعة ۷۵

الرسالة الخامسة ۹۵

الرسالة السادسة ۱۱۷

الرسالة السابعة ۱۳۳

الرسالة الثامنة ۱۵۱

الرسالة التاسعة ۱۷۳

الرسالة العاشرة ۱۹۳

الرسالة الحادية عشرة ۲۰۷

فهرس الأعلام ۲۱۷

فهرس الأمكنة و البقاع ۲۲۲

فهرس القبائل و الشعوب و الأديان ۲۲۹

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلاّمة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع "مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹